اتِّبَاعُ الأَثَرِ

تأليف

فَارِسُ بنِ فَالِحِ الخَزْرَجِي

فِي شَرْحِ العَيْنِ وَالأَثَرِ

للعلامةِ عَبْد البَاقي المَواهِبِي الحَنْبَلي

هذا الكتاب وقف على طلبة العلم يجوز لهم نشره ونسخه .

ولا أجيز لأي دار نشر أو شخص طبعه على سبيل التربح منه .

والتمس من كل من يقرأ الكتاب الدعاء لوالديّ ولي وللمؤمنين .

المؤلف



المقدمـــــــة

الحمد لله الذي له الحمد في الأولى والآخرة ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وآله وسلم تسليمًا كثيرًا ، وارض اللهم عن صحابته أجمعين ، وعن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد .

فأصل هذا الشرح كان دروسًا صوتية ضمن البرنامج العلمي في المدرسة الحنبلية العراقية ، فرغب إلي الطلبة في تحريره ليكون أنفع لهم ، لا سيما وأنه من الكتب الدرسيَّة في المذهب كما بيَّن ذلك الإمام السفاريني رحمه الله في مقدمته[١] .

ويوم شرعت في تحريره ، عمدت إلى توثيق كل ما ذكره العلامة المواهبي رحمه الله وطيب ثراه بنصوص الإمام أحمد ﵁ ، فأكون بذلك مبينًا مراد المصنف في كونه ناقًلا منصوص عقائد الحنابلة متبعًا لأثر أيمتنا ، وأسميته (اتِّبَاعُ الأَثَرِ في شَرْحِ العَينِ وَالأَثَرِ) .

وهو جهد المقلِّ المقصر ، الفقير لخدمة المذهب وطلابه ، فمن وجد فيه خيرًا فبتوفيق من الله تعالى وحده ، ومن وجد في غير ذلك فمني ومن الشيطان .

والله أسأل التوفيق والقبول والسداد ، إنه سميع مجيب .

وكتب

الفقير إلى عفو ربه

فارس بن فالح الخزرجي الأنصاري الموصلي

٨ / رجب / ١٤٤٤

الموافق ٣٠ / ١ / ٢٠٢٣

---

(١) لوامع الأنوار البهية (١ / ٢) .

﴿ مباحث مطلوبة بين يدي الشرح ﴾

توطئة . بيان أسباب اظهار مخالفة تقي الدين بن تيمية للإمام أحمد وعلماء المذهب .

المبحث الأول : ثبوت رواية لا كيف ولا معنى ، وفهم تقي الدين المغاير لنص الإمام أحمد رضي الله عنه .

المبحث الثاني . الصفات عند الإمام أحمد رضي الله عنه والحنابلة تدخل في المتشابه وبيان مخالفة تقي الدين لنص الإمام أحمد وعلماء المذهب .

تــوطئــة

لما سيأتي من مباحث

الباحث عن نتيجة وحقيقة معرفية معينة أو مذهب معين ينبغي أن يسلك المنهج العلمي التأصيلي ، الذي يصطلح عليه أرباب ذلك المذهب .

ومعلوم أن المقدمات الصحيحة تثمر نتائج صحيحة ، وعكسها تثمر نتائج فاسدة ، ولا يتأتى ذلك إلا بالاستدلال الصحيح .

لذلك وقع المخالفون لمذهب الحنابلة من (السلفية المعاصرة ومن ينسب نفسه للمذهب في الفروع) في إشكالية الاستدلال الفاسد فقدموا مقدمات فاسدة اثمرت نتيجة فاسدة وهي الاضطراب في المعتقد ، باعتمادهم على ما قرره شيخ الإسلام ثم حصروا المذهب بأكمله في ما اختاره ونسبوه للحنابلة ، ثم نتج عن ذلك تبديع علماء المذهب والطعن فيهم وفي مصنفاتهم وهذا قصور في التأصيل والبحث .

ومن جملة الاعتراضات الفاسدة التي يعترض بها مقلدوا شيخ الإسلام .

فإن قيل ..لماذا لم يظهر علماء الحنابلة مخالفة شيخ الإسلام وانتم اليوم تظهروه ؟؟.

قلنا :

١. لم يكونوا بحاجة لإظهار ذلك لأنهم وإن وقروه وعظموه ونقلوا عنه ماوافق المذهب إلا أنهم لم يقدموا خلافه على المذهب كما في زماننا .

٢.لم يأت أحد بعد شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم من علماء المذهب من عظمه وقدسه وقدمه على علماء المذهب كما في هذا العصر ، وقد بدأ هذا التعظيم والتقديس منذ الشيخ محمد عبد الوهاب وازداد في زمننا هذا حتى سمعنا من بعضهم أنهم يقدمونه على الائمة الأربعة ، وآخرون مغالون فيه فقائل بعصمته ، وآخرون جعلوا علمه كعلم الصحابة والله المستعان .

وغالب نصوص مقلديه ، تتضمن نسبة العصمة له من الخطأ ، إضافة إلى جعله ممثلًا لاعتقاد السلف ، دون غيره من العلماء .

وعندما أظهر شيوخ الحنابلة المنتسبون للمذهب في العقيدة والفروع وأصول الفقه ، عقيدة الإمام أحمد ﷺ والحنابلة ــ رحمهم الله ــ وهو اثبات الصفات وتفويض معناها إلى قائلها . بدأ (السلفية المعاصرة ومن ينسب نفسه للمذهب في الفروع) انكار نسبة ذلك والقول ببدعية التفويض ، ثم جعلوا اختيار شيخ الإسلام وهو اثبات معاني الصفات في اللغة العربية ، فنسبوه للمذهب بينما المعهود عن مخالفي الحنابلة أنهم مفوضة لمعاني الصفات .

المبحث الأول

- **أسباب اظهار مخالفة شيخ الإسلام للمذهب .**

صرح تقي الدين في أكثر من موضع أنه لم يدع إلى حنبلية أو غيرها ، وهذا في حد ذاته ــ يفترض ــ يبين لمقلديه أن هناك فرقًا بين المذهب الحنبلي وبينه .

١.تصدير مقلدي شيخ الإسلام على أن أقواله واختياراته العقدية هي المذهب الحنبلي .

٢. اعتماد نقد تقي الدين لعلماء المذهب وكأنها نص منزل لا يقبل المخالفة ، مع وجود من انتقده كما أثنى عليه كابن رجب رحمه الله .

٣. قدموا اختياره (اثبات معاني الصفات) على قول الإمام وقول المذهب.

٤ . زعموا أن تقي الدين مصحح المذهب عقيدة وفقهًا .

٥.جعلوا نقده وتأويله لرواية حنبل نصًا قطعيًا لا يجوز مخالفته وسيأتي نقض ذلك كله لاحقًا.

٦. جعلوا مدار الولاء والبراء على اختياره ، وامتحنوا الناس به ، فمن وافق على اختياره كان من السنة عندهم ، والامتحان بحد ذاته بدعة .

٧. محاولة جعل المذهب بدون قواعد عقدية من خلال فهمهم المغاير لمصنفات العلماء وتقسيم المذهب الى مدارس ومذاهب .

٨. التصريح بتبديع علماء المذهب (كابن بلبان رحمه الله) في قلائده

٩. تخوين علماء المذهب بأنهم خانوا الإمام ومذهب الحنابلة .

١٠ . وهذا من أهم الأسباب ، أن كل ما يتناقله السلفية المعاصرة من اعتراضات على اعتقاد الحنابلة هي من أقوال شيخ الإسلام عليها يدور معتقدهم ، وبه يتبين فقر المكتبة العقدية للسفلية المعاصرة ، لذلك لم نلتفت لأقوالهم المعاصرة ، بل قصدنا بيان مخالفة شيخ الإسلام للإمام وعلماء المذهب .

فكان لزامًا علينا أن نبين ونظهر مخالفة تقي الدين رحمه الله للمذهب لا سيما وأنه القائل: « مع أني في عمري إلى ساعتي هذه لم أدع أحدا قط في أصول الدين إلى مذهب حنبلي وغير حنبلي، ولا انتصرت لذلك، ولا أذكره في كلامي » [١].

فكان واجبنا :

الذب عن الإمام أحمد وعلماء المذهب رضي الله عنهم ، وما نسب إليهم والمحافظة على ما قدموه ونقلوه لنا من منصوص الإمام سواء في الأصول (العقيدة) أو الفروع أو في أصول الفقه ، وبيان مخالفة تقي الدين في مسائل عقدية عدة .

منها قوله : القرآن كلام الله تعالى صفة ذات وصفة فعل[٢].

ومنها : نفي أن الإمام أحمد رضي الله عنه قال القرآن قديم[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى (٣ / ٢٢٩).

(٢) قال تقي الدين رحمه الله : « وأما أهل السنة وأئمة السنة وكثير من أهل الكلام كالهاشمية والكرامية وأصحاب أبي معاذ التومني وزهير اليامي وطوائف غير هؤلاء يقولون: إنه صفة ذات وفعل هو يتكلم بمشيئته وقدرته كلامًا قائمًا بذاته » مجموع الفتاوى (٦ / ٢١٩).

(٣) سياتي في صفحة (٢٠١).

المبحث الأول

ثبوت رواية لا كيف ولا معنى ، وفهم تقي الدين المغاير لنص الإمام أحمد ﷺ .

يعتمد النافون لقول الحنابلة (بتفويض معاني الصفات الخبرية) في رد راوية الإمام حنبل بن اسحق بن حنبل على نقد شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمهما الله – للرواية ..دون بحث علمي متجرد ، فيجد القارئ أنهم يكررون كلامه دون نظرة علمية وبحث متجرد ، بل دون الرجوع إلى مدونات المذهب الحنبلي العقدية .

استدلال شيخ الإسلام ومقلديه :

إما بتضعيف رواية (لا كيف ولا معنى) .

أو بتأويلها .

١. قالوا في تضعيفها :

« حنبل له مفاريد ينفرد بها من الروايات في الفقه، والجماهير يروون خلافه، وقد اختلف الأصحاب في مفاريد حنبل التي خالفه فيها الجمهور هل تثبت روايته؟ على طريقين: فالخلال وصاحبه قد ينكرانها، ويثبتها غيرهما كابن حامد»[١].

وقال أيضًا : « وحنبل ينفرد بروايات يغلِّطه فيها طائفة؛ كالخلال وصاحبه »[٢].

---

(١) الاستقامة (١/ ٧٥).
(٢) مجموع الفتاوى (١٦ / ٤٠٥).

٢. وتارة بتأويلها :

وقال « ولا كيف ولا معنى؛ أي: لا نُكيِّفها، ولا نُحرِّفها بالتأويل، فنقول: معناها كذا»[١].

ولنقض هذا الاستدلال :

ينبغي نقل نص الخلال في نقد روايات حنبل لتتضح حقيقة النقد .

قال أبو بكر الخلال رحمه الله : «قد جاء حنبل عَنْ أَحْمَد بمسائل أجاد فيها الرواية وأغرب بغير شيء وإذا نظرت فِي مسائله شبهتها فِي حسنها وإشباعها وجودتها بمسائل الأثرم»[٢] .

والناظر للنقد في قول تقي الدين رحمه الله أنها في الفقه .

والأمر الثاني نقد الخلال لغرائب روايات حنبل والتي صرح الحنابلة بوهمه فيها وسيأتي بيانها .

(١) درء تعارض العقل والنقل (٢ / ٣١) .
(٢) طبقات الحنابلة (١ / ١٤٣).

الجواب عن : شبهة أن الخلال نقد حنبل بأن له روايات تفرد بها .

يستدل تقي الدين وتلميذه رحمهما الله بقول الخلال في نقد مرويات حنبل رحمه الله ، على وهم حنبل في هذه الرواية ، ولبيان فساد هذا الاستدلال نقول :

١.إن من طريقة الخلال ، إذا تفرد حنبل برواية صرح بذلك ، مثاله :

« قبول شهادة بعض اهل الذمة على بعض ، قال المرداوي في الانصاف : وخطأه الخلال في نقله، قال أبو بكر عبد العزيز: هذا غلط لا شك فيه »[١].

٢. الخلال هو من نقل رواية حنبل كما هو معلوم ، ولم يعقب عليها كما في مسائل فروعية ، وهذه الراوية من صلب العقيدة ، فمن ينقد في الفقه فمن باب أولى أن ينقد في العقيدة .

٣.إن نقد الخلال لمفاريد حنبل كان بالمجمل وهذه الرواية ليست من مفاريده ، دل على ذلك نصوص الإمام أحمد ﷺ في رواية لا كيف ولا معنى .

٤. غلط من قال رواية (لا كيف ولا معنى) تفرد بها حنبل :

لم يتفرد حنبل رحمه الله في رواية (لا كيف ولا معنى) كما يظن البعض بل رواها المروذي وهو من أصحاب الإمام وطبقة حنبل رحمهما الله .

قال المَرُّوْذِيُّ[٢] رحمه الله : قال أبو عبد الله ﷺ :« ونحن نؤمن بالأحاديث في هذا ونقرها، ونمرها كما جاءت بلا كيف، ولا معنى إلا على ما وصف به نفسه تعالى، نسأل الله السلامة في الدنيا والآخرة، ونعوذ بالله من الزلل، والارتياب والشك إنه على كل شيء قدير»[٣].

إضافة إلى أن الخلال نقل رواية حنبل دون نقد كما سيتضح .

---

(١) الانصاف للمرداوي (١٢ / ٤١).
(٢) قال ابن رجب رحمه الله : « هو المقدم من أصحاب أَحْمَد لورعه وفضله وكان إمامنا يأنس به وينبسط إليه وهو الذي تولى إغماضه لما مات وغسله » . طبقات الحنابلة (١ / ٥٧).
(٣) الإبانة (٧ / ٥٨).

٥.تلقي علماء المذهب لهذه الرواية بالقبول ولم ينكر ثبوتها أحد ــ سوى شيخ الإسلام وتلميذه ــ وقد نقلها الخلال ثم تلامذة الخلال ونقلها بعد ذلك أبو يعلى ثم الموفق والى يومنا هذا دون نكير .

٦. يدل كلام ابن تيمية عند تأويله لقول الإمام (لامعنى) ولا نحرفها بالتأويل، فنقول: معناها كذا . أنه أثبت صحتها ، وإلا فلم يشرح العبارة بما فهمه ؟!.

٧ . استقلال فهم تقي الدين رحمه الله لرواية حنبل ، ولم يسبقه أحد إلى ذلك من علماء المذهب .

٨. إشكالية تعامل شيخ الإسلام رحمه الله في روايات حنبل :

وهذه من أهم المسائل : فنجد مثلًا : رغم تصريح الخلال وابي بكر بغلط حنبل في رواية قبول شهادة اهل الذمة في بعضهم البعض ، إلا أن ابن تيمية يأخذ بها :

فههنا ثمة مسألة لماذا ردّ ثم أوّلَ رواية عقدية لم يصرح بخطأ نقلها الخلال ولا أبو بكر أو غيرهما ، ثم في مسألة صرح ايمة المذهب بغلط حنبل في نقلها ثم يأخذ بها :

قال المرداوي : وعنه: أن شهادة بعض أهل الذمة تقبل على بعض، نقلها حنبل، وخطأه الخلال في نقله، قال أبو بكر عبد العزيز: هذا غلط لا شك فيه، قال أبو حفص البرمكي: تقبل شهادة السبي بعضهم على بعض إذا ادعى أحدهم أن الآخر أخوه، والمذهب: الأول، والظاهر: غلط من روى خلاف ذلك، قاله المصنف، والشارح، واختار رواية قبول شهادة بعضهم على بعض: الشيخ تقي الدين – رحمه الله –.....»[1].

(١) الانصاف للمرداوي (١٢ / ٤١).

دقة أمانة أئمة الحنابلة في النقل والنقد :

الناقلون عن الإمام أحمد رضي الله عنهم ثقات ، وإذا تفرد منهم أحد ذكروا تفرده وحددوا ذلك في أي رواية تفرد وردوها[1] مثال ذلك :

١.رواية تأويل المجيء : أوردها القاضي أبو يعلى رحمه الله قال :

« وقد قال أحمد في رواية حنبل في قوله: {وجاء ربك} ، قال: قدرته، قال أبو إسحاق بن شاقلا: هذا غلط من حنبل لا شك فيه، وأراد أبو إسحاق بذلك أن مذهبه حمل الآية على ظاهرها في مجيء الذات هذا ظاهر كلامه والله أعلم»[2] .

فليتنبه أخي القارئ : إسحاق بن شاقلا ٣٦٩ هجرية . رد صراحة هذه الرواية ولم يكتف بالإجمال .

٢. « قال في الفائق: وعنه لا يملك، لكن يأكله بعد الحول مع فقره. نقله حنبل وأنكره الخلال»[3].

إضافة إلى أن شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم لم يسبقهما أحد في تضعيف هذه الرواية أحد من أئمة المذهب ــ يقينًا وجزمًا ــ كما حصل في ما تقدم من رواية المجيء ورواية شهادة اهل الكتاب بعضهم على بعض ورواية اللقطة ، ولو سبقهما أحد لنقل الينا كما نقلوا تغليطه في رواية المجيء والشهادة .

ولاح بهذا التقرير بيان خطأ ما ذهب إليه شيخ الإسلام رحمه سواء في تضعيف رواية (لا كيف ولا معنى) أوفي تأويلها .

---

(١) ومن أمثلة ذلك رد الموفق رحمه الله على ابن عقيل بالرغم من رجوعه .
(٢) ابطال التأويلات (١ / ١٣٢) .
(٣) الانصاف للمرداوي (٦ / ٤١٤).

الصفات عند الإمام أحمد ﷺ والحنابلة تدخل في المتشابه

ثنيّت بهذا المبحث لبيان أعظم المسائل التي خالف فيها تقي الدين رحمه الله الإمام أحمد ﷺ وعلماء المذهب[١].

يستدل السلفية المعاصرة _ كعادتهم _ بقول تقي الدين رحمه الله في أن الصفات من المحكم ثم يجعلون هذا القول هو المذهب الصواب مطلقًا وما سواه هو البدعة والمخالف للسلف زعموا .

ولبيان ذلك نقل ما قاله تقي الدين رحمه الله تعالى في هذه المسألة .

قال رحمه الله :

« وأما إدخال أسماء الله وصفاته أو بعض ذلك في المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله. أو اعتقاد أن ذلك هو المتشابه الذي استأثر الله بعلم تأويله كما يقول كل واحد من القولين طوائف من أصحابنا وغيرهم فإنهم وإن أصابوا في كثير مما يقولونه ونجوا من بدع وقع فيها غيرهم فالكلام على هذا من وجهين: الأول: من قال: إن هذا من المتشابه وأنه لا يفهم معناه فنقول أما الدليل على بطلان ذلك فإني ما أعلم عن أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة لا أحمد بن حنبل ولا غيره أنه جعل ذلك من المتشابه»[٢].

مناقشة قول تقي الدين :

١.تصريحه بأن هذا قول طائفة من الحنابلة ، مع أن هذا قول الحنابلة عامة ولا يعلم لهم مخالف فيه ذلك .

٢. نفيه أن يكون هذا قول السلف وقول أحمد ولم يذكر النقول عنهم بل اكتفى بقوله (ما أعلم أحدًا) . وهذا غير مسلم ، لأن من ادعى دعوى لزمه توثيقها .

---

(١) وقد تناولت هذا المبحث في شرحي على كتاب (لمعة الاعتقاد) .
(٢) مجموع الفتاوى (١٣ / ٢٩٤).

وقال أيضًا :

«يقولون: إن قوله: {وما يعلم تأويله إلا الله} يدل على أن معنى المتشابه لا يعلمه إلا الله والحديث منه متشابه -كما في القرآن - وهذا من متشابه الحديث؛ فيلزمهم أن يكون الرسول الذي تكلم بحديث النزول لم يدر هو ما يقول ولا ما عني بكلامه - وهو المتكلم به ابتداء. فهل يجوز لعاقل أن يظن هذا بأحد من عقلاء بني آدم فضلا عن الأنبياء فضلا عن أفضل الأولين والآخرين وأعلم الخلق وأفصح الخلق وأنصح الخلق للخلق صلى الله عليه وسلم وهم مع ذلك يدعون أنهم أهل السنة وأن هذا القول الذي يصفون به الرسول وأمته هو قول أهل السنة»(١).

مناقشة قول تقي الدين :

قوله : يلزمهم أن يكون الرسول الذي تكلم بحديث النزول لم يدر هو مايقول .

قلنا : هذا ليس بلازم لأسباب :

١. لنص قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾(٢).

والوقوف على قول الله تعالى (إلا الله) واجب ، وعلى هذا الصحابة رضي الله عنهم ، وممن نقل عنهم ، وعلى هذا نص الإمام أحمد ﷺ وعامة علماء المذهب ، سوى ابن تيمية .

قال أبو جعفر في القطع والائتناف :«فممن روينا عنه أنه قال (وما يعلم تأويله إلا الله) تام، وما بعده منقطع منه: نيف وعشرون رجلا من الصحابة والتابعين والقراء والفقهاء وأهل اللغة..» وهو مذهب الإمام مالك حكى عنه أشهب أنه قال: (وما يعلم تأويله إلا الله) ثم ابتدأ «والراسخون في العلم يقولون آمنا به ولا يعلمون تأويله»(٣).

وعلى هذا أئمة المذاهب وأهل اللغة والمفسرون .

٢. أن الصحابة رضي الله عنهم ، لم ينقل عنهم القول بإدخال الصفات في المحكم .

٣. النصوص المتواترة التي تدل على أن تفسير معاني الصفات في قراءتها المجردة .

---

(١) مجموع الفتاوى (٥ /٤٧٧).
(٢) آل عمران : الآية (٧) .
(٣) القطع والائتناف لأبي جعفر النحاس (١٨٩).

أما التأصيل عند الإمام أحمد ﷺ وكل علماء المذهب :أن الصفات تدخل في المتشابه .
وهذه نصوص علماء المذهب .
قال القاضي أبو يعلى رحمه الله :

«فصل في الدلالة على أنه لا يجوز الاشتغال بتأويلها وتفسيرها _ يقصد آيات الصفات _ من وجوه أحدها:

أن آي الكتاب قسمان: أحدهما محكم تأويله تنزيله يفهم المراد منه بظاهره.

وقسم هو متشابه لا يعلم تأويله إلا الله، ولا يوقف على معناه بلغة العرب بدليل قوله تعالى: {وما يعلم تأويله إلا الله} وقوله: {والراسخون في العلم يقولون آمنا به} فالواو ههنا للاستئناف، وليست عاطفة، كذلك أخبار الرسول، صلى الله عليه وسلم، جارية هذا المجرى، ومنزلة على هذا التنزيل، منها البين المستقل في بيانه بنفسه، ومنها ما لا يوقف على معناه بلغة العرب [(١)].

وقال أيضًا :

« ظاهر كلام أحمد رحمه الله: أن "المحكم": ما استقل بنفسه، ولم يحتج إلى بيان.
و"المتشابه": ما احتاج إلى بيان ،لأنه قال في كتاب "السنة": بيان ما ضلت فيه الزنادقة في القرآن »[(٢)].
قال ابن عقيل رحمه الله :

« فأما المتشابهُ المتعقَقُ بأصولِ الدّين، فكثيرٌ؛ مثلُ قوله: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ} [الرحمن: ٢٧]، {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي} [الحجر: ٢٩] {مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا} [يس: ٧١]، {يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [المائدة: ٥٤] ،{غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ} [المجادلة: ١٤] {يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ} [البقرة: ١٥]، {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ} [آل عمران: ٥٤]، {وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} [الزمر: ٦٧]، {فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ} [الرحمن: ٣٩]، {فَوَرَبِّكَ

(١) ابطال التأويلات (٥٩ _ ٦٠).
(٢) العدة (٢ / ٦٤٨).

لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [الحجر: ٩٢]، {إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى} [طه: ١١٨]، {فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا} [طه: ١٢١]، {حم}، {الر}، {المر} {حم عسق}، {كهيعص}، {المص}، {ص}، {ق}، هذه الحروفُ في أوائلِ السوَرِ»(١) .

قال أبو الخطاب الكلوذاني رحمه الله :

« المحكم: ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان. (والمتشابه: ما احتاج إلى بيان) وهذا ظاهر كلام الإمام أحمد رضي الله عنه في رواية ابن إبراهيم، المحكم: الذي ليس فيه اختلاف، والمتشابه: الذي يكون فيه موضع كذا وكذا »(٢) .

قال الموفق رحمه الله تعالى :

« والصحيح: أن المتشابه: ما ورد في صفات الله –سبحانه– مما يجب الإيمان به، ويحرم التعرض لتأويله، كقوله –تعالى–: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)، (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَان ، و(لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَي) ، (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّك) و (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا) .

فهذا اتفق السلف –رحمهم الله– على الإقرار به، وإمراره على وجهه وترك تأويله.

فإن الله –سبحانه– ذم المبتغين لتأويله ، وقرنهم –في الذم– بالذين يبتغون الفتنة، وسماهم أهل زيغ »(٣).

قال ابن مفلح تلميذ تقي الدين رحمهما الله في أصوله:

« والمتشابه: عكسه؛ لاشتراك أو إجمال، قال جماعة من أصحابنا وغيرهم: وما ظاهره تشبيه، كصفات الله »(٤).

قال الطوفي رحمه الله في شرح مختصره :« أو لظهور تشبيه في صفات الله تعالى، كآيات الصفات وأخبارها نحو: (ويبقى وجه ربك) ، (لما خلقت بيدي) (بل يداه مبسوطتان)،

(١) الواضح في أصول الفقه (١ / ١٦٧).
(٢) التمهيد (٢ / ٢٧٦).
(٣) روضة الناظر (١ / ٢١٥).
(٤) أصول الفقه لابن مفلح (٣١٦/١).

يد الله ملأى لا تغيضها النفقة، فيضع الجبار قدمه، فيظهر لهم في الصورة التي يعرفونها، خلق الله آدم على صورة الرحمن، ونحو ذلك، مما هو كثير في الكتاب والسنة ؛ لأن هذا اشتبه المراد منه على الناس ؛ فلذلك قال قوم بظاهره ؛ فجسموا وشبهوا، وفر قوم من التشبيه ؛ فتأولوا وحرفوا ؛ فعطلوا، وتوسط قوم فسلموا وأمروه كما جاء، مع اعتقاد التنزيه ؛ فسلموا، وهم أهل السنة »[1].

قال المرداوي في التحرير :

« والمتشابه: مقابله، وهو غير المتضح المعنى، فتشتبه بعض محتملاته ببعض، للاشتراك وعدم اتضاح معناه .....إلى أن قال : " أو لظهور تشبيه في صفات الله تعالى، كآيات الصفات وأخبارها، فاشتبه المراد منه على الناس، فلذلك قال قوم بظاهره فشبهوا وجسموا، وفر قوم من التشبيه فتأولوا وحرفوا فعطلوا، وتوسط قوم فسلموا فأمروه كما جاء مع اعتقاد التنزيه فسلموا، وهم أهل السنة وأئمة السلف الصالح »[2] .

وعلى هذا اتفاق لحنابلة ولم يخالف في ذلك سوى تقي الدين كما قدمنا قوله في بداية المبحث.

ومما يتنبه له أن ما تقدم ذكره هو لبيان الفرق بين اختيارات تقي الدين العقدية ، وما عليه مذهب الحنابلة ، ولا يستلزم ذلك الحط من قدره رحمه الله وأجزل له المثوبة فهو عالم مجتهد له مكانته في الأمة.

(١) شرح مختصر الروضة (٤٥/٢).
(٢) تحرير المنقول (١ / ١٣٩٧).

ما يلزم من يقول : نعلم معاني الصفات في الوضع العربي:

العقيدة الإسلامية بكل أصولها وفروعها العلم بها مبني على النقل من نصوص الكتاب والسنة منقولة عن الصحابة رضي الله عنهم أجمعين .

وطريق العلم بها لا مدخل للعقل فيه مطلقًا .

ومن ذلك معرفة صفات الله تعالى والعلم بها ، مبني على السمع والنقل.

ومن مسائل الاعتقاد (بالعلم بمعاني صفات الله تعالى ، وأن معانيها العربية تجري عليها) .

ويلزم من يعتقد هذا الاعتقاد لوازم لا تنفك عنها :

أولًا : يلزمهم الدليل من الكتاب أو السنة الصحيحة.

ثانيًا : يلزمهم النقل عن الصحابة رضي الله عنهم ، أنهم تكلموا في معاني الصفات بالوضع العربي ، وقالوا معنى هذه الصفة كذا وكذا ، لأن هذه الطائفة تزعم أن هذا منهج الصحابة رضي الله عنهم فلزمهم النقل.

ثالثًا : يلزمهم النقل عن الصحابة أنهم كانوا يدعون الناس إلى العلم بها كما يُدعى إليها ــ عوام الأمة ــ اليوم من قبل من يعتقد أن الصفات لها معاني في اللغة العربية .

رابعًا : قال القاضي أبو يعلى رحمه الله :

((القول في الصفات كالقول في الذات)).

قالوا نعلم معاني صفات الله تعالى في الوضع العربي ، وعلى هذا يلزمهم العلم بذات الله تعالى ، لأن من علم معاني الصفات ، فإنه يعلم كنه الذات التي تحمل هذه الصفات .

خامسًا : القاعدة : ((القول في بعض الصفات كالقول في بعض)) .

يستدل من يقول : (أن علماء الأمة وعوامها يعلمون معاني صفات الله تعالى)

بقول الإمام مالك : (الاستواء معلوم) أي معلوم في اللغة العربية ، ثم يستدلون بقول بعض الأئمة انهم فسروا معنى الاستواء (بالعلو والارتفاع)

و (الجلوس) وغيرها .

والقاعدة تقول القول في بعض الصفات كالقول في بعض .

فعلى هذه القاعدة يلزمهم ، اجراء المعاني العربية على جميع الصفات ، منها ، اليد ، والوجه ، الرحمة ، الغضب ، المحبة ، السخط .

فمعنى الوجه : ما يواجهك من الرَّأْس وَفِيه العينان والفم وَالْأنف.

واليد : اليد: من المنكب إلى أطراف الأصابع والجمع أيدٍ وجمع الجمع أيادٍ وأكثر استعمالها في يد النعمة .

الرحمة : الرِّقَّةُ وَالتَّعَطُّفُ والشفقة .

المحبة : المَيْلُ إلى الشيء السارّ.

هذه معاني المفردات في الوضع العربي ، وكما هو الملاحظ انها تدل على ما يخص المخلوق ، فمن الممتنع شرعًا وعقلًا أن تطلق على معاني صفات الباري سبحانه تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا .

فإن قيل : نقول : معانيها بالوضع العربي ، إلا أنها تليق بجلال الله تعالى .

قلنا هذا من المتناقضات ، فإنه من الممتنع أن تُفسر الصفة بالمعنى العربي الموضوع للخلق ، ثم يقال تليق بجلال الله تعالى .

وهذا مما لم ينقل لا بدليل من القرآن ولا بدليل من السنة ، أو قول صحابي.

ورحم الله الحافظ عبد الغني المقدسي الحنبلي حيث قال :

« فمن السنة اللازمة السكوت عما لم يرد فيه نص عن الله ورسوله ، أو يتفق المسلمون على إطلاقه، وترك التعرض له بنفي أو إثبات. فكما لا يثبت إلا بنص شرعي، كذلك لا ينفى إلا بدليل سمعي »(١) .

وهذا أوان الشروع في شرح كتاب العين والأثر .

(١) الاقتصاد (٢٢٣)

الشرح

الحمد لله الذي يستدل على وجوب وجوده بديع ما له من الأفعال.

الحمد لله : الحمد : هو النعت بالجميل على الجميل من جهة التعظيم من نعمة وغيرها.

والحمد ثناء على الله تعالى بسبب كل انعام صدر منه .

والالف واللام : معناها للاختصاص اللائق ، وهي للاختصاص اللائق بذاته جل في علاه ، لأن الحمد لا يليق إلا بالله تعالى لجلاله وعظمته .

واللام : للاستحقاق فمعناها أن الله تعالى مستحق لجميع المحامد لاتصافه بجميع صفات الكمال .

الذي يَستَدِلُ على وجوب وجوده بديع ما له من الأفعال:

يستدل : مأخوذ من استدل استدلالًا مأخوذ من الدليل : وهو المرشد الى المطلوب ، أي يطلب دليلًا على وجوب وجود الله سبحانه وهو من أفعاله .

وجوب وجوده [1]. فالله سبحانه وتعالى قديم باق ، واجب الوجود بذاته وصفاته غير محتاجًا لغيره وهو الإخبار عن حقيقة وجوده جل في علاه ، ووجوده غير متوقف على علة وسبب

---

(١) واجب الوجود : ويأتي تعريفه في الموجودات وهي تعريف الواجب والممكن والممتنع لكلّ ما يتصوّره العقل وجوداً لا يخلو من إحدى الأوصاف أو الأحكام العقلية التالية:
١. واجب الوجود. ٢. ممتنع الوجود. ٣. ممكن الوجود. وتعريف هذه الأقسام :
الوجوب : عبارة عن صفة للشيء الذي يحكم العقل بحتمية وجوده.
وواجب الوجود : هو الشيء الذي يكون موجوداً بذاته، ولا يفتقر في وجوده إلي غيره، ولا يتوقّف وجوده علي وجود موجود آخر. معجم مصطلحات المتكلمين (٢ / ٣٨٥).
ممتنع الوجود :
الامتناع : عبارة عن صفة للشيء الذي يحكم العقل باستحالة وجوده الخارجي.
وممتنع الوجود: هو الذي يستدعي من صميم ذاته عدم وجوده، فلا يحتاج إلي علّة في اتّصافه بالعدم. مثال ذلك:
وجود معلول بلا علّة، اجتماع النقيضين وارتفاعهما، شريك الباري.
ممكن الوجود :
الإمكان: عبارة عن صفة للشيء الذي يحكم العقل بجواز وجوده وعدم وجوده علي السواء.
و ممكن الوجود : وهو الذي يفتقر في وجوده ، ويجوز عليه العدم وهو ماسوى الله تعالى .معجم مصطلحات المتكلمين (٢ / ٣٢١).

بديع ما له من الأفعال :

وهذا برهان وجوب وجوده وهو بديع ماله من الأفعال ، خلق الخلق بما فيها السموات والأرض ، والرزق والعدل ، والإحسان .

المنزه في ذاته وصفاته عن النظائر والأمثال ، أنشأ الموجودات .

قال الله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١).

قال ابن عبّاس: « ليس له نظير » ، فالتوحيد إثبات ذات غير مشبهة للذوات، ولا معطلة من الصفات، ليس كذاته ذوات ، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة، إلَّا من جهة موافقة اللّفظ اللّفظ، وجَلَّت الذات القديمة أن تكون لها صفة حديثة؛ كما استحال أن تكون للذات المحدثة صفة قديمة، وحيث تراءى في مرآة القلب صورة، أو خطر بالخاطر مثال، أو ركنت النفس إلى كيفية، فليجزم بأن الله بخلافه؛ إذ كلّ ذلك من سمات الحدوث؛ لدخوله في دائرة التحديد والتكييف اللازمين للمخلوق، المنزِه عنهما الخالق تعالى .

النظائر : جمع نظير : وهو المثيل والمساوي .

والأمثال : جمع مثل : وهو الشبيه .

أنشأ الموجودات : يُقَال أنشأ الله الْخلق من العدم : أي خلقَهم، والإنشاءُ: إثباتُ شيءٍ لم يكنْ قبلَه(٢) وإيجاد من العدم ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أنشأكم من نفس وَاحِدَة﴾(٣) وَفِيه أيضًا قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ (٤).

---

(١) الشورى : الآية (١١).
(٢) فتح الرحمن في تفسير القرآن لمجير الدين الحنبلي (٢ / ٤٤٠).
(٣) الانعام : الآية (٦).
(٤) الملك : الآية (٣٣).

فلا يعزب عن علمه مثقال ، سبحانه من إله تنزه عن أن يدركه وهم ، أو يحصره خيال، بل كل ما خطر بالبال فهو بخلاف ذي الإكرام والجلال . أحمده سبحانه وأشكره أن هدانا لدينه الحق .

لا يعزب : بضم الزاي : يغيب : أي لا يغيب .

عن علمه مثقال : وهو الذرة أي : لايغيب عن علمه وزن ذرة .

قال سبحانه : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾(١) .

سبحانه : نَزَّهَ وعظَّمَ نفسَهُ.

يدركه : من أدرك والإدراك : وهو إحاطة الشيء بحصول صورة في الذهن.

وهم من خطرات القلب، والجمع أوهام، وللقلب وهم. وتوهم الشيء: تخيله وتمثله(٢).

الله سبحانه تنزه وتعظم عن أن يحيط ويتخيل ويتوهمه واهم .

أو يحصره خيال : فلا قدرة لعبد ومحال أن يتشبه له لا في اليقظة ولا في المنام .

بل كل ما خطر بالبال فهو بخلاف ذي الإكرام والجلال :

بل : والمراد بها ههنا : يفيد الانتقال من معنى إلى آخر أهمّ .

فكل ما يخطر في خاطر العبد فلا يبلغ صفات الباري جل وعلا ﴿ذي الجلال﴾ ، أي : الذي يعظِّمه ويجلُّه المؤمنون عن سمات المحدثات ﴿ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي : الذي يكرم عبيده بالنعمة عليهم.

أحمده وأشكره : أحمد : على صيغة أفعل التفضيل ، مشتق من الحمد يعنى أكثر حمدًا . أثني على الله سبحانه معظمًا له . وأشكره : على نعمة الهداية للدين الحق .

---

(١) الآية : (٣٣).
(٢) لسان العرب (١٢ / ٦٣٤).

وأزاح شبه الزيغ والضلال . وأتوب إليه وأستغفره من جميع الأخطاء والأخطال ، وأساله لنا النجاة في يوم تزول منه الجبال. وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، شهادة موحد له في الغدو والآصال.

وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، نبي جاءنا بدين قويم ، فارتوينا بما جاءنا به من عذب زلال.

أزاح : كشف وبيَّن .

شبه : أصلها من التشابه ، تشابه الأمر واشتبه عليه .

الزيغ : وهو الميل والمراد به الميل عن الحق .

الضلال ، وأتوب إليه وأستغفره من جميع الأخطاء والأخطال : العدول عن الطريق المستقيم .

فحمد الله سبحانه وشكره على أن كشف ما تشابه علينا من أمور الاعتقاد التي ينتحلها أهل البدع والمائلين عن الحق إلى الباطل .

ثم طلب التوبة والمغفرة من الله تعالى من عموم الأخطاء ، والأخطال : أي الكلام الفاسد ، وسأل الله تعالى النجاة في يوم تزول منه الجبال وهو يوم القيامة .

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، شهادة موحد له في الغدو والآصال :

ومعنى أشهد : أي أقر بها ناطقًا بها لساني معتقدًا ومقرًا بتوحيد الله تعالى ، شهادة عبد معتقد بوحدانية الله تعالى ، عبدًا موحدًا له في وقت الغدو : ما بين الفجر وطلوع الشَّمس . والآصال : وهو ما بين العصر إلى غروب الشمس ، فيكون ذاكرًا لله تعالى متعبدًا له .

وأشهد سيدنا محمدًا عبده ورسوله نبي جاءنا بدين قويم :

الشهادة تأتي بمعنيين الأول : الحضور ، والاقرار .

والمراد هنا : أقر بها معتقدًا ومؤمنًا بنبوة ورسالة سيدنا رسول الله ﷺ .

ويدل على قوله « سيدنا » .

قول رسول الله ﷺ : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع»(١) .

فارتوينا بما جاءنا به من عذب زلال : وهو وصف لما بعث الله به سيدنا رسول الله ﷺ من نعمة عظيمة ارتوى بها الخلق فهو رسالة رحمة للعالمين .

اللهم صلِّ عليه وعلى آله وصحبه، الذي هم خير صحب وآل، صلاة دائمة متواترة على مرور الأيام والليالِ، وسلم تسليمًا، وبعد:

فقد طلب مني بعض الأصدقاء الذين لا تسعني مخالفتهم، أن أجمع مؤلفًا يشمل على

اللهم : صيغة نداء ودعاء مثل: يا الله، حذف منها حرف النداء وعُوِّض عنه بميم مشدَّدة اللّهم ارحمني.

صلِّ : قال أبو العالية : صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة وصلاة الملائكة الدعاء(٢) .

آله : الآل : أصله أوَلا بفتح الواو وأصله من آوَلَ يؤول أي رجع وهنا بمعنى أنَّ آل النبي ﷺ : كل من رجع اليه نسبًا.

وصحبه: وهم أصحابه ﷺ هو كل من لقي النبي ﷺ وأمن به ومات على ذلك .

الذي هم خير صحب وآل، صلاة دائمة متواترة على مرور الأيام والليالِ : وصف لصلاته على سيدنا رسول الله ﷺ .

وسلم تسليمًا : السلام : أي حيوه بتحية الإسلام .

وبعد : وهي كلمة للفصل بين اسلوبين من الكلام ، فانتقل من الحمد والثناء على الله تبارك وتعالى ، ثم الصلاة على سيدنا رسول الله ﷺ ؛ ثم انتقل لبيان سبب تأليف الكتاب .

---

(١) رواه مسلم (٤ / ١٧٨٢).
(٢) تفسير اللباب لابن عادل الحنبلي (١٥ / ٥٥٨).

مقاصد ثلاث، وتتمات خمس:

المقصد الأول: في المنصوص من عقائد الحنابلة عن الإمام أحمد ﷺ .

المقصد الثاني: فيما وقع من المسائل الخلافية بن الحنابلة والأشاعرة، وذكر أدلة الحنابلة.

المقصد الثالث: في مسالة الكلام، وذكر ما نقل عن الإمام أحمد ﷺ فأجبته إلى ذلك وسميته بكتاب: العين والأثر في عقائد أهل الأثر ، فأقول، وبالله التوفيق:

من أساليب العلماء أن يبينوا سبب تصنيفهم ومنهجهم والخطة التي سلكها في مؤلفه .

أما سبب تأليف الكتاب : فهو طلب من أصدقاء المصنف الذين لا يسعهم إلا أن يستجيب لهم .

أما منهجه في الكتاب : فجعله ثلاث مقاصد وتتمات خمس ، أي تتمات للمقاصد .

المقصد : في اللغة : أصله من قصد يقصد.

ومعنى مقاصد : جمع مقصد ، أي أهدافه ومراده .

المقصد الأول: في المنصوص من عقائد الحنابلة عن الإمام أحمد ﷺ .

مراده بالمنصوص : ذكر ما نص عليه الحنابلة من عقائدهم بنقلهم عن الإمام أحمد ﷺ .

وقد تميز الكتاب بنقل المصنف لنصوص أصحابنا الحنابلة ومنها ما يعزوه لقائله ، ومنها منقول منصوص إلا أنه لم يعزوه .

المقصد الثاني: في ما وقع من المسائل الخلافية بن الحنابلة والأشاعرة، وذكر أدلة الحنابلة.

مراده الثاني : ذكر المسائل الخلافية بين الحنابلة والأشاعرة ومناقشتها ، وذكر أدلة الحنابلة .

المقصد الثالث: في مسألة الكلام .

مراده من ذلك ، ذكر حقيقة الكلام وأنه صوت وحرف ، وبيان أن القرآن كلام الله تعالى .

وسميته بكتاب: العين والأثر في عقائد أهل الأثر ، فأقول، وبالله التوفيق:

العين : في اللغة جاءت على عدة معانٍ ، ومنها : النفيس من كلِّ شيء[1] .

والأثر : لها عدة معانٍ منها :

أحدها : البقي واشتقاقه من أثرت الشيء .

الثاني : من الأثر الذي هو الرواية ومنه قولهم هذا الحديث يؤثر عن فلان.

الثالث : من الأثر بمعنى العلامة قال المبرد قالوا الأثارة للشيء الحسن البهي في العين [2].

وكأنه قال : هذا المصَنَّف هو النفيس والحسن البهي مما نقل من العقائد الحنابلة الأثرية .

عقائد : جمع عقيدة .

وهي ما عقد عليه القلب يعني اطمئنان القلب على شيء ، وهو الحكم الذي لا يقبل الشك لدى معتقده .

أهل الأثر : أي المتمسكون بآثار النبي ﷺ ، والصحابة ﵃ أجمعين .

والإمام أحمد ﵁ اقتفى أثر من سبقه من شيوخه عن التابعين عن الصحابة ﵃ ، ثم سار علماء المذهب على طريقة الإمام ومن سبقه .

---

(١) القاموس الفقهي (٢٦٩).

(٢) النكت على مقدمة ابن الصلاح (١ / ٤١٨) ، تفسير اللباب لابن عادل الحنبلي (١٧ / ٣٨٠).

المقصد الأول ، مدخل ، المقصد الأول: في المنصوص من عقائد الحنابلة:

وهو مشتمل على: أبواب، وخاتمة، وتتمة.

الباب الأول: في معرفة الله تعالى .

فتجب معرفة الله تعالى شرعًا، ومما ورد في الشرع: النظر في الوجود والموجود على كل مكلف قادر، وهو أول واجب لله تعالى ، وأول نعم الله تعالى الدينية، وأعظمها: أن أقدره على معرفته ، وأول نعمه الدنيوية الحياة العرية عن ضرر

تقدم شرح عبارة المقصد ، وعبارة المنصوص من عقائد الحنابلة .

وهو مشتمل على: أبوب، وخاتمة، وتتمة :

هذا التقسيم يعتمده العلماء في مصنفاتهم للتسهيل على الدارس والمطلع .

الباب الأول: في معرفة الله تعالى .

فتجب معرفة الله تعالى شرعًا ومما ورد في الشرع النظر في الوجود والموجود على كل مكلف قادر .

وهذا أول منصوص عقائد الحنابلة المنقولة عن الإمام أحمد ﷺ نقله القاضي أبو يعلى عن شيخه الحسن رحمهما الله متبعين أثر إمامهم.

قال القاضي أبو يعلى رحمه الله : « وقال الشيخ (أبو عبد الله الحسن بن حامد) المذهب أنها تقع بالاستدلال[1] ، وقد أومأ أحمد إلى هذا في رواية حمدان بن علي فقال : المرجئة تقول : إذا عرف ربه بقلبه وإن لم تعمل جوارحه وهذا كفر ، وابليس قد عرف ربه فقال : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [2].

فقد نص على حصول المعرفة لإبليس ولو كانت موهبة لم تحصل له لأنه كافر .

---

(١) قلت : وهذا أول منصوص الذي خالف فيه السلفية المعاصرة ، الإمام أحمد ﷺ وهم يزعمون الانتساب له .

(٢) الحجر : الآية (٣٩).

والوجه في ذلك أن الله تعالى أجرى العادة بذلك ، بحصول المعرفة عند النظر والاستدلال والتفكر كما اجرى العادة بحصول الطعم عقيب الذوق والسمع عقيب الاستماع ، ولا يجوز أن يقال : إن الطعم يحصل بغير ذوق يقع لم يكن به فائدة ، قال تعالى ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَت﴾[1].

وقال شيخنا أبو عبد الله : من أصحابنا من يقول تقع موهبة من الله تعالى بغير نظر ولا استدلال » [2] .

والموجود اسم من أسماء الله تعالى الراجعة الى ذاته :

قال القاضي رحمه الله : « وأسماء الله تعالى على ضربين :

منها ماهو المسمى ، وهي الأسماء الراجعة الى ذاته نحو القول : الله وشيء ، وموجود وقديم»[3].

وقال ابن منده رحمه الله : « ومن أسماء الله عز وجل : القريب ، القوي ، القابض ، القديم ، القاضي »[4].

(١) الغاشية : الآية (١٧).
(٢) المسائل العقدية من كتاب الروايتين للقاضي ابي يعلى (٧٢).
(٣) مختصر المعتمد (٧٠).
(٤) كتاب التوحيد (٣٩٩).

صفة معرفة الله تعالى على قسمين :

النظر : ههنا بمعنى الفكر في حقائق الأشياء لاستخراج الحكم بالاعتبار ليصل بذلك الى العلم بالمعلومات ، وهذا النظر هو المقصود عند أربابه في اقسام العلم .

ومنه قوله تعالى : ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[١].

الاستدلال :

الاستدلال : مصدر على وزن استفعال، وهو وزن دال على الطلب.

فالاستدلال إذن هو:

طلب الدليل المرشد إلى المطلوب، فالاستدلال عملية عقلية فطرية مبنية على صحة المعرفة بقضية ما ، أو بطلانها، فينتقل العقل بما لديه من مادة معلومة ليولد منها علمًا بقضية مجهولة.

ومن نعم الله تعالى على عباده ، ومن تمام حكمته أن خلقهم على طبيعة مستعدة للاستدلال ومحاولة التعرف على الحقائق.

والمطلوب من العباد العقلاء النظر والاستدلال حيث يؤديان إلى معرفة الله تعالى .

لأن من لا يعرف الله تعالى لا يمكنه أن يتقرب إليه ، ولأن من شرط المتقرب أن يكون عالمِا بالمتقرب إليه ولكنه ليس بمشاهد لنا ولا بمعلوم ضرورة فوجب أن نعلمه بالنظر والاستدلال إليه .

---

(١) يونس : الآية (١٠١).

حكم معرفة الله تعالى :

هو أول ما أوجب الله تعالى : على عباده العقلاء القادرين على النظر والاستدلال .

على كل مكلف قادر .

المكلف : هو البالغ العاقل .

القادر : من له القدرة على النظر .

هو أول واجب لغيره وهو على البالغ العاقل القادر على النظر والتدبر الموصل لأن يعرف الله، وقالوا: المراد أول واجب لذاته، وأما أول واجب لغيره فهو النظر والتدبر الموصل إلى معرفة الله، فأول ما يجب على الإنسان أن ينظر فإذا نظر وصل إلى غاية وهي المعرفة فيكون النظر أول واجب لغيره، والمعرفة أول واجب لذاته .

طريق النظر والاستدلال في معرفة الله تعالى السمع دون العقل :

معرفة الله تعالى تحصل بأدلته الظاهرة وحججه القاهرة ، وهي أنفسنا والسماوات والأرض وما بينهما .

أما الأدلة على وجوب النظر فيكون من طريق الشرع ، فمن ذلك :

قول الله تعالى : ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١).

وقول الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾(٢) .

وقول الله تعالى : ﴿ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(٣) .

بدلالة الآيات أن الله تعالى أمر بالنظر .

فخرج بذلك النظر بالعقل ، لأنه لا يجوز أن يكون ذلك بالعقل ابتداء .

---

(١) الآية (١٠١).
(٢) الروم : الآية (٨).
(٣) الانعام : الآية (٩٩).

ولا مجال للعقل في تحسين أو تقبيح ولا اثبات شيء من الواجبات ، ولا بتحريم بشيء من المحظورات ، ولا تحليل شيء من المباحات .

وإنما يعلم من جهة الرسل الصادقين من قبل الله تعالى ودليل ذلك : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (١) .

وجه الاستدلال : أن الله تعالى إنما بعث الرسل إلى العقلاء بالنذارة لئلا يكون لهم حجة ، فلو كان قد وجب عليه شيء من جهة العقل قبل مجيء الرسل لما قال : لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، بل كان الواجب أن يقول لئلا يكون للناس على الله حجة بعد العقل .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾(٢) .

وجه الاستدلال : أن الله تعالى أخبر أنهم آمنون من العذاب قبل بعثة الرسل ولأنه لم يوجب عليهم شيئًا من جهة العقل بل أوجب عند مجيء الرسل .

وهو أول واجب لله تعالى :

وهي عبارة عن معرفة وجود ذاته تعالى بصفات الكمال، فيما لم يزل ولا يزال، دون معرفة حقيقة ذاته وصفاته لاستحالة ذلك عقلًا ، يعني أن العقل يحيل معرفة كنه ذاته.

وقوله: أول واجب يعني لنفسه على كل مكلف بالنظر في الوجود والموجود، ووجوب ذلك بالشرع دون العقل ؛ لأن العقل لا يوجب ولا يحرم، وهذا مذهب أهل السنة.

وأول نعم الله تعالى الدينية، وأعظمها: أن أقدره على معرفته.

اول نعم الله تعالى وأعظمها أن رزقه النظر في دلائل معرفة الله تعالى .

وأول نعم الله تعالى الدينية على المؤمن وأعظمها أن أقدره على إرادة النظر والاستدلال لمعرفته تعالى، وقيل أنْ هداه للإيمان، وأول نعمه الدنيوية الحياة العرية عن ضرر، وهو إدراك اللذات ونيل المشتهيات، التي لا يتعقبها ضرر لأجلها، وهو يعم كل حيوان، ولكن يقيد المكلف

(١) النساء : الآية (١٦٥).
(٢) الاسراء : الآية (١٥).

بالشكر، وهو اعترافه بنعمة المنعم على جهة الخضوع والإذعان، وصرف كل نعمة في طاعة، فشكر المنعم واجب شرعا، خلافا للمعتزلة في قولهم بوجوب شكر المنعم عقلا، فيجب على كل مكلف.

وشكر المنعم واجب شرعًا :

عرفه المصنف بقوله : وهو اعتراف بنعمه على جهة الخضوع والإذعان ، وصرف كل نعمه في طاعته .

شكر المنعم : هو عبارة عن استعمال جميع ما أنعم الله تعالى به على العبد من القوى والأعضاء الظاهرة والباطنة المدركة والمحركة فيما خلقه الله تعالى لأجله ، كاستعمال النظر في مشاهدة مصنوعاته وآثار رحمته، ليستدل على صانعها، وكذا السمع وغيره.

﴿ صفة الوحدانية ﴾

ويجب الجزم بأنه تعالى واحد لا يتجزأ ولا ينقسم ، أحد لا من عدد ، فرد صمد ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ .

صفة الْوَحْدَانِيَّة :

يوصف الله تعالى به : أَنَّهُ ليس ذَاتًا مؤلَّفا مِنْ أجزاء، فلا يوجد ذات مثل ذاته وليس لغيره صفة كصفته أو فعل كفعله وليس المراد بوحدانيّته وحدانيّة العدد إذ الواحد في العدد له نصف وأجزاء أيضًا، بل المراد أَنَّه لا شبيه له.

والله سبحانه واحد : هو الفرد الذي لم يزل وحده بلا شريك، وقيل؛ هو الذي لا قسيم لذاته ولا شبيه له ولا شريك، وهذه صفة يستحقها بذاته [١].

بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ لِمَنِ المُلْكُ الْيَوْمَ لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [٣].

ويجب الجزم بأنه تعالى واحد لا يتجزأ ولا ينقسم :

التجزؤ والانقسام صفة االعرض والجسم ، والله عز وجل ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا .

أحد لا من عدد :

فما يجوز عليه العدد جاز تثنيته، والله فرد لا مثيل له ولا نظير ولا شبيه، فالعدد دال على تعدد أفراد الجنس، فنحن نقول: هذا واحد، وهذا ثانٍ، وهكذا، كي نعد الأفراد ذوات الجنس الواحد، أما في حق الله عز وجل، فنقول: أنه واحد لكن العدد ليس من صفاته، ولا تمييزًا عن غير، فهو متفرد بالألوهية، والربوبية، والملك، وليس الرقم من أسمائه أو صفاته.

---

(١) الاعتقاد للبيقهي (٦٣).
(٢) النساء : الآية (١٧١).
(٣) غافر : الآية (١٦).

فرد صمد ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ .

الصمد : الذي لا جوف له؛ لأنّه تعالى ليس بجسم ولا مركب؛ لأنّه لو كان مركبًا، لكان له باطن، والصمد في كلام العرب: السَّيِّد الذي يُصمد إليه في الأمور .

قال القاضي : فمن اعتقد أن الله سبحانه جسم من الأجسام وأعطاه حقيقة الجسم من التأليف والانتقال: فهو كافر لأنه غير عارف بالله عز وجل لأن الله سبحانه يستحيل وصفه بهذه الصفات وإذا لم يعرف الله سبحانه: وجب أن يكون كافرا [1].

ولا يجوز مع اثبات صفة اليدين والوجه أنهما أجزاء وابعاضًا ، لأنه في حق الله تعالى ممتنع .

(١) طبقات الحنابلة (٢ / ٢١٢).

﴿ صفة العلم ﴾

وبأنه تعالى عالم بعلم ، واحد ، قديم ، باقٍ ، ذاتي، محيط بكل معلوم، كلي أو جزئي، على ما هو عليه، فلا يتجدد علمه بتجدد المعلومات، ولا يتعدد بتعددها .

عِلْمَ اللَّهِ قَدِيمٌ ليس بمحدث ، أزلي كما أَنَّ ذاته أَزَلِيٌّ، فلم يَزَل عالِمًا بذاته وصفاته وما يحدثه مِنْ مخلوقاته، فلا يتَّصف بعلم حادث لأنَّهُ لو جاز اتِّصَافُهُ بالحوادث لانتفى عنه القدم لأَنَّ مَا كان محلًّا للحوادث لا بد أنْ يكون حادثًا.

وصفة العلم ثابتة بدلالة كتاب الله تعالى :

قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾[1].

وقال تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[2].

وقال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾[3].

وغير ذلك من الآيات .

وحديث الاستخارة : « اللهم إني أستخيرك بعلمك »[4].

منصوص الإمام أحمد رضي الله عنه :

على أن علم الله تعالى غير مخلوق ، قال : « إذا قال الرجل: العلم مخلوق؛ فهو كافر، لأنه يزعم أنَّ الله لم يكن له علم حتى خلقه».

وقال: وهو يعلم ما في السماوات السبع، والأرضين السبع، وما بينهما، وما تحت الثرى، وما في قعر البحار، ومنبت كل شعرة وكل شجرة وكل زرع وكل نبات، ومسقط كل ورقة، وعدد ذلك، وعدد الحصى والرمل والتراب، ومثاقيل الجبال، وأعمال العباد وآثارهم، وكلامهم،

(١) طه : الآية (١١٠).
(٢) الملك : الآية (١٤).
(٣) التغابن: الآية (٤).
(٤) رواه البخاري (٢ / ٥٧) .

وأنفاسهم، ويعلم كل شيء، لا يخفى عليه من ذلك شيء، وهو على العرش فوق السماء السابعة»[١].

ليس بضروري، ولا كسبي، ولا استدلالي:

الضروري : وحده: كل علم محدث لا يجوز ورود الشك عليه ويلزم نفس المخلوق .

أو ما لا يمكنه معه الخروج عنه، والانفصال منه، وإنما قلنا: ما لزم نفس المخلوق، ولم نقل: ما لزم نفس العالم؛ لكي يخرج علم القديم سبحانه عن كونه اضطرارًا؛ لأن عمله سبحانه بكل معلوم لازم لذاته على الوجه الذي يلزم ذواتنا علوم الضرورات، وليس لأحد أن يقول: إنه مضطر إلى العلم بمعلوماته.

ولا كسبي : وحده : وهو كل علم يجوز ورود الشك عليه.

ولا استدلالي : هو ما يحصل العلم به عن ابتداء نظر وتفكر.

فلا يوصف بأنه ضروري، ولا بأنه مكتسب، ولا استدلالي؛ لئلا يوهم كونه محتاجًا إلى العلم لما يعلمه لدفع ضرر عنه، أو أنه ملجأ ومكره على العلم بما هو عالم به، ومحال ذلك في صفته.

وصفة العلم صفة ذاتية ، محيط بكل معلوم كلي أو جزئي على ما هو عليه ، فلا يتجدد علمه بتجدد المعلومات ، وعلمه بمعلومات غير متناهية ، ولا يتعدد بتعددها ، ليس ضروري ولا كسبي ، ولا نظري ولا استدلالي .

---

(١) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد رضي الله عنه (١ / ٢٨٣ _ ٢٨٤).

﴿صفة القدرة﴾

وبأنه قادر بقدرة واحدة وجودية باقية قديمة ذاتية، متعلقة بكل ممكن ، فلم يوجد شيء في الماضي، ولا يوجد في المستقبل إلا بها .

القدرة صفة قديمة : أزلية ذاتية ثابتة لله تعالى .

وقد نص القرآن على صفة القدرة ، قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[١].

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ ﴾ [٢].

وتعلقت قدرة الله تعالى بكل ممكن ، والممكن ما ليس بواجب الوجود ولا مستحيل الوقوع، ولم يوجد شيء ولن يوجد شيء إلا بها.

منصوص الإمام أحمد ﷺ:

قال : أنه تعالى قادر بقدرة قديمة، وقوة شديدة[٣].

تؤثر في المقدورات عند تعلقها بها، فإنه سبحانه قادر على جميع الممكنات.

(١) الملك: الآية (١).
(٢) الانعام : الآية (٦٥).
(٣) نهاية المبتدئين (٢٦).

﴿ صفة الإرادة ﴾

وبأنه: مريد بإرادة واحدة، وجودية قديمة، ذاتية باقية، متعلقة بكل ممكن.

الإرادة صفة وجودية قديمة ثابتة لله تعالى .

دليل ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿ يُرِيد الله بكم الْيُسْر وَلَا يُرِيد بكم الْعسر ﴾ (٢) .

وهي غير الشهوة والتمني .

أما كونها غير الشهوة :

لأن الشَّهوة توقان النَّفس، وميل الطباع إلى المشتهى، وليست من قبيل الإرادة(٣).

والدليل على كون الإرادة غير الشهوة :

العلم بأنَّ الصائم الجائع الظمآن مشتهٍ للطعام شهوة لا شبهة فيها وإن لم يرد الإفطار .

وكذلك : النفس قد تنفر عن قيام الليل وإن كان مريدًا لفعل ذلك .

وكذلك : تكره نفسه شرب الأدوية الكريهة وإن كان مريدًا لذلك ويقصد تناوله ، فدل على اختلاف الوضعين (٤).

أما كونها غير التمني : أن التمني معنى في النفس يقع عند فوت فعل كان للمتمني في وقوعه نفع أو في زواله ضرر مستقبلًا كان ذلك الفعل أو ماضيًا (٥).

والارادة لا تتعلق إلا بالمستقبل .

---

(١) البقرة : الآية (١٨٥).
(٢) النحل : الآية (٤٠).
(٣) الفروق اللغوية ، لأبي هلال العسكري (١٢١/١).
(٤) مختصر المعتمد (٧٤).
(٥) الفروق اللغوية ، لأبي هلال العسكري (١٢٣/١).

والإرادة غير المحبة والرضى ، فقد يريد ما لا يحبه ويرضاه ، بل يكرهه ويسخطه ويبغضه ، لأنه قد أثبت ارادته للكفر ونفى رضاه به ، فقال تعالى ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَل صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ﴾ (١) .

وقال تعالى: ﴿ وَلَا يرضى لِعِبَادِهِ الْكفْر ﴾ (٢).

وجه الدلالة : فأثبت الارداة ونفى الرضى .

وقال تعالى: ﴿ وَالله لَا يحب الْفساد ﴾ (٣).

وجه الدلالة : نفى محبته للفاسد مع كونه مريدًا له .

وقال تعالى : ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبّكَ مَكْرُوهًا ﴾(٤).

وجه الدلالة : أخبر أنه مكروه عنده مع كونه مريدًا له ، ولأنه لو كانت الإرادة هي المحبة لوجب أن يكون الله يحب الكفار لأنه ارادهم فيجب أن يكونوا محبوبين لله كأهل طاعته ، ولم يقل أحد هذا ، ولأنا نفرق بين كوننا محبيّن للشيء وبين كوننا مبغضين وبين كوننا مريجين كارهين ، فنجد أنفسنا في أحد الحالتين منافية لما هو عليه في الحالة الأخرى (٥) .

منصوص الإمام أحمد رضي الله عنه :

أنه تعالى مريد بإرادة واحدة قديمة (٦).

---

(١) الأنعام : الآية (١٢٥).
(٢) الزمر (٧).
(٣) البقرة (٢٠٥).
(٤) الاسراء (٣٨).
(٥) الاسراء (٣٨).
(٦) مختصر المعتمد (٧٥ _ ٧٦).

﴿ صفة الحياة ﴾

وبأنه تعالى: حي بحياة واحدة، وجودية قديمة، ذاتية باقية.

صفة الحياة :وهي صفة ذاتية ثبوتية، قديمة أزلية، تقتضي صحة العلم والقدرة لاستحالة قيامهما ، بغير الحي وهو عامة قول أهل الاثبات .

قال العلماء ــ رحمهم الله تعالى ــ : حياة الباري سبحانه مما اتفق عليه العقلاء، والحياة في حقه لا يجوز أن تكون بمعنى الحياة في حقنا ؛ لأنها في حقنا قوة تتبع اعتدال النوع، وهذا في حقه جل وعلا محال.

والدلالة على ذلك أنه ثبت بالأدلة القاطعة أنه سبحانه موصوف بأنه فاعل ، وأنه فعل العالم وأوجده ، والحياة شرط في كون الفاعل فاعلًا ، وإلا فمن عدمت منه الحياة تعذر أن يكون فاعلًا بنفسه ، وهذا جلي واضح في وجوب كونه حي .

ومما يحقق هذا أنه تعالى موصوف بالعلم والإرادة ، وهذه الصفات لا تثبت إلا في حق الحي وقد نص القرآن في مواضع كثيرة على ذلك[١].

قال سبحانه : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾[٢].

وقال تعالى : ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [٣].

منصوص الإمام أحمد رضي الله عنه :

ثبت أن الله تعالى قادر حي عالم وقرأ : ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [٤].

---

(١) انظر لوامع الانوار (١ / ١٣٢).
(٢) البقرة : الآية (٢٥٥).
(٣) غافر : الآية (٦٥).
(٤) الآية (٦٥).

﴿صفة السمع والبصر﴾

وبأنه تعالى: سميع بصير، بسمع وبصر، قديمين ذاتيين، وجوديين، متعلقين بكل مسموع ومُبصَر.

صفة السمع والبصر :

وهو صفة قديمة قائمة بذاته سبحانه تتعلق بالمبصرات، فيدرك بها إدراكا تماما، لا على سبيل التخييل والتوهم، ولا على طريق تأثر حاسة .

وقد ورد القرآن بإثبات هاتين الصفتين ومنه :

قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾(١).

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾(٢).

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾(٣).

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾(٤).

والآيات كثيرة في هذا الباب .

وصفة السمع والبصر صفتان زائدتان على صفة العلم وليس معناهما العلم خلافًا لمن زعم ذلك .

منصوص الإمام أحمد ﷺ :

« قال حرب: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا جرير، عن الأعمش، عن تميم بن سلمة، عن عروة، عن عائشة أنها قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت خولة إلى

---

(١) الشورى : الآية (١١).
(٢) طه: الآية (٤٦).
(٣) العلق: الآية (١٤).
(٤) المجادلة : الآية (١).

رسول الله ﷺ تشكو زوجها، فكان يخفى عليّ كلامها، فأنزل الله: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾[١]. »[٢].

ومتعلق صفة السمع له سبحانه ، كالبصر منه جل شأنه، فسمعه تعالى يتعلق بكل شيء مسموع و بصره سبحانه وتعالى يتعلق بكل شيء مبصر فهو تعالى سميع بصير ، يسمع بسمع وبصر قديمين ذاتيين وجوديين متعلقين بكل مسموع ومبصر، كما ذكره علماؤنا وأسندوه إلى نص الإمام أحمد ﷺ يعني أن هاتين الصفتين متحدتا التعلق فتتعلقان بالموجود واجبا كان أو ممكنا، عينا كان أو معنى، كليا كان أو جزئيا، مجردا كان أو ذا مادة، مركبا أو بسيطا، لا يلزم من اتحاد الصفة اتحاد المتعلق، فالبصر يتعلق بجميع المبصرات، والسمع يتعلق بسائر الأصوات .

(١) المجادلة : الآية (١).
(٢) مسائل حرب (٤١٠).

﴿ صفة الكلام ﴾

وبأنه تعالى: قائل، ومتكلم بكلام قديم ذاتي وجودي، غير مخلوق ولا محدث ولا حادث، بلا تمثيل ، ولا تشبيه، ولا تكييف .

قائل : متكلم بلفظ .

ومتكلم بكلام قديم .

وقوله: قديم : ضد الحديث .

ذاتي وجودي .

وهو من الصفات الذاتية وليس من الصفات الفعلية .

ومن الصفات الوجودية ، ليس عدمية .

غير مخلوق ولا محدث .

قولنا : ولا محدث : غير مخلوق .

وهو رد على الجهمية ، وأصل هذا اللفظ استعمله الإمام في نفي خلق القرآن لما سئل الإمام أحمد ﷺ عما احتج به حين دخل على هؤلاء، فقال: « احتجوا عليَّ بهذه الآية: ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾[1]. أي: أن القرآن محدث، فاحتججت عليهم بهذه الآية: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾[2].

قلت: فهو سماه الذكر وقلت: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ فهذا يمكن أن يكون غير القرآن محدث، ولكن : ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾[3]. فهو القرآن، ليس هو محدثًا؛ قال: فبهذا احتججت عليهم»[4].

---

(١) الانبياء : الآية (٢).
(٢) ص : الآية (١).
(٣) الآية (١).
(٤).الرد على الجهمية والزنادقة (٣٨).

والأدلة على أنه غير مخلوق ولا محدث نقليه وعقلية :

من الأدلة النقلية :

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١).

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾(٢).

وجه الاستدلال :

أن الله تعالى أخبر أن تكوين المكونات إنما هو : بقوله كن ، ولو كانت كن مكونه مخلوقة لافتقرت في وجودها إلى مثلها ، ومثلها إلى مثله ويتسلسل ذلك إلى ما لا نهاية ، ويتسلسل كذلك فهو محال.

ومن الأدلة العقلية :

لو كان كلام الله مخلوقًا لم يخل أن يكون مخلوقًا في محل أو لا في محل .

فإن كان في محل فلا يخلو أن يكون في محله ذات الباري أو ذاتًا غير ذاته مخلوقة ، ومحال أن يكون خلقه تعالى في ذاته ؛ لأنه ذلك يوجب كون ذاته محلًا للحوادث وهذا محال اتفقت الأمة قاطبة على إحالته ، ومحال أن يكون في محل هو ذات غير ذاته تعالى ، لأن ذلك يوجب أن يكون كلامًا لتلك الذات ، ولا يكون كلامًا لله تعالى ، ولأنه لو جاز أن يكون كلامًا لله يفارقه كلامه وصفته لجاز أن يقال مثل ذلك في سائر الصفات ، مثل الكون ، واللون ، والإرادة والحركة والسكون إلى غير ذلك من الصفات ، وهذا مما قد اتفقنا على بطلانه .

ومحال أن يكون خلقه لا في محل ، من جهة أن الكلام صفة والصفات لابد لها من محل تقوم به ولو جاز أن يقال كلام لا في محل ، لجاز أن يقال إرادة وشهوة وحركة وفعل ولون لا في محل وهذا مما يعلم إحالته قطعًا وإذا بطلت هذه الأقسام ثبت أنه غير مخلوق (٣).

---

(١) يس : الآية (٨٣).
(٢) النحل : الآية (٤٠).
(٣) الايضاح في أصول الدين لابن الزاغوني (٣٧١).

ولا حادث .

قولنا : ولا حادث: حقيقته : اللغوية : وَ الحادث :من (الْحُدُوثُ) بِالضَّمِّ كَوْنُ الشَّيْءِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ وَبَابُهُ دَخَلَ (أَحْدَثَهُ) اللَّهُ (فَحَدَثَ) [(١)].

وحقيقته الاصطلاحية : أنه ما وجد عن عدم[(٢)] .

ومعناه أن كلام الله قديم ، وليس موجودًا عن عدم .

بلا تمثيل ، ولا تشبيه، ولا تكييف .

قولنا : بلا تمثيل ولا تشبيه ولا تكييف .

قال الإمام أحمد ﷺ : « لم يزل الله تعالى متكلما كيف شاء بلا تكييف» .

وفي لفظ: « إذا شاء» .

قال القاضي: « إذا شاء أن يسمعنا»[(٣)] .وظاهر قول القاضي أنه شرح عبارة الإمام إذا شاء ، لأن كلام الله تعالى قديم .

منصوص الإمام أحمد ﷺ في قول القديم :

« قال أبو عبد الله السجزي: أتيت إلى باب المعتصم: إلى أن قال: قال: يحضر أحمد بن حنبل، فأحضرني فلما وقفت بين يديه وسلم عليه قال: يا أحمد، تكلم ولا تخف، فقال له أحمد: لا، والله لقد دخلت عليك وما في قلبي مثقال ذرة من الفزع، فقال: ما تقول في القرآن؟

فقال: كلام الله قديم غير مخلوق[(٤)].

فقال أحمد: والله يا أمير المؤمنين، لقد دخلت عليك وما في قلبي مثقال حبة من الفزع.

فقال له المعتصم: ما تقول في القرآن؟ فقال: كلام اللّه قديم غير مخلوق، قال اللّه عَزَّ وَجَلَّ: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} [التوبة: ٦].

---

(١) مختار الصحاح (٦٨).
(٢) التمهيد لدراسة علم الكلام (٧٣).
(٣) التحبير شرح التحرير (٣ / ١٣١٢).
(٤) المسائل التي حلف عليها الإمام أحمد (٤٧).

فقال له: عندك حجة غير هذا؟ فقال أحمد: نعم يا أمير المؤمنين، قول الله عز وجل: {الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ} ولم يقل: الرحمن خلق القرآن. وقوله عَزَّ وَجَلَّ: {يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ} ولم يقل: يس والقرآن المخلوق » [١].

فقول الإمام : قديم ، فيه رد على المبتدعة عندما قالوا مخلوق .

وسيأتي تفصيل الأدلة .

(١) طبقات الحنابلة (١/ ٤٣٨ – ٤٤٣).

﴿ القول في القرآن ﴾

والقرآن كلام الله ووحيه وتنزيله، معجز بنفسه لجميع الخلق، غير مخلوق، ولا حالٍّ في شيء، ولا مقدور على بعض آية منه، فمن قال: القرآن مخلوق، أو محدث، أو حادث، أو وَقَفَ فيه شاكًّا، أو ادعى قدرة أحد على مثله،كفر .

القرآن : مصدر – كالغفران – بمعنى الجمعِ، والقراءةِ، ومنه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ (١). ؛ أي: فاعمَل به (٢) ، وقرأتُ الشيء قرآنًا؛ أي: جمعتُه وضممتُ بعضَه إلى بعضٍ.

والكريم: صفة للقرآن، وهي صيغة مبالغة من الكرم، وهو الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل(٣).

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾(٤). أي: حسن عزيز مُكرَم؛ لأنه كلام الله، والكريم الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير(٥) .

والقرآن كلام الله .

ودليله قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾(٦).

وقوله : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ (٧).

وجه الدلالة في الآيتين أن القرآن هو كلام الله تعالى .

ومن السنة عن جابر، قال : «كان النبي ﷺ قد يعرض نفسه بالموقف، فقال: ألا رجل يحملني إلى قومه؟ فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي» (٨).

والأدلة في القرآن متضمنة للأدلة العقلية التي اثبتت أن القرآن كلام الله تعالى .

---

(١) القيامة : الآية (١٧_١٨).
(٢) المفردات في غريب القرآن (٦٦٨_٦٦٩).
(٣) النهاية في غريب الحديث (٤ / ١٦٦).
(٤) الواقعة : الآية (٧٧).
(٥) تفسير الوجيز للواحدي (١٠٦٣) وتفسير البغوي (٥ / ١٩).
(٦) التوبة : الآية (٦).
(٧) الفتح : الآية (١١).
(٨) رواه أحمد في المسند (٣ / ٣٩٠) والترمذي (٥ / ٣٤).

ووحيه :

الوحي : في اللغة يأتي لعدة معانٍ .

منها . الإلهام الفطري للإنسان كالوحي لأم موسى . قال تعالى :﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾(١).

ومنها . الإلهام الغريزي للحيوان كالوحي إلى النحل . قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾(٢).

ومنها . الإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيحاء ، كإيحاء زكريا لقومه . قال تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ (٣).

ومنها . وسوسة الشيطان وتزيين الشر في نفوس أوليائه . قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾(٤).

ومنها . ما يلقيه الله تعالى إلى ملائكته من أمر ليفعلوه . قال تعالى : { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٥).

وتعريفه شرعًا :

أن يُعلِم الله سبحانه مَن اصطفاه مَن عباده كلَّ ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة سرِّيَّة خفيَّة غير معتادة للبشر، ويكون على أنواعٍ شتى، فمنه ما يكون مكالمة بين العبد وربه؛ كما كلَّم الله موسى تكليمًا، ومنه ما يكون إلهامًا يقذفه الله في قلب مُصطَفاه على وجهٍ من العلم الضروري لا يستطيع له دفعًا ولا يجد فيه شكًّا، ومنه ما يكون منامًا صادقًا يجيء في تحقُّقه ووقوعِه كما يجيء فَلَقُ الصُّبح في تبلُّجه وسطوعه، ومنه ما يكون بواسطة أمين الوحي جبريل – عليه السلام – وهو من أشهر أنواع الوحي وأكثرها، ووحي القرآن كله من هذا القبيل، وهو المصطلَح عليه بالوحي الجلي (٦).

---

(١) القصص : الآية (٧).
(٢) النحل : الآية (٦٨).
(٣) مريم : الآية (١١).
(٤) الانعام : الآية (١٢١).
(٥) الأنفال : الآية (١٢).
(٦) مناهل العرفان في علوم القرآن (٤٦).

وتنزيله.

ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1].

وقوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾[2].

وغيرها من الأدلة متوافرة في كتاب الله تعالى .

معجز بنفسه لجميع الخلق .

أي مقصود به الإعجاز ، كما أنه مقصود به بيان الأحكام والمواعظ، وقص أخبار من قص في القرآن من الأمم ، ودليل التحدي به :

قول الله تعالى : ﴿ قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾[3].

أي فأتوا بمثله .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ فلما عجزوا تحداهم بقوله تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾[4].

أي من مثله .

ولا حالٍّ في شيء.

فإن قيل : القرآن صفة الله وإن صفات الله غير مخلوقة، فإن قلتم: إن هذا نفس كلام الله فقد قلتم بأنه يحل في خلقه .

قلنا :

١.قول أئمة الإسلام والسنة إنه منه خرج ومنه بدأ .

يلزم منه : أنه فارق ذاته وحلَّ بغيره فإن كلام المخلوق إذا تكلم به لا يفارق ذاته ويحل بغيره فكيف يكون كلام الله تعالى .

قال سبحانه : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ .

فقد أخبر أن الكلمة تخرج من أفواههم ومع هذا فلم تفارق ذاتهم.

---

(١) الحجر : الآية (٩).
(٢) ص : الآية (٢٩).
(٣) الاسراء : الآية (٨٨).
(٤) يونس : الآية (٣٨).

٢.الصفة لا تفارق الموصوف وتحل بغيره ولا صفة الخالق ولا صفة المخلوق .

٣. والناس إذا سمعوا كلام النبي ﷺ ثم بلغوه عنه كان الكلام الذي بلغوه كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بلغوه بحركاتهم وأصواتهم فالقرآن أولى بذلك فالكلام كلام الباري والصوت صوت القارئ قال تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ .

وقال ﷺ : « زينوا القرآن بأصواتكم » »[1].

ولا مقدور على بعض آية منه .

دليل ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[2]

وجه الدلالة : لا يقدِرون على ذلكَ.

(١) انظر مجموع الفتاوى (١٢ / ٥١٨).
(٢) الاسراء : الآية (٨٨).

ومن قال: لفظي بالقرآن مخلوق، أو القرآن بلفظي مخلوق .

فإن كان يدعو إليه، ويناظر عليه، فهو محكوم بكفره بنص أحمد ﷺ على ذلك صريحًا، في مواضع ، وإن كان مقلدًا فهو فاسق، قاله شيخنا منصور البهوتي في حاشيته على المنتهى، وبمعناه في شرحه لمؤلفه في كتاب الشهادات.

في أحكام القائل بخلق القرآن عند الحنابلة :

الأول: حكم المجتهد القائل لفظي بالقرآن مخلوق :

أنه يكفر : وهو قول المصنف : **فإن كان يدعو إليه، ويناظر عليه، فهو محكوم بكفره بنص أحمد ﷺ على ذلك صريحًا، في مواضع .**

دليل الإمام أحمد رضي الله عنه

قال أبو داود : « كتبت رقعة، وأرسلت به إلى أبي عبد الله، وهو يومئذ متوار، فأخرج إلي جوابه مكتوبا فيه: قلت: رجل يقول: التلاوة مخلوقة، والفاظنا بالقرآن مخلوق والقرآن ليس بمخلوق، ما ترى في مجانبته؟ وهل يسمى مبتدعا؟ وعلى ما يكون عقد القلب في التلاوة والألفاظ؟ وكيف الجواب فيه؟ قال: هذا يجانب، وهو فوق المبتدع، وما أراه إلا جهميا، وهذا كلام الجهمية، القرآن ليس بمخلوق، قالت عائشة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هو الذي أنزل عليك الكتاب، يريد حديثها» : {هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات} [آل عمران: ٧] ، فقالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فاحذروهم، فإنهم هم الذين عنى الله» ، والقرآن ليس بمخلوق»[١] .

وهذا هو المقرر عند الموفق وابن مفلح والمجد ابن تيمية والبهوتي ومرعي الكرمي وشارح الغاية وغيرهم ، وهو المعتمد من المذهب .

(١) المغني شرح مختصر الخرقي (١٠/١٦٨).

قال الموفق رحمه الله :

« من حكم بكفره من الدعاة إلى القول بخلق القرآن ، فلا شفعة له ، لأن الشفعة إذا لم تثبت للذمي الذي يقر على كفره ، فغيره أولى »[1] .

قال ابن مفلح رحمه الله :

« وفي الفصول في الكفاءة : في جهمية وواقفية وحرورية وقدرية ورافضة :

إن ناظر ودعا كفر وإلا لم يفسق ، لأن الإمام أحمد قال : يسمع حديثه ويصلى خلفه ،قال : وعندي أن عامة المبتدعة فسقة كعامة أهل الكتابين كفار مع جهلهم ، قال : والصحيح لا كفر ، لأن أحمد رحمه الله أجاز الرواية عن الحرورية والخوارج »[2] .

الثاني : حكم المقلد القائل بخلق القرآن :

أنه يفسق ولا يكفر : وهو قول المصنف: **وإن كان مقلدًا، فهو فاسق، قاله شيخنا منصور البهوتي في حاشيته على المنتهى، وبمعناه في شرحه لمؤلفه في كتاب الشهادات.**

وما تقدم هو المتقرر في كتب الفروع في كتاب الشهادات وهو المعتمد من المذهب .

قال ابن مفلح ــ رحمه الله ــ :

« قال صاحب المحرر : والصحيح أن كل بدعة كفّرنا فيها الداعية فإنّا نفسق المقلد فيها ، كمن يقول بخلق القرآن ، أو أن ألفاظنا به مخلوقة ، أو أن علم الله مخلوق ، أو أن أسماءه مخلوقة ، أو أنه لا يرى في الآخرة ، أو يسب الصحابة تدينا ، أو أن الإيمان مجرد الاعتقاد ، وما أشبه ذلك ، فمن كان عالما في شيء من هذه البدع يدعو إليه ويناظر عليه فهو محكوم بكفره ، نص أحمد صريحا على ذلك في مواضع »[3] .

---

(١) مسائل أبو داود السجستاني (٣٥٦).
(٢) الفروع لابن مفلح (٦ / ٤٨٨).وذكر المرداوي نحوه في الإنصاف (٤٧/١٢).
(٣) الفروع (٦ / ٤٨٨). وذكر نحوه المرداوي (٤٧/١٢).

ومن قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق، فهو مبتدع .

وبسندنا لأحمد ﷺأنه سئل عن من قال: لفظي القرآن غير مخلوق ، قال: "من قاله فهو جهمي".

وقال جوابًا لسائل أخر عن هذا السؤال: "لا يصلى خلف قائله، ولا يجالَس ولا يكلَّم ولا يصلى عليه .

فالواجب الكف عن هذه العبارات وشبهها، لكف السلف عنها، لما فيها من الإيهام، وسيأتي الكلام على هذه المسألة مستوفىً في آخر هذا التأليف، إن شاء الله تعالى، ونقل كلام الحافظ ابن حجر في الذي استقر عليه قول الأشعرية، وهو: موافقتهم الحنابلة في الاعتقاد، إن شاء الله تعالى.

العلة : في كفره كونه جهمي .

تنويه :

واليوم لشيوع الجهل بمقالات الفرق والطوائف، فإنه لا يحكم على القائل بالكفر ، فإن من يقول به وإن كان متصدرًا للتدريس والتأليف فهو ليس بمجتهد بالمعنى المتقرر عند أئمتنا بل يبقى في دائرة التقليد ، فيكون أقصى حكمه مبتدعًا ، والإعذار أحب الينا من الحكم .

فصل

في الجوهر والجسم والعرض والمكان، ونفيها عن الله تعالى

ويجب الجزم بأن الله تعالى ليس بجوهر، ولا جسم، ولا عرض ، ولا تحلُّهُ الحوادث، ولا يحلُّ فى حادث ، ولا ينحصر فيه، فمن اعتقد .

معاني المصطلحات :

الجوهر : في اللغة : جوهر الشيء حقيقته وذاته ، ومن الأحجار كل ما يستخرج منه شيء ينتفع به والنفيس الذي تتخذ منه الفصوص ونحوها و (في الفلسفة) ما قام بنفسه ويقابله العرض وهو ما يقوم بغيره واحدته جوهرة جواهر [١].

تعريف الجوهر في الاصطلاح :

ويراد به ما في اصطلاح أهل الكلام يعني العين الذي لا يقبل الانقسام لا فعلا، ولا وهما، ولا فرضا، وهو الجزء الذي لا يتجزأ، وعند الفلاسفة وبعض.

والجوهر عند المتكلّمين هو: الموجود القائم بنفسه المتحيّز بالذات، ومعنى قيامه بنفسه هو أنه يصحّ وجوده في غير محلّ يقوم به[٢].

تعريف العرض :

المسألة الأولى : تعريف العرض في اللغة :

قال الجوهري: عرض له أمر كذا يعرِض، أي ظهر وعرضت عليه أمر كذا وعرضت له الشيء، أي أظهرته له وبرزته إليه .

الْعرَض مَا يطْرَأ وَيَزُول من مرض وَنَحْوه ومتاع الدُّنْيَا قل أَو كثر وَفِي التَّنْزِيل الْعَزِيز {لتبتغوا عرض الْحَيَاة الدُّنْيَا} وَيُقَال جَاءَ هَذَا الرَّأْي عرضا بِلَا روية وعلقتها عرضا اعترضت لي فهويتها و (فِي علم الْمنطق) مَا قَامَ بِغَيْرِهِ (ضد الْجَوْهَر) كالبياض والطول وَالْقصر و (فِي الطِّبّ) مَا يحسه الْمَرِيض من الظَّوَاهِر الدَّالَّة على الْمَرَض (ج) أَعْرَاض.

.

(١) معجم المصطلحات الكلامية (٢٦٢).التمهيد (٧٩).
(٢) موسوعة مصطلحات الفلسفة عند العرب (١ / ٢١٧).

المسألة الثانية : **تعريف العرض في الاصطلاح** :

ذكر القاضي عبدالجبار أن الأعراض منها المدركات وهي سبعة أنواع : الألوان والطعوم والروائح والحرارة والبرودة والآلام والأصوات.

ومن الأمثلة على ذلك : الفرح بالنسبة للإنسان فهو عرض؛ لأنه لا ثبات له ، بل هو عارض يعرض ويزول ، وكذلك الغضب والرضا

المذهب في ايراد هذه المصطلحات :

الذي اعتمده المتأخرون هو نفي هذه المصطلحات عن صفات الباري عز وجل وهذا مبني على مسألة مهمة وهي حكم استعمال علم الكلام في المذهب[١].

(١) والمقرر جواز استعمال علم الكلام في الرد على الشبه .

ولا تحلُّهُ الحوادث، ولا يحلُّ في حادث ، ولا ينحصر فيه، فمن اعتقد أو قال: "إن الله بذاته في مكان"، فكافر .

تعريف المصطلحات :

ولا تحلُّهُ : أي الحلول : حصول الشيء في الشيء ، كحصول العرض في الجوهر وحصول الجوهر في الوعاء ، والأصل الأول ، والثاني مشبه به [1].

الحوادث ولا يحلُّ في حادث [2].

معنى حلول الحوادث بالله تعالى أي قيامها بالله، ووجودها فيه تعالى.

وقد زعم قوم أن الحوادث تحل في ذات الله تعالى، وهذا القول باطل لأن صفات الله تعالى قديمة .

بين تقي الدين ــ رحمه الله ــ وبين المذهب :

يثبت تقي الدين ابن تيمية حلول الحوادث في ذات الله تعالى ، ونحوها من الصفات الفعلية، وهي التي يفعلها الله عز وجل متى شاء وكيف شاء، على الوجه الذي يشاؤه سبحانه وتعالى.

قال تقي الدين ابن تيمية رحمه الله :

« أن القول بحلول الحوادث في ذاته تعالى وتقدس هو شعار الكرامية وأنهم متفقون على ذلك وهذا مثل أن يقال عن المعتزلة: وقد وافقونا على أن الله تعالى يحدث أفعال العباد بغير فعل منهم ثم إن القول بذلك هو مذهب أكثر أهل الحديث بل قول أئمة أهل الحديث وهو الذي نقلوه عن سلف الأمة وأئمتها وكثير من الفقهاء والصوفية أو أكثرهم وفيهم من الطوائف الأربعة الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية من لا يحصي عدده إلا الله تعالى وقد ذكره هو في غير موضع من كتبه أن القول بحلول الحوادث يلزم كل الطوائف حتى المعتزلة والفلاسفة وذكر

---

(١) معجم المصطلحات الكلامية (٣١٠).

(٢) تقدم تعريفه ص (٢٨).

ذلك عن أبي البركات البغدادي صاحب "المعتبر" وهو من أعظم الفلاسفة المتأخرين قدرا وأنه قال: "إن الوهيته لهذا العالم لا تتم إلا بذلك فكيف يحكى الاتفاق على خلاف ذلك »[١] .

وقال الدكتور أحمد عطية الغامدي: وهذا الذي اختاره ابن تيمية وذكر أنه مذهب السلف وأنه الحق الذي يؤيده الدليل الشرعي، والعقلي وهو بعينه رأي الكرامية[٢].

قلت : واعتقاد السلف والإمام أحمد ﷺ على خلاف ما ذكر رحمه الله .

وقد تواطئت عبارة الحنابلة _ اتفاقًا_ في مصنفاتهم العقدية بجميع أعصارهم على امتناع حلول الحوادث بذات الله تعالى

قال العلامة السفاريني رحمه الله:

« فسائر الصفات الذاتية من الحياة والقدرة والإرادة والسمع والبصر والعلم والكلام وغيرها وسائر الصفات الخبرية من الوجه واليدين والقدم والعينين ونحوها وسائر صفات الأفعال من الاستواء والنزول والاتيان والمجيء والتكوين ونحوها قديمة لله أي هي صفات قديمة عند سلف الأمة وأئمة الاسلام لله (ذي الجلال) والاكرام ليس منها شيء محدث والا لكان محلًا للحوادث وما حل به الحادث فهو حادث ، تعالى الله عن ذلك »[٣].

بل يجب الجزم بأنه سبحانه وتعالى:

بائن من خلقه .

يقال في مقابل من قال بأنه يحل في خلقه ، فهو ليس حالاً في مخلوقاته، ليس هو داخل شيء من مخلوقاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، والمراد بهذه العبارة هو نفي الحلول في الجانبين، فليس في ذات الله شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته، لأنه العلي الأعلى فوق كل شيء، والحلول ينافي ذلك.

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (١ / ٣٠٤)
(٢) في نقد البيهقي (١٨٣).
(٣) لوامع الانوار للسفاريني (١ / ٢٥٨).

فكان ولا مكان ، ثم خلق المكان .

المعنى : أن الله تعالى هو الأول ، الأزلي ، الأبدي لا أول له ولم يسبقه شيء من خلقه ثم خلق الخلق .

ودليل هذه العبارة :

١. قول النبي ﷺ : «كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء »[١].
٢. وفي رواية: « لم يكن شيء قبله »[٢] .
٣. قال ابن حجر ــ رحمه الله ــ: وفي رواية غير البخاري :« ولم يكن شيء معه »[٣].
٤. قول النبي ﷺ : « اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء»[٤].

وهو كما كان قبل خلق المكان .

ومراد المصنف من هذه العبارة ، أن الله تعالى أزلي ، باقٍ له الدوام ، قديم صفاته قديمة .

فإن قيل هذه العبارة ليس عليها دليل ، والمراد منها نفي أن يكون الله تعالى مستوٍ على عرشه.

قلنا : ولنا لذلك دليل النقل والعقل .

فأما النقل فهو قول قول النبي ﷺ : « اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء»[٥].

---

(١) رواه البخاري (٩ / ١٢٤).
(٢) المصدر نفسه .
(٣) فتح الباري لابن حجر (٦/ ٢٨٩). قال الحافظ في الفتح : " وفي رواية أبي معاوية كان الله قبل كل شيء وهو بمعنى كان الله ولا شيء معه وهي أصرح في الرد على من أثبت حوادث لا أول لها من رواية الباب وهي من مستشنع المسائل المنسوبة لابن تيمية ووقفت في كلام له على هذا الحديث يرجح الرواية التي في هذا الباب على غيرها مع أن قضية الجمع بين الروايتين تقتضي حمل هذه على التي في بدء الخلق لا العكس والجمع يقدم على الترجيح بالاتفاق" (١٣/٤١٠).
(٤) رواه مسلم (٤ / ٢٠٤٨).
(٥) المصدر نفسه .

وجه الاستدلال : أن الله تعالى أزلي قديم ، صفاته قديمة .

وقول :« ولم يكن شيء معه »[١].

وجه الاستدلال أن الله تعالى لا يكون في مكان ولا يجوز عليه المكان ، وهو كما كان قبل خلق المكان .

هو نفي بأن يكون الله في مكان لأن ذلك محال في حقه سبحانه ، ولا يلزم من نفي وجود الله تعالى في مكان نفي استوائه على العرش ، ويجوز أن يقال أن الله تعالى في السماء للنصوص الثابتة بذلك .

وقد نقل هذه العبارة أئمة المذهب كالقاضي وابن حمدان .

قال القاضي رحمه الله : « ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان ولا في مكان ويجوز أن يقال أنه تعالى في السماء » [٢] .

وقال أيضًا :

والدلالة على أنه لا يجوز اطلاق القول عليه بأنه في مكان هو أن اضافته إلى المكان توجب قدم المكان بقدمه تعالى إذ لم يزل موجودًا والمكان لا يكون إلا جسمًا أو جوهرًا والجواهر والأجسام ، محدثة ، ولا يجوز ذلك في حق الله تعالى .

والدلالة على اطلاق القول عليه أنه في السماء لا على معنى المكان قوله تعالى: ﴿ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ [٣].

فأجاز أحمد ﷺ اطلاق القول أنه في السماء لا على وجه الحد لورود الشرع باطلاق ذلك ، ولم يجز اطلاق القول في مكان لأن الشرع لم يرد اطلاقه[٤] .

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٦/ ٢٨٩).
(٢) مختصر المعتمد لابي يعلى (٥٦).
(٣) الملك : الآية (١٦).
(٤) مختصر المعتمد (٥٧).

قال السفاريني رحمه الله :

« ذكر الإمام أبو العباس عماد الدين أحمد بن إبراهيم الواسطي الصوفي المحقق العارف، تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله سرهما، الذي قال فيه شيخ الإسلام: إنه جنيد زمانه – في رسالته نصيحة الإخوان ما حاصله في مسألة العلو والفوقية والاستواء، هو أن الله عز وجل كان ولا مكان، ولا عرش، ولا ماء، ولا فضاء، ولا هواء، ولا خلاء، ولا ملأ، وإنه كان منفردا في قدمه وأزليته، متوحدا في فردانيته، لا يوصف بأنه فوق كذا إذا لا شيء غيره، هو تعالى سبق التحت والفوق اللذين هما جهتا العالم، وهو لا زمان له تعالى، هو تعالى في تلك الفردانية منزه عن لوازم الحدث وصفاته، فلما اقتضت الإرادة المقدسة خلق الأكوان وجعل جهتي العلو والسفل، واقتضت الحكمة الإلهية أن يكون الكون في جهة التحت لكونه مربوبا مخلوقا، واقتضت العظمة الربانية أن يكون هو تعالى فوق الكون باعتبار الكون لا باعتبار فردانيته، إذا لا فوق فيها ولا تحت، والرب سبحانه وتعالى كما كان في قدمه وأزليته وفردانيته لم يحدث له في ذاته، ولا في صفاته ما لم يكن له في قدمه وأزليته فهو الآن كما كان، لما أحدث المربوب المخلوق ذا الجهات والحدود، والخلا والملا، ذا الفوقية والتحتية، كان مقتضى حكم العظمة الربوية أن يكون فوق ملكه، وأن تكون المملكة تحته باعتبار الحدوث من الكون لا باعتبار القدم من المكون، فإذا أشير إليه بشيء يستحيل أن يشار من جهة التحتية أو من جهة اليمنة أو من جهة اليسرة بل لا يليق أن يشار إليه إلا من جهة العلو والفوقية، ثم الإشارة هي بحسب الكون وحدوثه وأسفله فالإشارة تقع على أعلى جزء من الكون حقيقة، وتقع على عظمة الله تعالى كما يليق به لا كما يقع على الحقيقة المحسوسة عندنا في أعلى جزء من الكون فإنها إشارة إلى جسم وتلك إشارة إلى إثبات »[1].

(١) لوامع الانوار البهية في شرح الدرة المضية للسفاريني (١ / ٢١١).

ولا يعرف بالحواس، ولا يقاس بالناس ، فهو الغني عن كل شيء، ولا يستغني عنه شيء، ولا يشبه شيئًا، ولا يشبهه شيء .

معنى **الحواس** : الحَواسّ (جمع حاسّة) هي وسائل الإدراك لدى الكائنات الحية، فهي تعمل على مساعدتها في التعرف على الأشياء.

والمراد بها حاسة البصر والشم والسمع واللمس والتذوق.

فلا يدرك الله تعالى بكل هذه الحواس .

ولا يقاس بالناس : أي لا يشبه بالناس فتعالى الله عن ذلك .

وعلى كل حال: مهما خطر بالبال، أو توهمه الخيال، فهو بخلاف ذي الإكرام والجلال.

الخيال : والخيال قوة تحفظ ما يدركه الحس المشترك من صور المحسوسات بعد غيبوبة المادة بحيث يشاهدها الحس المشترك كلما التفت إليها فهو خزانة للحس المشترك ومحله البطن الأول من الدماغ (١).

(١) التوقيف على مهمات التعاريف (١٦١).

حكم التأويل في المذهب :

فيحرم تأويل ما يتعلق به تعالى وتفسيره ؛كآية الاستواء ، وحديث النزول ، وغير ذلك من آيات الصفات ، إلا بصادر عن النبي ﷺ ، أو بعض الصحابة .

وهذا مذهب السلف قاطبة .

التأويل :

والمؤول في اللغة: اسم مفعول من التأويل، وفعله آل يؤول، بمعنى: رجع، فيكون المؤول بمعنى المرجوع به، والتأويل بمعنى الرجوع.

في الاصطلاح : صرف اللفظ عن ظاهره لدليل يصير المرجوح به ظاهرًا.

أما المؤول الفاسد: فهو حمل اللفظ على الاحتمال غير المتبادر للذهن بدليل ضعيف لا يقوى على صرف اللفظ عن ظاهره أو بغر دليل مثل من قال بأن تأويل استوى استولى.

فهذا النوع يعتبر محرمًا .

بدليل قول الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾[1].

وجه الاستدلال : أنه ذم مبتغي التأويل للمتشابه كآية الاستواء والنزول زالمجيء .

وجعل العلم بتأويله من اختصاص الله تعالى بقوله : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾[2].

ما يتعلق به تعالى :

أي ما يتعلق بصفات الله تعالى .

---

(١) آل عمران : الآية (٧).

(٢) آل عمران .

وتفسيره :

أي ويحرم تفسير صفات الله تعالى

التفسير : الفاء والسين والراء كلمة واحدة تدلُّ على بيان شيء وإيضاحه[1] ، وهو مصدر فسّر بتشديد السين، والفسر: الإبانة وكشف المغطى، والتفسير مثله، وهو كشف المراد عن اللفظ المشكل [2].

ويراد منه الإيضاح والتبيين، وقد ورد بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [3] ، أي أحسن بياناً وتفصيلاً [4].

أي أنه يحرم تفسير آيات الصفات وأحاديثها ، سواء ببيان معانيها في اللغة العربية ، أو بتأويل .

كآية الاستواء ، وحديث النزول ، وغير ذلك من آيات الصفات .

ثم ضرب المصنف رحمه الله أمثلة على ما يحرم تأويله وصرفه عن ظاهره : بآية الاستواء فلا تفسر ، ويفوض معناها إلى الله تعالى ، ويحرم تأويلها كمن قال : بأن الاستواء استيلاء .

وكذلك حديث النزول لا يفسر ، فليس النزول انتقال وحركة .

إلا بصادر عن النبي ﷺ ، أو بعض الصحابة.

ومراده : لا يجوز تأويل أو تفسير ببيان معاني آيات الصفات إلا بشرط وجود دليل صحيح صادر عن النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم .

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٤/ ٥٠٤).
(٢) القاموس المحيط: (٤١١) ، ولسان العرب: (٥/ ٣٤٢١) ، مادة فسر، وانظر: مباحث في علوم القرآن: (٣١٦).
(٣) الفرقان: الآية (٣٣).
(٤) انظر: تفسير القرطبي:(١٣/ ٢٩).

وهذا مذهب السلف قاطبة .

والسلف المراد بهم الصحابة والتابعون وتابع التابعين ﷺ أجمعين وقد نقل الاجماع غير واحد كما وردت الروايات بذلك .

قال الوليد بن مسلم : سألت الأوزاعي ومالك بن أنس وسفيان الثوري والليث بن سعد : عن الأحاديث التي في الصفات ؟ فكلهم قالوا لي : أمروها كما جاءت بلا تفسير[١] .

فلا نقول في التنزيه كقول المعطلة ، بل نثبت ولا نحرف، ونصف ولا نكيف..

التعطيل : اللغة : و التَّفْرِيغُ والإِخلاءُ، وَتَرْكُ الشيءِ ضَياعاً[٢].

اصطلاحًا : إنكار ما يجب لله تعالى من الأسماء والصفات ، أو إنكار بعضه .

أصل هذه المقالة المبتدعة لم يتكلم بها الصحابة رضي الله عنهم ، وإنما ظهرت على أيدي الجهمية ، وهم أعظم الطوائف تعطيلًا ونفيا لأسماء الله وصفاته ، فلا يجوز عندهم أن يسمى الله أو يوصف بما يطلق على غيره ، كالشيء والموجود والحي والعالم ، لأن ذلك بزعمهم من التشبيه الممتنع ، وأجاز أن يسمى الله قادرا فاعلا، لأن القدرة والفعل مختصة بالرب ، بناء على أصله في الجبر ، وهؤلاء هم أصحاب الجهم بن صفوان السمرقندي .

ويأتي بعدهم المعتزلة وهم أتباع واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد[٣] .

بل نثبت .

مذهبنا اثبات الصفة اثباتًا وجوديًا ، ولا تحديد لمعانيها بل تفوض الى قائلها .

(١) العلو (١٤٠).
(٢) القاموس المحيط (١٠٣٣).
(٣) يراجع : الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار"، ليحيى بن أبي الخير العمراني

ولا نحرف، ونصف ولا نكيف.

ولا نحرف معاني صفات الله تعالى عن مراده بل نثبت لفظها ونفوض معناها إلى قائلها .

والكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات .

الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الصفات ، وعلى هذا التقعيد سار أئمة الحنابلة

قال ابن أبي يعلى رحمه الله متكلمًا عن اعتقاد أبيه :

« اعتقد الوالد السعيد (يعني: أبا يعلى محمد بن الحسين) ومن قبله ممن سبقه من الأئمة: أن إثبات صفات الباري سبحانه إنما هو **إثبات وجود لا إثبات تحديد لها**، حقيقة في علمه، لم يُطْلع الباري سبحانه على كنْه معرفتها أحدًا من إنس ولا جان، واعتقدوا: **أن الكلام في الصفات فرع الكلام في الذات**[1] ويحتذي حذوه ومثاله وكما جاء.

وقد أجمع أهل القبلة: أن إثبات الباري سبحانه: إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وكيفية

هكذا اعتقد الوالد السعيد ومن قبله ممن سلفه من الأئمة: أن إثبات الصفات للباري سبحانه إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وكيفية وأنها صفات لا تشبه صفات البرية ولا تدرك حقيقة علمها بالفكر والروية.

والأصل الذي اعتمدوه في هذا الباب اتباع قوله تعالى: وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون: آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب وقال تعالى: ولا يحيطون به علما وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما. »[2].

صفات الله قديمة ثابتة لله سبحانه كما أن ذاته قديمة ليس كمثلها شيء ، فكما أنا نثبت ذاتًا ليست كالذوات ، فنثبت له صفات لا كصفات المحدثين ، وليس لنا أن نتأول في صفات الله تعالى ولا في ذاته، من غير ما إثبات عن صاحب الشرع وأصحابه، وأئمة التابعين المعتبرين من علماء السلف وأتباعهم، فهم العمدة دون غيرهم »[3].

---

(١) هذه القاعدة يتناقلها السلفية المعاصرة على أنها من تقعيد تقي الدين بينما ذكرها القاضي رحمه الله .

(٢) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (٢ / ٢١١).

(٣) انظر لوامع الأنوار البهية (١/ ١٠٢)

فمذهبنا حق بين باطلين، وهدًى بين ضلالتين، وهو: إثبات الأسماء والصفات، مع نفي التشبيه والأدوات.

مذهبنا وسط بين المذاهب وهو مذهب الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، هو الوقوف على ماجاء به النص القرآني وصحيح السنة النبوية من صفات الله تعالى بدون زيادة .

الباب الثاني

﴿ في الأفعال ﴾

كل شيء سوى الله وصفاته ، حادث، وهو سبحانه وتعالى خلقه، وأوجده، وابتدأه من العدم، لا لعلة ، ولا لغرض ، ولا لموجب ، ولا يفعل شيئاً عبثاً ، وجميع أفعال العباد كسب لهم، وهي مخلوقة لله، خيرها وشرها ، والعبد مختار يسير في كسب الطاعة ، واكتساب المعصية ، غير مكره ولا مجبر .

كل شيء سوى الله وصفاته ، حادث :

عموم ما سوى الله تعالى وصفاته مخلوق حادث كائن بعد أن لم يكن ، وصفات الله تعالى قديمة .

فالحادث له أول ابتدئ به ، ويدل عليه : علمنا أن معنى المحدث : أنه الموجود عن عدم ، والحوادث موجودة عن عدم ، فلا يجوز أن تكون الحوادث لا أول لها ، ولو كان فيها لوجب أن يكون قديمًا وذلك فاسد ، لما بينا أن من قيام الدلالة على حدوثها .

وهو سبحانه وتعالى خلقه، وأوجده، وابتدأه من العدم، لا لعلة ، ولا لغرض ، ولا لموجب .

وهو سبحانه وتعالى خلقه : أي الحادث .

وأوجده، وابتدأه من العدم . أي أنشأه من غير سبق مثال .

وقد دل القرآن والكتب معه والسنة النبوية واجماع المسلمين على أن الله تعالى خلق الخلق وهو الموجد لهم .

لا لعلة : **العلة** : **لغة** : المرض .

اصطلاحًا . وردت عدة تعاريف لها عند المتكلمين .

ما يؤثر ايجاب الصفة في الغير .

وقالوا : ما يحتاج إليه الشيء وبالمعلوم ما يحتاج إلى الشيء وإن كانت العلة عند اطلاقها منصرفة إلى الفاعل [(١)].

ولا لغرض : والمراد به العلم بالآمر المنتظر الذي له فُعِل الفعل المقدم ، فهو أخص من الدواعي [(٢)].

وقالوا : هو مراد الفاعل من الفعل إذا انتهى إليه وقطعه ، أو ما هو كالفعل عن الفعل [(٣)].

ولا لموجب : هو الذي يجب أن يصدر عنه الفعل[(٤)] .

ولا يفعل شيئاً عبثاً .

الله سبحانه حكيم، لا يفعل شيئًا عبثًا، ولا لغير معنى ومصلحة، وحكمته: هي الغاية المقصودة بالفعل، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة، لأجلها فعل، كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل، وقد دل كلامه وكلام رسوله على هذا .

وسبحانه لا يفعل شيئًا عبثًا هملًا بلا أمر ولا نهي ولا حكمة ومصلحة، ومعنى السدى المهمل، وإبل سدى إذا كانت ترعى حيث شاءت بلا راع كما أتى في النص القرآني، والسنة النبوية، والآثار مما هو كثير جدا أن الله تبارك وتعالى لا يفعل إلا لحكمة وعلم وهو العليم الحكيم، فما خلق شيئا ولا قضاه ولا شرعه إلا بحكمة بالغة، وإن تقاصرت عنه عقول البشر فاتبع الهدى باقتفاء المأثور واتباع السلف الصالح، ولا تجحد حكمته كما لا تجحد قدرته فهو الحكيم القدير.

(١) شرح المقاصد (١ / ١٥٢) ومعجم المصطلحات الكلامية (٢ / ٥٢٠).
(٢) المغني (١٤ / ٤٤).
(٣) الحدود للمرتضى (١٦٩).
(٤) كشف الفوائد (٤٠).

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١) .

وجميع أفعال العباد كسب لهم وهي مخلوقة لله، خيرها وشرها .

جميع أفعال العباد خلق الله تعالى وكسب لهم خيرها وشرها، حسنها وقبيحها ما كان منها طاعة ومعصية، لا على معنى أنه أمر بالمعصية، لكن قضى بها وقدرها، وجعلها على حسب قصده، وأنه قسم الأرزاق وقدرها، فلا يصدها صاد ولا يمنعها مانع، لا زائدها ينقص، ولا ناقصها يزيد، ولا ناعمها يخشن، ولا خشنها ينعم، ورزق غد لا يؤكل اليوم، وقسم زيد لا ينقل إلى عمرو.

وإنه تعالى يرزق الحرام كما يرزق الحلال، على معنى أنه يجعله غذاء للأبدان وقاما للأجسام لا على معنى إباحة الحرام.

وكذلك القاتل لم يقطع أجل المقتول المقدر له، بل يموت بأجله، وكذلك الغريق، ومن هدم عليه الحائط وألقى من شاهق، ومن أكله السبع، وكذلك هداية المسلمين والمؤمنين وضلالة الكافرين إليه سبحانه جميع ذلك فعل له صنعة، لا شريك له في ملكه.

وإنما أثبتنا كسبا لموضع توجه الأمر والنهي والخطاب إليهم، ثم استحقاق الثواب والعقاب لديه كما وعده وضمن -جل وعز-، قال الله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٢).

وقال تعالى : ﴿ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ، قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾(٤).

وقال تعالى : ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ (٥).

---

(١) سورة الدخان : الآية (٣٨ _ ٣٩).
(٢) سورة السجدة : الآية (١٧).
(٣) سورة الرعد : الآية (٢٤).
(٤) سورة المدثر : الآية (٤٢ _ ٤٤).
(٥) سورة الطور : الآية (١٤).

وقال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾[1]. وغير ذلك من الآيات.

فعلق سبحانه الجزاء على أفعالهم، فأثبت لهم كسبا خلاف ما قالت الجهمية من أنه لا كسب للعباد، وأنه كالباب يرد ويفتح، والشجرة تحرك وتهز.

وهم الجاحدون للحق، الرادون للكتاب والسنة.

والدليل على أن ذلك خلق الله تعالى وكسب للعباد خلافا للقدرية في قولهم: إن جميع ذلك خلق للعبادة دون الله سبحانه .

وهم مجوس هذه الأمة جعلوا لله شركاء ونسبوه إلى العجز، وأن يجرى في ملكه ما لا يدخل في قدرته ولا إرادته تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا قول الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[2].

وقال تعالى : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[3].

فلما كان الجزاء واقعًا على أعمالهم كان الخلق واقعًا على أعمالهم [4].

والعبد مختار يسير في كسب الطاعة ، واكتساب المعصية ، غير مكره ولا مجبر .

أفعال العبد الصادرة عنه على نوعين :

أحدها : أفعال طاعة وقربة وحسنة ونحو ذلك .

فهو خلق الله تعالى خلقه وقضاه وقدره وأراده .

الثاني : أفعال معصية وفساد وشر وقبيحة ونحو ذلك .

فإنه خلق الله تعالى قضاء وقدره وأراده .

---

(١) سورة الحج : الآية (١٠).
(٢) سورة الصفات : الآية (٩٦).
(٣) سورة الواقعة : الآية (٢٤).
(٤) مختصر المعتمد (١٢٦).والغنية لطالبي الحق (١ / ١٣٩).

والدلالة على ذلك :

قول الله تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾(1).

وجه الاستدلال : أن الآية تناولت إرادة الخير والشر ، وفعل الخير والشر ، وفعل الخير وهو شرح صدر المؤمن للإيمان وفعل الشر وهو تضييق الصدر حتى يكون حرجًا فلا يدخله الإيمان .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾(2).

وجه الاستدلال :

أن الله تعالى أخبر أنه يهدي ، والهداية أعلى ماكان حسنًا وتتفرع منه الطاعة والقربة وغير ذلك .

وأخبر أنه يضل والضلال أعلى ما يكون من الشر ، ويتفرع منه المعصية والظلم وغير ذلك .

وقد أخبر الله أنهما من فعله جميعًا .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾(3).

وجه الاستدلال : أن الله أخبر أنه فعل هو فاعله ومعنى ذلك ، نبلوكم : أي نختبركم بالخير والشر والابتلاء(4) .

غير مكره ولا مجبر .

أي : أن المكلف غير مكره على فعل ، ولا مجبر عليه .

---

(1) الانعام : الآية (١٢٥).
(2) الكهف : الآية (١٧).
(3) الأنبياء : الآية (٣٥).
(4) انظر : الايضاح لابن الزاغوني (٤٨٧).

وله تعالى إيلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم ، فله أن يفعل بخلقه ما يشاء، وكل ذلك منه حسن، وإن لم يتب، وعن الكافر إذا أسلم .

الله سبحانه له إيلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق ومن غير ثواب لاحق ، لأنه متصرف في ملكه ولا يتصور أن يعدو تصرفه ملكه والظلم هو عبارة عن التصرف في ملك الغير بغير إذنه وهو محال على الله تعالى ؛ فإنه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما ويدل على جواز ذلك وجوده فإن ذبح البهائم إيلام لها وما صب عليها من أنواع العذاب من جهة الآدميين لم يتقدمها جريمة .

ودليل ذلك كله : ﴿ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾[١].

فله أن يفعل بخلقه ما يشاء .

ودليل ذلك قول الله تعالى : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾[٢].

والمعدوم مخاطب إذا وجب .

وتسمى عند الأصوليين بتكليف المعدوم .

المعدوم : له تعاريف عدة عند المتكلمين منها :

هو الذي ليس بشيء .

وقالوا : هو المنتفي الذي ليس بشيء .

وأيضًا : إن المعدوم ليس بشيء ولا عين ولا ذات ولا جوهر ولا عرض ولا سواد ولا بيضا ولا قبيح ولا حسن [٣].

وهذا جواب لسؤال أورده المعتزلة على الأشاعرة قال الجويني رحمه الله :

« إذ قالوا: لو كان الكلام أزليا لكان أمرا، ولو كان أمرا لتعلق بالمخاطب في عدمه، فإذا بينا أنه لا يمتنع ثبوت الأمر من غير ارتباط بمخاطب فقد اندفع السؤال، فآل الأمر إلى أن المعدوم مأمور على شرط الوجود، وهذا منتهى مذهب الشيخ – رضي الله عنه –. فأقول: إن ظن ظان أن المعدوم مأمور، فقد خرج عن حد المعقول وقول القائل: إنه مأمور على تقدير

(١) آل عمران : الآية (١٢٩).
(٢) الأنبياء : الآية (٢٣).
(٣) معجم المصطلحات الكلامية (٧٣٤).

الوجود تلبيس، فإنه إذا وجد ليس معدومًا، ولا شك أن الوجود شرط في كون المأمور مأمورًا»[1].

فجاء الجواب : بأن المعدوم مخاطب إذا وجب .

ومعناه أن المكلف المعدوم مخاطب بالحكم الشرعي بشرط وجوده .

(١) المصدر نفسه .

ولا يجب عليه لخلقه شيء ، ولا فعل الأصلح لهم ، والعقل المرعي تبع للنقل الشرعي.

ولا يجب عليه لخلقه شيء ، ولا فعل الأصلح لهم.

هذا نفي لقول المعتزلة الذي أوجبوا على الله تعالى أمورًا بناء على قولهم بالحسن والقبح العقليين .

ولا فعل الأصلح لهم .

أي لا يجب فعل الأصلح على الله تعالى لعباده أصلح الأمور في باب دنياهم وما هو أنفع لهم.

توضيح ذلك :

ما من أصلح وأنفع للعباد إلاّ وهناك فعل أصلح منه، وهو مع ذلك خال عن المفسدة.

فلو كان الأصلح واجباً لوجب على الله تعالى أن يقوم بأفعال غير متناهية، وكلّها أصلح، وهذا محال .

ولهذا ينبغي القول بعدم وجوب فعل الأصلح على الله تعالى مطلقاً .

لو كان الأصلح واجباً لم يستحق الله الشكر منّا على ما يفعله بنا من الإحسان والإنعام، لأنّ الذي يقوم بفعل يجب عليه، فإنّه لا يستحق الشكر، وإنّما الشكر يكون للمتفضّل الذي له أن يفعل وله أن لا يفعل .

والعقل المرعي تبع للنقل الشرعي.

العقل الصحيح لا يخالف النقل الصحيح وبهما تدرك الحقائق الشرعية ، فالنقل يفيد العقل باجتماعهما وبنقص واحد منهما نقصت المعرفة بالحق .

والتعامل مع العقل في حالات :

الأولى : كل ما جاءت به الشريعة من نصوص القرآن والسنة الصحيحة ، يوافق العقل الصحيح والفطرة السليمة ، ولا يخالفه .

الثانية : أن يخالف العقل الشرع ويعارضه ، فيقدم الشرع الصحيح .

والله هو الرزاق من حلال وحرام، هدى من شاء، وأضل من أراد.

الرزق : اسم لما يسوقه الله إلى الحيوان فيأكله، فيكون متناولًا للحلال والحرام [(١)].

الرزق عام لما ينتفع به سواء كان من حلال أو حرام .

قال القاضي ــ رحمه الله ــ :

« الرزق هو الشيء الذي يكون الحي منتفعًا به ، سواء كان مالكًا له ، أو غير مالك ، وسواء كان على وجه مباح أو حرام ، وقد تختلف جهات انتفاعه فمنها ما يكون الانتفاع به غذاء للأبدان وقوامًا للأجسام ومصلحًا نحو الطعام والشراب ومنها ثوبًا يقيه من الحر والبرد ، ومنها ربعًا بنتفع بسكناه ، ومنها ضيعة أو نخلة أو شجرة ينتفع بزرعها وغلتها ، وخلافًا لجماعة من المعتزلة في قولهم : أن معنى الرزق الملك ، وأن الغاصب لطعام غيره وشرابه ليس برزق له ، لأنه غير مالك له ، والدلالة عليه اجماع الأمة على أن ههنا مرزوق لا يملك ، وهو ما تغتذي به البهائم ، وما يأكله الانسان اذا دعي إلى طعام غيره ، فإنه يأكله على حكم ملك صاحبه »[(٢)].

والله تعالى يرزق الحلال والحرام ، خلافاً للمعتزلة في قولهم: إن الحرام ليس برزق لأنه لا يصح تملكه، وإن الله لا يرزق الحرام وإنما يرزق الحلال، والرزق لا يكون إلا بمعنى الملك.

ودليل أن الله يرزق من الحلال والحرام قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[(٣)].

---

(١) التعريفات (١١٠).
(٢) مختصر المعتمد (١٤٩_١٥٠).
(٣) الذاريات : الآية (٥٨).

فأضاف الرزق إليه سبحانه ، وهو ما يصلح غذاء للبدن وقوامًا لأجسامهم ويكون من حلال وحرام .

ولو نظرنا إلى الرزق من جهة حقيقته ، فهو أعم من أن يكون مختصًا بالمال ، بل يتعدى إلى غيره ، فالعلم رزق ، والفهم رزق ، والتوفيق رزق ، والأخلاق الحسنة رزق ، والزوجة الصالحة رزق ، والولد الصالح رزق .

الباب الثالث

﴿ في الأحكام ﴾

فيجب امتثال أمره ونهيه الجازمين، ويسن في غيرهما، ولا يستحق المطيع على الله ثوابًا، ولا العاصي عقابًا، بل يثيب الطائع بفضله، ويعذب العاصي بعدله ، فلا نقطع لطائع بجنة، ولا لعاصٍ بنار، بل نرجو ونخاف.

فيجب امتثال أمره ونهيه الجازمين، ويسن في غيرهما.

أوامر الله سبحانه على عباده تدور بين الواجب والمحرم والمسنون في غيرهما .

وواجب على العباد طاعة لربهم أن يمتثلوا لأوامره ، فما كان واجبًا لزمهم العمل به ، وما كان مسنونًا استحب لهم العمل به .

وأدلة ذلك :

قول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ (١).

وقول الله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(٢).

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾(٣).

وغيرها من الآيات الدالة على وجوب طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ .

---

(١) آل عمران : الآية (٣٢).
(٢) الآية (١٣٢).
(٣) النساء : الآية (١٣_١٤).

ولا يستحق المطيع على الله ثوابًا، ولا العاصي عقابًا، بل يثيب الطائع بفضله، ويعذب العاصي بعدله .

من أطاع الله تعالى لا يستحق على الله تعالى ثوابًا ، فإن اثابه فبفضله ، وإن عاقبه فبعدله ، بل له إثابة العاصي وعقاب المطيع .

قال ابن مفلح رحمه الله :

« وقال الشيخ تقي الدين: كون المطيع يستحق الجزاء هو استحقاق إنعام وفضل، ليس هو استحقاق مقابلة كما يستحق المخلوق على المخلوق، فمن الناس من يقول لا معنى للاستحقاق إلا أنه أخبر بذلك. ووعده صدق ولكن أكثر الناس يثبتون استحقاقا زائدا على هذا كما دل عليه الكتاب والسنة.

قال تعالى {وكان حقا علينا نصر المؤمنين} [الروم: ٤٧] ، «وقال النبي ﷺ لمعاذ أتدري ما حق العباد على الله عز وجل إذا فعلوا ذلك؟ أن لا يعذبهم» لكن أهل السنة يقولون هو الذي كتب على نفسه الرحمة وأوجب هذا الحق على نفسه لم يوجبه مخلوق. والمعتزلة يدعون أنه واجب عليه بالقياس على الخلق وأن العباد هم الذين أطاعوا بدون أن يجعلهم مطيعين، وأنهم يستحقون الجزاء بدون أن يكون هو الموجب، وغلطوا في ذلك، وهذا الباب غلطت فيه القدرية الجبرية أتباع جهم والقدرية النافية.

وحديث معاذ المذكور في الصحيحين عن أنس عن معاذ قال: «كنت ردف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرحل فقال يا معاذ قلت لبيك يا رسول الله وسعديك قال: هل تدري ما حق الله على العباد؟ قلت الله ورسوله أعلم قال أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ثم سار ساعة ثم قال يا معاذ بن جبل قلت لبيك يا رسول الله وسعديك قال هل تدري ما حق العباد إذا فعلوا ذلك؟ قلت الله ورسوله أعلم قال أن لا يعذبهم.» .

وفي الصحيحين عن عمرو بن ميمون عن معاذ قال «كنت ردف النبي ﷺ على حمار يقال له عفير فقال يا معاذ هل تدري ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله عز وجل قلت الله ورسوله أعلم. قال فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وإن حق العباد على الله عز وجل أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا فقلت يا رسول الله أفلا أبشر به

الناس؟ قال لا تبشرهم فيتكلوا» وإنما أخبر معاذ بذلك والله أعلم خوفا من إثم كتمان العلم في الصحيحين عنه «أنه كان رديف النبي ﷺعلى الرحل فناداه ثلاثا كل مرة يجيبه لبيك يا رسول الله وسعديك قال ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا حرمه الله على النار. قال يا رسول الله أفلا أخبر بها الناس فيستبشرون؟ قال إذا يتكلوا وأخبر بها معاذ عند موته تأثما». »[١].

فلا نقطع لطائع بجنة، ولا لعاصٍ بنار، بل نرجو ونخاف.

هذا هو اعتقاد أهل السنة والجماعة كما قرره الإمام أحمد ﷺ من رواية عبدوس بن مالك العطار .

قال : « لا نشهد على أحد من أهل القبلة بعمل يعمله بجنة ولا نار، نرجو للصالح ونخاف عليه، ونخاف على المسيء المذنب، ونرجو له رحمة الله » [٢].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: « أُتِيَ رسولُ اللَّه ﷺ بصبيّ من صبيان الأنصار، فَصلَّى عليه، قالت عائشة: فقلتُ: طوبى لِهَذا، عُصفورٌ من عصافير الجنَّة، لم يعمَلْ سوءاً ولم يُدرِكْه! قال: أوَ غيرُ ذلِك يا عائشة، خلقَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ الجنَّةَ وخلقَ لَها أَهْلًا، وخلقَهُم في أصلابِ آبائِهِم، وخَلقَ النَّارَ وخلقَ لَها أَهْلًا، وخلقهُم في أصلابِ آبائهم »[٣].

بل نرجو ونخاف.

الرجاء بالمد: رجاه يرجوه رجْوًا ورجاءً ورجاوةً ومَرجاةً، فهو من مادة (ر ج و) التي تدل على الأمل الذي نقيضه اليأس، وهو حالة يأمل فيها الإنسانُ الشيءَ الحسنَ ويتوقع حصوله، وقد عبر عن الخوف بالرجاء، قال تعالى: {مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا} [نوح: ١٣]؛ أي لا تخافون اللهَ عظمةً، والرجاء لا يكون بمعنى الخوف إلا إذا كان مسبوقًا بجحد، أي نفي[٤].

واصطلاحًا: تعلق القلب بحصولِ محبوبٍ في المستقبل[٥].

---

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح (١ / ١٢٠).
(٢) المصدر نفسه (١ / ١١٩).
(٣) طبقات الحنابلة (١ / ٢٤٥).
(٤) لسان العرب، ابن منظور (١١٨/٦)
(٥) التعريفات، الجرجاني (١١٢).

الْخَوْف : انفعال فِي النَّفس يحدث لتوقع مَا يرد من الْمَكْرُوه أَو يفوت من المحبوب[١].

ومعنى ما تقدم ، يرجى للعاصي الرحمة والمغفرة ، ويُخاف عليه من عذاب الله تعالى .

(١) المعجم الوسيط (١ / ٢٦٢).

فصل

الإسلام: الإتيان بالشهادتين مع اعتقادهما، والتزام بقية الأركان الخمسة إذا تعيَّنت ، وتصديق الرسول ﷺ فيما جاء به.

الذي يجب على من يريد الدخول في دين الإسلام:

أن يتلفظ بالشهادتين: أشهد لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، ويتبرأ من كل دين غير دين الإسلام، ويعتقد بقلبه وحدانية الله تعالى، على ما سنبينه إن شاء الله تعالى.

إذا كان الإسلام هو الدين عند الله تعالى، قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾(٢).

فإذا أتى بذلك دخل في الإسلام، وحرم قتله وسبي ذراريه واستغنام أمواله، ويغفر له ما تقدم من التفريط في حق الله عز وجل، لقوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ (٣) .

وقول النبي ﷺ : «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلاَمِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»(٤) .

ولقوله ﷺ : « قال: «يا عمرو إن الإسلام يهدم ما قبله، وإن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وإن الحج يهدم ما كان قبله»(٥).

ثم يجب عليه الغسل للإسلام، لما روي أن النبي ﷺ أمر ثمامة بن أثال وقيس بن عاصم، لما أسلما بالغسل »(٦) .

---

(١) آل عمران : الآية (١٩).
(٢) الآية (٨٥).
(٣) الأنفال : الآية (٣٨).
(٤) رواه البخاري (١ / ١٤).ومسلم (١ / ٥١).
(٥) رواه مسلم (١ / ١١٢).
(٦) الغنية لطالبي الحق للشيخ عبد القادر الجيلاني (١ / ١٣).

والتزام بقية الأركان الخمسة إذا تعيَّنت.

وهي إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان.

وتصديق الرسول ﷺ فيما جاء به.

بأن يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله؛ لخبر أنس، إلا أن يكون ممن يعتقد أن محمدًا بعث إلى العرب خاصة، أو يزعم أن محمدًا نبي يبعث غير نبينا ﷺ فلا يصح إسلامه حتى يشهد أن نبينا محمدًا نبي بعث إلى الناس كافة، أو يتبرأ مع الشهادتين من كل دين خالف الإسلام؛ لأنه يحتمل أن يريد بالشهادة ما يعتقده.

والكفر : جحد ما لا يتم الإسلام بدونه ، والمسلم تبعًا لأبويه ، أو لسابيه ، أو للدار ، ويلزم الإتيان بالشهادتين إذا بلغ ، إن لم يكن نَطَقَ بهما ، ولا يقال للفاسق : ديِّنٌ ، ومتَّقٍ ، ومخلص وولي الله .

كَفر : بِالْفَتْحِ : التَّغْطِيَةُ .

والكُفر: شرعًا : جحد ما لا يتم الإسلام بدونه.

والمسلم تبعًا لأبويه .

لحديث أبي هريرة مرفوعا ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه.

أو لِسَابِيْهِ .

ومن سُبي من أطفالهم أي الكفار أو مميزيهم منفردًا عن أبويه فمسلم لأن التبعية انقطعت فيصير تابعا لسابيه المسلم في دينه أو سبي مع أحد أبويه فمسلم لحديث أبي هريرة مرفوعا ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه(١).

فمفهومه أنه لا يتبع أحدهما لأنّ الحكم متى علق بشيئين لم يثبت بأحدهما وكما لو أسلم أحدهما، وإن سبي منفردًا فمسلم إجماعًا، ومعهما فعلى دينهما(٢).

أو للدار .

إذا هلك أحد أبوي غير بالغ بدارنا حكم بإسلامه تبعًا للدار لمفهوم الحديث السابق.

---

(١) الاقناع (٢ / ١٢).

(٢) رواه البخاري (١ / ١٤).ومسلم (١ / ٥١).

ويلزم الإتيان بالشهادتين إذا بلغ، إن لم يكن نطق بهما ، ولا يقال للفاسق: "دَيِّنٌ ومُتَّقٍ، ومُخلِص، ووَلِيُّ الله" .

عن بُريدة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «لا تقولوا للمُنَافق سَيِّدٌ، فإنه إن يَكُ سَيِّدًا فقد أسْخَطْتُمْ ربكم -عز وجل-»[1].

ولأن تعظيم المنافق منافٍ لما جاء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ من الحذر والوعيد من صفات المنافق ، فإذا كان هذا في الصفات فمن باب أولى تعظيم من متلبس بالنفاق عملًا أو اعتقادًا.

(١) رواه أبو داود في سننه (٣٣٢).

والإيمان: عقد بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، ويزيد بالعلم، ويضعف بالجهل والغفلة والنسيان .

الإيمان : لغة : التصديق .

في حقيقته الشرعية : عرفه المصنف بقوله : **عقد بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالأركان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، ويضعف بالجهل والغفلة والنسيان .**

قوله : **عقد بالجنان** : وهو تصديق القلب واعتقاده ، فمن تكلم بكلمة التوحيد غير معتقد لها بقلبه فهو منافق .

قوله : **قول باللسان** : وهو إقرار اللسان فمن لم يقر ويصدق بلسانه مع القدرة فليس بمؤمن.

قوله : **وعمل بالأركان** : وهو عمل الجوارح كالنطق بالشهادتين والصلاة والزكاة وغيرها من أعمال الجوارح .

قال شاهين بن السميدع: سمعت أبا عبد الله يقول:« الإيمان قول وعمل؛ قول باللسان، وعمل الأركان » (١) .

ودليل ما تقدم من تعريف الايمان قول الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾(٢).

الله سبحانه جعل عبادته وإخلاص القلب وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة كله من الدين.

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾(٣).

وقد فسر الصحابة ﷺ إيمانكم بالصلاة وهي من العمل والعمل من الايمان .

وقد نص على ذلك الصحابة ﷺ .

فعن الإمام أحمد بن حنبل قال:« قال أصحاب رسول الله ﷺ حين حولت القبلة إلى البيت: فكيف بصلاتنا التي صلينا إليها، فأنزل الله ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾(٤).

---

(١) طبقات الحنابلة (١/ ٤٦١).
(٢) البينة : الآية (٥).
(٣) البقرة : الآية (١٤٣).
(٤) الآية (١٤٣).

فسمعت أحمد بن حنبل يقول: فجعل صلاتهم إيمانًا، فالصلاة من الإيمان »[1]. .

ودلت السنة على ذلك وقال رسول الله ﷺ : «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»[2].

فالقول : شهادة ان لا إله إلا الله .

والعمل : اماطة الأذى عن الطريق .

ومابينهما أقوال وأعمال وهي الشعب المذكورة في الحديث .

يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية .

ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [3] .

وقال: ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا ﴾[4] .

وقال رسول الله ﷺ : «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه مثقال برة أو خردلة أو ذرة من الإيمان»[5] . فجعله متفاضلا.

وقد نص الإمام أحمد ﷺ على ذلك .

قال صالح: وسألت أبي عمن يقول: الإيمان يزيد وينقص، ما زيادته ونقصانه؟

فقال: زيادته بالعمل، ونقصانه بترك العمل، مثل تركه الصلاة والزكاة والحج وأداء الفرائض، فهذا ينقص، ويزيد بالعمل.

وقال: إن كان قبل زيادته تامًّا، فكيف يزيد التام؟ ! فكما يزيد كذا ينقص[6].

ويزيد بالعلم، ويضعف بالجهل والغفلة والنسيان .

يزيد بالعلم عن الله تعالى وعن صفاته وأحكام الشريعة ، والعلم دليل على الإيمان وليس هو الإيمان ، والجهل دليل على ضعف الإيمان .

---

(١) السنة للخلال (١/ ٤٦٦).
(٢) غافر : الآية (١٧).
(٣) التوبة : الآية (١٢٤).
(٤) الفتح: الآية (٤).
(٥) غافر : الآية (١٧).
(٦) مسائل صالح (٥٣٧).

مسألة في عمل الجوارح :

هل يقال أن جنس العمل شرط صحة في الإيمان ؟.

أو يقال آحاد العمل شرط صحة في الإيمان ؟.

أولًا . مقالة جنس العمل شرط صحة في الإيمان ، قول لم يعرف على عهد الصحابة والتابعين ، ولا الأئمة المهديين .

ومقالة آحاد العمل شرط صحة في الإيمان تبناها الخوارج المعاصرون .

ثانيًا . الجواب : الحنابلة يتمسكون بأقوال إمامهم والسلف :

الإيمان : قول وعمل ، ونقف حيث وقف الأئمة .

مسألة حكم تارك عمل الجوارح :

مما تقدم من قول القاضي رحمه الله في أقسام الإيمان ، أن منه ما :

١. تركه كفر مخرج من الملة ، كالصلاة والمذهب المعتمد عدم اطلاق حكم التكفير إلا بشرطين :

أ.دعاية الإمام أو نائبه .

ب .خروج وقت الأولى وهو تارك للصلاة ، وتضايق وقت الثانية وهو مستمر في ترك الصلاة.

وقد نص الإمام أحمد رضي الله عنه .

وقال عبد الله: سألت أبي عن رجل ترك العصر حتى غربت الشمس تركها عمدا؟ قال: « ادعوه إلى الصلاة ثلاثا، فإن أبى وإلا ضربت عنقه »[(١)].

٢. تركه مفسق وليس بمكفِّر كمن ترك الزكاة ، والحج والصيام ونحوها .

٣. تركه ليس بمفسِّق وليس بمكفِّر ، كمن ترك النوافل لكن ليس تركًا مطلقًا .

فبهذا التقسيم يتبين أن تارك عمل الجوارح مطلقًا لا يكفر ، حتى يستتاب ثلاثًا من قبل الإمام أو من يقوم مقامه .

(١) مسائل عبد الله (١٩٢)

على خلاف ما عند السلفية المعاصرة من النجديين وغيرهم فهم يكفرون تارك العمل مطلقًا دون استتابة ، وليس ذلك من مذهب الإمام أحمد رضي الله عنه[1].

---

(١) مختصر المعتمد (١٨٦).

﴿ فصل في الاستثناء في الإيمان ﴾

وقول: "إن شاء الله" فيه، كما قال ابن عقيل : سنَّة ، لا على الشك في الحال، بل في المآل، أو في قبول بعض الأعمال، أو لخوف التقصير، أو كراهية تزكية النفس.

الاستثناء في الإيمان : هو تعليق الإيمان بالمشيئة وهو قول المؤمن أنا مؤمن إن شاء الله.

المذهب عندنا هو : جواز الإستثناء في الإيمان وقيل واجب ، فيقول أحدنا أنا مؤمن إن شاء الله لا سبيل الشك في الحال ، والشك التردد بين طرفين لا مزية لأحدهما على الآخر . بل في المآل .

قال حرب: سُئل أحمد بن حنبل: ما تقول في الاستثناء في الإيمان؟.

قال: نحن نذهب إليه.

قيل: الرجل يقول: أنا مؤمن إن شاء اللَّه؟ قال: نعم.

وقال: سألت إسحاق قلت: أنت تقول: أنا مؤمن إن شاء اللَّه؟

قال: نعم [(١)].

لا يجوز أن يقول أنا مؤمن حقًا ، ويجب أن يقول أنا مؤمن ان شاء الله . نص على ذلك .

ساق حرب في مسائله قال :

« فسمعت أحمد، قال له هذا الرجل: علي في هذا شر أن أقول: أنا مؤمن؟ قال أحمد: لا تقل: أنا مؤمن حقا، ولا البتة، ولا عند الله»[(٢)] .

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله :

« وإنما قلنا ذلك لما روى عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: من زعم أنه مؤمن فهو كافر.

وعن الحسن ﷺ : أن رجلًا قال عند عبد الله بن مسعود ﷺ : إني مؤمن.

فقيل لابن مسعود إن هذا يزعم أنه مؤمن قال: فاسألوه أفي الجنة هو أم هو في النار؟ فسألوه فقال: الله أعلم. فقال عبد الله: فهلا وكلت الأخرى كما وكلت الأولى.

ولأن المؤمن حقًا من هو عند الله تعالى مؤمن، وهو الذي يكون من أهل الجنة.

---

(١) مسائل حرب (٣٧١).

(٢) المصدر نفسه (٣٦٦).

ولا يكون كذلك إلا بعد موافاته بالإيمان، ويختم له بذلك، ولا يعلم أحد بما يختم له»[١].

وأما الإسلام فلا يجوز الاستثناء فيه بأن يقول المسلم: إن شاء الله بل يجزم به .

(١) الغنية لطالبي طريق (١ / ١٣٧).

فصل

﴿ الله مقدر الخير والشر ﴾

والله مقدر الخير والشر

وكل ما علمه وقضا ، أو حكم به ، أو أخبر به ، لا تتصور مخالفته ، ولا الخلف فيه، فلا يتعدى شيء أَجلَه.

القضاء لغة: كما قال ابن فارس في مادة (قضى): القاف، والضاد، والحرف المعتل؛ أصل صحيح يدل على إحكام أمر، وإتقانه، وإنفاذه لجهته، قال الله تعالى:﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ (١).

القدر : لغة : وقدرت الشيء تقديرًا وقدرت الشيء أقدره وأقدره قدرا من التقدير(٢).

شرعًا : عند السلف ما سبق به العلم وجرى به القلم، مما هو كائن إلى الأبد، وأنه تعالى قدر مقادير الخلائق وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل، وعلم سبحانه وتعالى – أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه ، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها»(٣).

فالقضاء والقدر أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما، فقد رام هدم البناء ونقضه. ولا فرق بين القضاء والقدر (٤).

القضاء والقدر من أركان الإيمان وأصوله الواجبة .

وكل ما قدره الله – سبحانه وتعالى – أو قضاه من الأحوال ، فهو واقع حتما لازما كما كما حكم به وقضاه وقدره حسب ما سبق به علمه، وجرى به القلم في الكتاب الذي كتبه قبل أن يخلق السماوات، والأرض والخلائق بخمسين ألف عام المذكور في قوله – تعالى –:

(١) فصلت : الآية (١٢).مقاييس اللغة لابن فارس .(٩٩/٥).
(٢) لسان العرب (٥ / ٧٨).
(٣) لوامع الانوار البهية (١ / ٣٤٨).
(٤) النهاية في غريب الحديث (٤ / ٧٨).

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (١).

وأن ما أصاب المسلم لم يكن ليخطئه بالحذر، وما أخطأه من الأسباب لم يكن ليصيبه بالطلب، وأن جميع ما كان في سالف الدهور والأزمان، وما يكون، إلى يوم البعث والنشور بقضاء الله وقدره المقدور، وأنه لا محيص لمخلوق من القدر المقدور الذي خط في اللوح المسطور، وأن الخلائق لو جهدوا أن ينفعوا المرء بما لم يقضه الله تعالى لم يقدروا عليه، ولو جهدوا أن يضروه لم يقضه الله عليه لم يستطيعوا (٢).

لا تتصور مخالفته ، ولا الخُلف فيه، فلا يتعدى شيء أَجلَه.

لا يمكن تصور مخالفة القدر لأن الله سبحانه هو الذي قضى وقدر ، ولكل أجل كتاب فلا يتعداه.

فعن عَبْدُ اللَّهِ : حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ المِصْدُوقُ، قَالَ: « إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ »(٣) .

والايمان بالقضاء والقدر لا يكون إلا باعتقاد أن الله تعالى عليم بكل شيء جملة وتفصيلًا ، وبما في السماوات والأرض لقول الله تعالى : قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾(٤).

وأن الله تعالى كتب مقادير الخلق قبل خلق السموات والأرض ودليل ذلك قوله الله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَ﴾ (٥).

---

(١) الحديد : الآية (٢٢).
(٢) الغنية لطالبي الحق (١ / ١٤٠).
(٣) رواه البخاري (٤ / ١١١).
(٤) الأحزاب : الآية (٤٠).
(٥) الحديد : الآية (٢٢).

ومن السنة عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله ﷺ ، يقول:« كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء»(١).

وأن نؤمن بأن كل كائن وجودًا وعدمًا فهو بمشيئة الله تعالى فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن قال سبحانه : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾(٢).

وأن نؤمن بأن الله تعالى خالق كل شيء قال سبحانه : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (٣).

والمحروق ، والقتيل، والغريق، وأكيل الوحش، والميت بهدم ، ونحوهم، أموات بآجالهم، كمن يموت حتف أنفه .

مناسبة ذكر حكم المحروق والقتيل، والغريق، وأكيل الوحش، والميت بهدم بعد مسألة الإيمان بالقضاء والقدر ، أنهم ماتوا بآجالهم المقدرة لهم من الله سبحانه ، فلا يقطع شيء أجل أحد.

---

(١) رواه مسلم (٤ / ٢٠٤٤).
(٢) الانسان: الآية (٣٠).
(٣) الزمر: الآية (٦٢).

فيجب بوعيد الله تخليد الكافر في النار.

قال ابن مفلح رحمه الله :

« فصل تخليد الكفار في النار بوعيد الله تعالى

يجب بوعيده تخليد الكفار في النار قال ابن عقيل وغيره ويجب بوعده إخراج غيرهم منها، وقيل قد لا يدخل النار بعض العصاة تكرما من الله بالشفاعة، وقيل من مات فاسقا مصرا غير تائب لم نقطع له بالنار ولكن نرجو له ونخاف عليه ذنبه نص عليه «وقال ﷺ في حديث عبادة قال في تارك الصلاة فإن شاء عذبه وإن شاء غفر له» .

وقال ابن الجوزي في تفسيره في قوله تعالى: {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: ٤٨] نعمة عظيمة من وجهين:

أحدهما أنه يقتضي أن كل ميت على ذنب دون الشرك لا نقطع له بالعذاب وإن كان مصرا.

(والثانية) أن تعليقه بالمشيئة فيه نفع للمسلمين وهو أن يكونوا على خوف وطمع » [(١)].

بيان معنى مصطلح الوجوب على الله تعالى :

معنى الوجوب :

تستعمل كلمة (وجب) في اللغة بمعنى سقط، والواجب بمعنى الساقط، ومنه قوله تعالى:

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾[(٢)]. أي سقطت على الأرض.

كما تستعمل بمعنى لزم : « وجب يجب وجوبا وجبة لزم، ثم قال: واستوجبه استحقه، والوجيبة الوظيفة، ووجب يجب وجيبة سقط »[(٣)].

والواجب العقلي : ما لزم صدوره عن الفاعل بحيث لا يتمكن من الترك بناء على استلزامه محالًا [(٤)].

والواجب : مَا لَا يتَصَوَّر فِي الْعقل عَدمه[(٥)] .

---

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية (١ / ١٢٣).
(٢) الحج (٣٦).
(٣) القاموس المحيط (١/ ١٤١).
(٤) التعريفات للجرجاني (٢٥٠).لسان العرب (١٥ / ٢١٥).
(٥) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية (٩٣٠).

والواجب على الله عند المعتزلة :

قائلون بالوجوب بمعنى استحقاق تاركه الذم عقلاً .

أو بمعنى لزوم عليه لما في تركه من الإخلال بالحكمة فرد كل منهما.

أما الأول : فبأن الله تعالى لا يستحق الذم على فعل ولا على ترك لأنه المالك على الإطلاق، وهو الذي لا يسأل عما يفعل فضلا عن استحقاق الذم.

وأما الثاني : فلا نسلم أن شيئا من أفعاله تعالى يكون بحيث يخل تركه بحكمة لجواز أن يكون له في كل فعل أو ترك حكم ومصالح لا تهتدي إليها العقول البشرية، على أنه لا معنى للزوم عليه تعالى إلا عدم التمكن من الترك، وهو ينافي الاختيار الذي ادعوه في أفعاله تعالى، ولهذا أضطر المتأخرون منهم إلى أن معنى الوجوب على الله أنه يفعله البتة ولا يتركه وإن كان الترك جائزًا [١] .

الوعيد : وَعيد مفرد :مصدر وعَدَ .

تهديد وتوعّد بالشَّرّ، إنذار بما سيحدث من دمار ونكبات قال سبحانه : ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾[٢] .

وقول المصنف دلت عليه أدلة أن الله سبحانه أوجب على نفسه أمورًا لكمال صفاته ، ومختارًا لفعله ولا يلزم من كونه تعالى أوجب على نفسه بعض الأمور أن يكون فاعلا بالإيجاب، أي لا اختيار له؛ لأنه سبحانه أوجبه على نفسه باختياره، فإذا شاء الحسن واختاره لم يكن ذلك نافيا للاختيار، فاختياره وإرادته اقتضت التعلق بما كان حسنا، على وجه اللزوم، فكيف لا يكون مختارًا .

منها :

قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[٣]

---

(١) المصدر السابق (٩٣١).
(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة (٣ / ٢٤٦٧).
(٣) النساء: الآية (١٧).

حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: بينا أنا رديف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا أخرة الرحل، فقال: «يا معاذ بن جبل» قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: «يا معاذ» قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: «يا معاذ» قلت: لبيك رسول الله وسعديك، قال: «هل تدري ما حق الله على عباده» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حق الله على عباده أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئا» ثم سار ساعة، ثم قال: «يا معاذ بن جبل» قلت: لبيك رسول الله وسعديك، فقال: «هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حق العباد على الله أن لا يعذبهم»(١).

قال ابن عطية رحمه الله في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ ﴾(٢).

وفي حديث معاذ المتقدم : « والعقيدة: أنه لا يجب على الله تعالى شيء عقلا، لكن إخباره تعالى عن أشياء أوجبها على نفسه يقتضي وجوب تلك الأشياء سمعا، فمن ذلك تخليد الكفار في النار، ومن ذلك قبول إيمان الكافر، والتوبة لا يجب قبولها على الله تعالى عقلا، فأما السمع فظاهره قبول توبة التائب، قال أبو المعالي وغيره: فهذه الظواهر إنما تعطي غلبة ظن لا قطعا على الله بقبول التوبة »(٣) .

قال الحافظ ابن حجر في شرحه للحديث :

« قال القرطبي حق العباد على الله ما وعدهم به من الثواب والجزاء فحق ذلك ووجب بحكم وعده الصدق وقوله الحق الذي لا يجوز عليه الكذب في الخبر ولا الخلف في الوعد فالله سبحانه وتعالى لا يجب عليه شيء بحكم الأمر إذ لا آمر فوقه ولا حكم للعقل لأنه كاشف لا موجب »(٤) .

---

(١) رواه البخاري (٧ / ١٧٠).ومسلم (١ / ٥٨).
(٢) النساء: الآية (١٧).
(٣) تفسير ابن عطية (٢ / ٢٤) .
(٤) فتح الباري لابن حجر (١١ / ٣٣٩).

ونقل عن ابن التين يريد بقوله حق العباد على الله حقا علم من جهة الشرع لا بإيجاب العقل فهو كالواجب في تحقق وقوعه أو هو على جهة المقابلة والمشاكلة كقوله تعالى فيسخرون منهم سخر الله منهم » [(١)].

وقال المعتزلة : يجب على الله تعالى بالقياس على خلقه ، وأن وعيد الله على الذنوب واجب لا يحسن العفو عنه ، بل يجب عليه أن يعاقب المستحق للعقوبة لا محالة[(٢)].

فلا يجب ذلك عقلًا ، لأنه مبني على مسألة وجوب فعل الاصلح عندهم

تقرير عقيدة الحنابلة :

لا يجب على الله تعالى فعل الوعيد في حق أرباب الذنوب والكبائر وأنه إن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم ، وقبل فيهم شفاعة الشافعين ، وهذا مذهب الصحابة والتابعين .

والأدلة على ذلك من طريقين :

الأدلة السمعية :

قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾[(٣)].

وجه الاستدلال :

أن الله تعالى نص على المرتكب للشرك لا يغفر له .

وأن من لم يرتكب الشرك فهو موقوف في المغفرة على المشيئة .

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [(٤)].

وجه الاستدلال : أن الله تعالى هو الغني عن عباده ، وإنما ابتلاهم بالتكليف ليثيب من آمن ويعاقب من كفر وعصى .

---

(١) المصدر نفسه (١٣ / ٣٥٥).
(٢) لينظر شرح الأصول الخمسة (٦٤٤).
(٣) النساء : الآية (٤٨).
(٤) الفتح: الآية (١٤).

وقال سبحانه : ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾[١]. فكله في ملك الله تعالى وهو المتصرف بملكه ما يشاء .

يعني لم تتصرف في غير ملكك، بل إن عذبت عذبت من تملك، وبقوله – تعالى –: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [٢] .

ويقول النبي ﷺ : «إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم، وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم»[٣] .

وليس للعباد حق على الله تعالى إنما بمحض تفضل وعدل وحكمة من الله سبحانه فإن يثيب فإنه من فضله ، وإن يعذب فبمحض عدله .

وبقوله ﷺ في دعاء الهم، والحزن: «اللهم إني عبدك ابن عبدك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك» [٤] .

وغيرها من الأدلة .

وبدلالة العقل :

وهو أنه قد ثبت أن الله تعالى موصوف بأحسن الصفات ، وبما يوجب الحمد والمدحة ومعلوم أن من أوعد بعقاب فإن فعله فَلِحقِه الذي يجوز له استيفاؤه ، ولا يلاوم على استيفاء حقه وأنه عفا وغفر فإنه أولى بالحمد والثناء وهو من المحاسن الممدوحة [٥].

---

(١) المائدة: الآية (١١٨).
(٢) الأنبياء: الآية (٢٣).
(٣) راوه أحمد في المسند (٣٥ / ٤٨٦)
(٤) اخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (٣٠٠).
(٥) الإيضاح في أصول الدين لابن الزاغوني (٥٣٤).

وبوعده إخراج غيره منها بشفاعة أو غيرها ، وتحبط المعاصي بالتوبة للخبر ، والكفر بالإسلام ، والطاعة بالردة المتصلة بالموت .

الوعد :

يستعمل في الخير والشر، يقال: (وعد) يعد بالكسر (وعدا) . قال الفراء: يقال: (وعدته) خيرًا ووعدته شرًا فإذا أسقطوا الخير والشر قالوا في الخير: (الوعد) و (العدة) وفي الشر (الإيعاد) و (الوعيد) فإن أدخلوا الباء في الشر جاءوا بالألف[1].

واصطلاحًا :

الوعد، هو الإخبار بإيصال الخير في المستقبل، والإخلاف، جعل الوعد خلافا، وقيل: هو عدم الوفاء به [2].

المراد بالوعد ، الوعد بالخير، أما الوعد بالشر فيستحب إخلافه وقد يجب ما لم يترتب على ترك إنفاذه مفسدة [3].

وبوعده إخراج غيره منها بشفاعة أو غيرها .

يجوز عندنا أن يخرج الله تعالى غير الكافر من المذنبين ذنوبًا دون الكفر وهم ممن ارتكب الكبائر.

منها أي النار بشفاعة ، قبل استيفاء جزائهم على ما اقترفوه من ذنوب ، ويخرجهم بعد استيفاء أجزيتهم .

لقول النبي ﷺ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يقول الله: من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه، فيخرجون قد امتحشوا وعادوا حمما، فيلقون في نهر الحياة، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل – أو قال: حمية السيل – " وقال النبي ﷺ : «ألم تروا أنها تنبت صفراء ملتوية»[4].

(١) مختار الصحاح (٤٣٢).
(٢) عمدة القاري (١ / ٢٢٠).
(٣) فتح الباري (١ / ٩٠).
(٤) رواه البخاري (٨ / ١١٥).ومسلم (١ / ١٧٢).

خلافًا للمعتزلة في بدعتهم التي قالوا فيها : أنه لا يجوز أن يخرج الله تعالى من النار من دخلها بذنبه وفي انكارهم للشفاعة ، وقد ذكر الصحابة ﷺ خبرًا في بدعتهم .

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أنه خطب، فقال: « إنه سيكون في هذه الأمة قوم يكذبون بالرجم والدجال، ويكذبون بطلوع الشمس من مغربها، ويكذبون بعذاب القبر، ويكذبون بالشفاعة، ويكذبون بقوم يخرجون من النار بعدما امتحشوا »(١) .

وتحبط المعاصي بالتوبة للخبر ، والكفر بالإسلام ، والطاعة بالردة المتصلة بالموت .

قال ابن مفلح رحمه الله :

« وتحبط المعاصي بالتوبة، والكفر بالإسلام، والطاعة بالردة المتصلة بالموت، لا تحبط طاعة بمعصية غير الردة المذكورة. وذكر ابن الجوزي وغيره أن المن والأذى يبطل الصدقة.

وقال ابن عقيل لا تحبط طاعة بمعصية إلا ما ورد في الأحاديث الصحيحة فيوقف الإحباط على الموضع الذي ورد فيه، ولا نقيس عليه » (٢).

قوله للخبر : نقول ورد في هذا الباب أخبار كثيرة منها ما قاله النبي ﷺ النبي قال:« إن رجلا قتل تسعة وتسعين نفسا، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل، فأتاه، فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسا، فهل له من توبة؟ قال: لقد قتل تسعة وتسعين نفسا فليست له توبة؟ قال: فانتضى سيفه فقتله فكمل مائة، ثم إنه مكث ما شاء الله، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل، فقال: إنه قد قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينه وبين التوبة، اخرج من القرية الخبيثة التي أنت بها، إلى قرية كذا وكذا، فاعبد ربك عز وجل فيها، قال: فخرج وعرض له أجله، فاختصم فيه ملائكة العذاب وملائكة الرحمة، قال إبليس: إنه لم يعصني ساعة قط، قالت ملائكة الرحمة: إنه خرج تائبا » (٣).

وفي حديث عائشة – رضي الله عنها – أن النبي ﷺ قال: « فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب، تاب الله عليه» (٤).

---

(١) رواه أحمد في المسند (١ / ٢٩٦).
(٢) الآداب الشرعية (١ / ١٢٤).
(٣) رواه أحمد في المسند (١٨ / ٢١٦).ومسلم (٤ / ٢١١٨).
(٤) رواه البخاري (٣ / ١٧٣).

والطاعة بالردة المتصلة بالموت.

ولاتحبط طاعة بمعصية غير الردة ، ولأنه انقطع عمله ومنه التوبة بعد الموت .

فائدة: قال ابن رجب رحمه الله :

«والآثار عن السلف في حبوط الأعمال بالكبيرة كثيرة جدا يطول استقصاؤها، وأما من زعم أن القول بإحباط الحسنات بالسيئات قول الخوارج والمعتزلة خاصة، فقد أبطل فيما قال ولم يقف على أقوال السلف الصالح في ذلك، نعم المعتزلة والخوارج أبطلوا بالكبيرة الإيمان وخلدوا بها في النار، وهذا هو القول الباطل الذي تفردوا به في ذلك» [1].

ونظير هذا المسلم العاصي لا تحبط طاعته بارتكاب الذنوب .

(١) فتح الباري لابن رجب (١ / ٢٠٠).

فصل

التوبة من كلِّ ذنب واجبة على المكلَّف فورًا ، ولا تقبل ظاهرًا من داعية إلى بدعته ، ولا من ساحر وزنديق ولا ممن تكررت ردته ، أو سبَّ الله تعالى ، أو رسوله ؛ أو ملكًا له .

التوبة من كلِّ ذنب واجبة على المكلَّف فورًا .

التوبة : اعتراف بالذنب والرجوع عنه

(ذ ن ب) : الذنب الإثم والجمع ذنوب وأذنب صار ذا ذنب بمعنى تحمله.

التوبة من كل ذنب كبير أو صغير وفي كل وقت وحين وهي:

١.قلاع عن الذنب .

٢.وندم على فعله.

٣.وعزم أن لا يعود للذنب .

٤.ورد مظلمة إلى مظلوم .

وهي واجبة على الفور لأن الأمر عندنا على الفور ، فلا يجوز تأخير التوبة .

والأدلة على ذلك :

قول الله تعالى : ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[١].

ولا تقبل ظاهرًا من داعية إلى بدعته .

وذكر القاضي، وأصحابه رواية، لا تقبل توبة داعية إلى بدعة مضلة ، اختارها أبو إسحاق بن شاقلا.

وقال في الرعاية : من كفر ببدعته، قبلت توبته، على الأصح[٢].

ومن كفر ببدعة من البدع قبلت توبته ولو كان داعية إلى بدعته كغيره من المرتدين [٣].

---

(١) النور: الآية (٣٠_٣١).
(٢) الإنصاف للمرداوي (٢٧ / ١٣٩) .
(٣) مطالب اولي النهى بشرح غاية المنتهى (٦ / ٢٩٣).والاقناع (٤ / ٣٠٣).

ولا من ساحر وزنديق ولا ممن تكررت ردته .

الساحر : هو الذي يستعين بالشياطين على تحصيل ما لا يقدر عليه .

الزنديق : من أبطن الكفر وأظهر الإسلام .

ولا تقبل توبة ساحر مكفِّر بسحره : كالذي يركب المكنسة فتسير به في الهواء.
لحديث جندب بن عبد الله مرفوعا «حد الساحر ضربة بالسيف»(١).
وجه الاستدلال :
أنه سماه حدًا والحد بعد ثبوته لا يسقط بالتوبة .
والتعليل : لأنه لا طريق لنا في علم إخلاصه في توبته لأنه يضمر السحر ولا يجهر به.

وزنديق.

ولا تقبل ظاهرًا في الدنيا توبة زنديق: وهو المنافق وهو من يظهر الإسلام ويخفي الكفر.
لقوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا ﴾ (٢) .
وقولنا في الدنيا علم منه أنه من مات منهم مخلصًا قبلت توبته في الآخرة لعموم حديث «التائب من الذنب كمن لا ذنب له » (٣).

(ومن أظهر الخير) من نفسه وأبطن الفسق فهو في توبته من فسقه كزنديق في توبته من كفره لأنه لم يظهر منه بالتوبة خلاف ما كان عليه من إظهار الخير فلا تقبل شهادته ونحوها.

ولا ممن تكررت ردته .

لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ (٤).
وقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾(٥).

---

(١) رواه الدارقطني (٤ / ١٢٠).
(٢) البقرة : الآية (١٦٠)..
(٣) رواه ابن ماجه (٥ / ٣٢٠).
(٤) النساء : الآية (١٣٦).
(٥) آل عمران : الآية (٩٠).

والازدياد يقتضي كفرًا متجددًا ولا بد من تقديم الإيمان عليه ولأن تكرار ردته يدل على فساد عقيدته وقلة مبالاته بالإسلام.

أو سبَّ الله تعالى ، أو رسوله ؛ أو ملكًا له .

أي لا تقبل توبة من سب الله تعالى سبًا صريحًا ، أو رسوله ﷺ ، أو ملكًا صريحًا لاستخفافه بالله تعالى ورسوله ﷺ ، ولا يسب الملك إلا وهو جاحد .

وقد دل الاجماع على : أن من سبّ النبيّ ﷺ أن له القتل(١).

وتقبل توبة من سب الصحابة أو بعضهم، وإن كفر بذلك، كمن قذف عائشة، أو غيرها من زوجاته ﷺ ، وكمن ادعى ألوهية علي ﷺ أو نبوته، أو غلَّط جبريل، وقبولها تفضلًا منه تعالى .

يقسم سب الصحابة ﷺ الى نوعين:

الأول . من سب الصحابة على سبيل أنهم ارتدوا بعد رسول الله ﷺ إلا نفرا قليلا لا يبلغون بضعة عشر أو أنهم فسقوا، ، وكذا من أنكر صحبة أبي بكر لقوله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ﴾(٢). واقترن بسببه دعوى أن عليا إله أو نبي وأن جبريل غلط فقد كفر في الكل .

الثاني . سبهم على سبيل الوصف بالبخل أو الجبن أو قلة العلم أو عدم زهد ونحوه .

فهذا لا يكفر ، ويستحق التأديب والتعزير .

وتقبل توبة من سب الصحابة ﷺ ولو كان من النوع الأول .

وقبولها تفضلًا من الله تعالى لأنه لا يجب عليه شيء .

---

(١) الإجماع لابن المنذر (١٢٢).
(٢) التوبة : الآية (٤٠).

والحدود ليست بتوبة ولا كفارة، في حق المُصِرِ ، وتقبل ما لم يعاين الموت .

فائدة في ضابط الكبيرة : « والكبيرة عند أحمد ما فيه حد في الدنيا، أو وعيد في الآخرة ونقل عن ابن عباس » [(١)].

أصل هذه المسألة : هل إقامة الحد يكفر الذنب دون التوبة .

وإقامة الحد ليس توبة من ذنب ، ولا تشترط له في حق من أصرَّ على ذنبه.

وليس من شرط قبول التوبة إقامة الحد؛ لأن رسول الله ﷺ كان يرشد من جاءه مقراً على نفسه بالذنب أن يستر على نفسه ويتوب فيما بينه وبين ربه، كما فعل مع ماعز والغامدية رضي الله عنهما، وقال ﷺ : « من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر الله»[(٢)].

وظاهر كلام المصنف أن غير المصِّر يعتبر الحد له كفارة عن ذنبه .

قال السفاريني رحمه الله :

« والصحيح قول الجمهور إن الكبائر لا تكفر بدون التوبة ، لأنها فرض لازم على العباد، وأما النصوص المتضمنة مغفرة الذنوب وتكفير السيئات للمتقين، فإنه سبحانه لم يبين في الآيات خصال التقوى ولا العمل الصالح، فإن من جملة ذلك التوبة النصوح، وأما من لم يتب فهو ظالم غير متق.

ومما يبين أن الكبائر لا تكفر بدون التوبة منها أو العقوبة عليها – حديث عبادة بن الصامت المار، وهو في الصحيحين " «فمن وفى فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله عليه، فهو إلى الله إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له» "، وفي لفظ لمسلم " «من أتى منكم حدا فأقيم عليه فهو كفارته» " قال الحافظ ابن رجب: قوله " «فعوقب به» " يعم العقوبات الشرعية، وهي الحدود المقدرة أو غير المقدرة كالتعزيرات، ويشمل العقوبات القدرية كالمصائب والأسقام والآلام، فإنه صح عن النبي ﷺأنه قال: ، «لا يصيب المسلم نصب ولا هم ولا حزن حتى الشوكة يشاكها إلا

(١) الانصاف (٧ / ٣٢٠).
(٢) رواه مالك في الموطأ (٢ / ٨٢٥).

كفر الله بها من خطاياه» ، وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ : الحد كفارة لمن أقيم عليه.

وذكر ابن جرير الطبري في هذه المسألة اختلافا بين الناس ورجح أن إقامة الحد بمجرده كفارة، ووهن القول بخلاف ذلك جدا.

قال الحافظ ابن رجب: وقد روي عن سعيد بن المسيب وصفوان بن سليم: أن إقامة الحد ليس بكفارة، ولا بد معه من التوبة، ورجحه طائفة من المتأخرين، منهم البغوي، وأبو عبد الله بن تيمية في تفسيريهما، وهو قول أبي محمد بن حزم، والأول قول مجاهد وزيد بن أسلم، والثوري، والإمام أحمد »(١).

وتقبل ما لم يعاين الموت .

تقبل التوبة ما لم يعاين أي رأى بالعَيْن المجرَّدة، أَبْصَر وتحقَّق بنفسه.

عن أبي موسى، قال: سألت رسول الله ﷺ : « متى تنقطع معرفة العبد من الناس؟ قال: إذا عاين »(٢).

قوله ما لم يعاين يريد إذا عاين ملك الموت أو الملائكة و الله أعلم .

و هو معنى قوله عليه السلام في الحديث الآخر :« إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر »(٣).

أي عند الغرغرة و بلوغ الروح الحلقوم يعاين ما يصير إليه من رحمة أو هوان و لا تنفع حينئذ توبة و لا إيمان كما قال تعالى في محكم البيان ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ﴾(٥).

فالتوبة مبسوطة للعبد حتى يعاين قابض الأرواح و ذلك عند غرغرته بالروح و إنما يغرغر به إذا قطع الوتين فشخص من الصدر إلى الحلقوم فعندها المعاينة و عندها حضور الموت فاعلم

(١) لوامع الانوار البهية (١ / ٣٧٦).
(٢) رواه ابن ماجه (٢ / ٤٤٢).
(٣) رواه أحمد في المسند (١٠ / ٣٠٠).
(٤) غافر : الآية (٨٥) .
(٥) رواه ابن ماجه (٢ / ٤٤٢).

ذلك فيجب على الإنسان أن يتوب قبل المعاينة و الغرغرة و هو معنى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾(١) (٢).

فائدة : الأرواح مخلوقة لله ، ويكفر القائل بقدمها .

الروح مخلوقة وليست قديمة باتفاق الرسل والأنبياء وسلف هذه الأمة وأئمتها قال ابن القيم رحمه الله :

« أجمعت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم على أن روح الإنسان محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة وهذا معلوم بالاضطرار من دين الرسل صلوات الله عليهم كما يعلم بالاضطرار من دينهم أن العالم حادث وأن معاد الأبدان واقع وأن الله تعالى وحده الخالق وكل ما سواه مخلوق له، وقد انطوى عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم وهم القرون المفضلة على ذلك من غير اختلاف بينهم في حدوثها وأنها مخلوقة حتى نبغت نابغة ممن قصر فهمه في الكتاب والسنة فزعم أنها قديمة غير مخلوقة واحتج لذلك أنها من أمر الله وأمر الله غير مخلوق وبأن الله أضافها إليه كما أضاف إليه علمه وكتابه وقدرته وسمعه وبصره ويده»(٣).

وقال تقي الدين بن تيمية رحمه الله: "روح الآدمي مُبدَعَة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السُّنة، وقد حكى إجماع العلماء على أنها مخلوقة غيرُ واحد من أئمة المسلمين، مثل محمَّد بن نصر المروزي (الإمام المشهور الذي هو أعلم أهل زمانه بالإجماع والاختلاف، أو من أعلمهم)، وكذلك أبو إسحاق بن شاقلّا، وأبو محمد بن قتيبة، وكذلك أبو عبدالله بن منده في كتابه "الروح والنفس"، والشيخ أبو يعقوب الخراز، وأبو يعقوب النَّهرجوري، والقاضي أبو يعلى وغيرهم» (٤).

---

(١) النساء : الآية (١٧).
(٢) انظر التذكرة للقرطبي (٥٢)
(٣) الروح لابن القيم (١٤٤).
(٤) مجموع الفتاوى (٤ / ٢١٦)

فصل

﴿ الإيمان بالقضاء والقدر ﴾

ويجب الإيمان بالقضاء والقدر، وأن الله قضى المعاصي والمكروه، وقدر ذلك ، وكتب على خلقه، ولم يأمرهم به، بل نهاهم عن الرضا بذلك، ويجب الإيمان بالرقيب والعتيد .

القضاء : وهو لغة: على إحكام أمر وإتقانه وإنفاذه لجهته[١] .

وقد جاء في القرآن العظيم لمعان متعددة.

منها : بمعنى الأمر، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾[٢] .

ومعناه أنه أمر الله تعالى بعبادته وحده لا شريك له .

وبمعنى الخلق كقوله تعالى :﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾[٣]

وبمعنى الإعلام والإخبار كقوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ﴾[٤].

وبمعنى الموت كقولنا : نزل قضاء الله بساحته .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ﴾[٥].

وبمعنى الإلزام كقولنا : قضى القاضي على فلان كذا ، أي أوجب عليه .

وبمعنى الإرادة كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[٦].

وبمعنى الخلق كقوله تعالى : ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾[٧]. وكقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾[٨] [٩].

واصطلاحًا : إرادة الله الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه فيما لا يزال .

---

(١) لسان العرب (١٥/ ١٨٦) ، وتاج العروس (١٠/ ٢٩٦).
(٢) الاسراء (٢٣).
(٣) فصلت : الآية (١٢).
(٤) الاسراء : الآية (٤).
(٥) سبا : الآية (١٤).
(٦) غافر : الآية (٦٨).
(٧) سبا : الآية (١٨).
(٨) الأعلى : الآية (٣).
(٩) انظر مختصر المعتمد للقاضي ابي يعلى (١٣١).

والقدر: بتحريك الدال وإسكانها، الطاقة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ ﴾ (١). بفتح الدال، وقرئ بإسكانها(٢).

ويأتي القدر بمعنى التضييق، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ (٣).

وعليه فسر قوله –تعالى– عن يونس–عليه السلام–: ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ (٤).

أي: لن نضيق عليه.

وقدرت الشيء أقدره من التقدير، ومنه الحديث: « فإن غم عليكم فاقدروا له» (٥).

أي: قدروا له عدد الشهر حتى تكملوه ثلاثين يومياً، وقيل: قدروا له منازل القمر، فإنه يدلكم على أن الشهر تسع وعشرون أو ثلاثون (٦).

والقدر اصطلاحًا :

قال السفاريني رحمه الله :

« القدر عند السلف ما سبق به العلم وجرى به القلم، مما هو كائن إلى الأبد، وأنه – عز وجل – قدر مقادير الخلائق وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل، وعلم – سبحانه وتعالى – أنها ستقع في أوقات معلومة عنده – تعالى –، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها»(٧).

والقضاء والقدر : المراد به خلق ما سبق في علمه وحكمته أنه يخلقه(٨) .

القضاء والقدر أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنزلة الأساس، وهو القدر، والآخر.

ولا فرق بين القضاء والقدر .

---

(١) البقرة: الآية (٢٣٦).
(٢) تاج العروس (١٣/ ٣٧٠).
(٣) الفجر : الآية (١٦).
(٤) الأنبياء : الآية (٨٧).
(٥) رواه البخاري
(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٤/ ٤١).
(٧) لوامع الانوار البهية (١ / ٣٤٨).
(٨) مختصر المعتمد (١٣١).

وأن الله قضى المعاصي والمكروه، وقدر ذلك ، وكتب على خلقه، ولم يأمرهم به، بل نهاهم عن الرضا بذلك.

ما يفعله العبد من معاصي وذنوب مكتوبة في اللوح المحفوظ ، إلا أن الله تعالى لم يأمر عباده بها لما جاء عن علي قال: « كان رسول الله ﷺ ذات يوم جالسًا وفي يده عود ينكت به، فرفع رأسه فقال: ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلتها من الجنة والنار، قالوا يا رسول الله، فلم العمل، أفلا نتكل؟ قال: لا اعملوا، فكل ميسر لما خلق له، ثم قرأ: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى [الليل:٥-٦] إلى قوله: فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى [الليل:١٠] »(١) .

فإن قيل : أن الله تعالى قد كتب على عباده المعاصي فهل هم مكرهون على فعلها ؟.

قلنا : أن الله تعالى علم في الأزل ما هم عاملون قبل أن يخلقهم، ثم إن الله تعالى قد أعطى لعباده مشيئة وقدرة وإرادة، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾(٢).

فمن عصى الله من عباده فقد عصاه بمشيئته واختياره، وخالف أمره تعالى من عباده بفعله وإرادته .

قال القاضي أبو يعلى رحمه الله مقررًا هذه المسألة :

« الله سبحانه قضى المعاصي والكفر وقدرها بمعنى خلقهما وكتبهما على الخلق وأعلمهم بهما ، وأخبرهم عنهما لا على معنى أنه أمر بههما ، وأخبرهم عنهما لا على معنى أنه أمر بهما ، وحكم بإيجابهما والزامهما وأراد أن يكون الكفر منهم غير آمر به ، ولا نقول أراد لهم الكفر ، لأن هذا يوهم أنه أباحه لهم وجعله حلالًا ، خلافًا للقدرية في قولهم : إن الله تعالى ما قضي المعاصي ولا قدره .

والدلالة عليه ما تقدم من أنه خالق لجميع الحوادث وأن لا خالق سواه ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ﴾(٣) .فبين أن الشر خلق له (٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٦ / ١٧١).ومسلم (٤ / ٢٠٤٠).
(٢) الشمس : الآية (٨).
(٣) الفلق : الآية (٢).
(٤) مختصر المعتمد (١٢٩).

بل نهاهم عن الرضا بذلك.

دليل ذلك آيات كثيرة ومنها قول الله عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(١) .

ويجب الإيمان بالرقيب والعتيد .

الرقيب والعتيد ملكان موكلان بالعبد يجب الإيمان بهما والتصديق بأنهما يحفظان ويكتبان أفعاله لقول الله تعالى:﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (٢).

وهما لا يفارقان العبد في جميع الأحوال والأماكن سواء كان في مكان مكروه كأماكن التخلي ، وحال الجماع بدليل :

قول النبي ﷺ : « إياكم والتعري فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط وحين يفضي الرجل إلى أهله، فاستحيوهم وأكرموهم »(٣) .

وقول النبي ﷺ : « إن الله ينهاكم عن التعري ، فاستحيوا من الملائكة الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند الغائط والجنابة والغسل ، فإذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بثوبه أو بحائط »(٤) .

---

(١) الأعراف : الآية (٣٣).
(٢) ق : الآية (١٦ ـ ١٨).
(٣) رواه الترمذي (٤ / ٤٠٩).
(٤) شرح العمدة لابن تيمية (٤٠١/١) قال تقي الدين رحمه الله رواه ابراهيم الحربي ، ورواه ابن بطة من حديث ابن عمر ، وقد صح ذلك من مراسيل مجاهد.

الباب الرابع

﴿ في بقية السمعيات ﴾

ويجب الإيمان بالساعة وأشراطها ، من الدجال ، ويأجوج ، ومأجوج ، ونزول عيسى ، ونحو ذلك ، وبالصعقة ، والحشر ، والنشر ؛ لكل ذي روح ، وبإحياء الميت في قبره وضغطته فيه ، ورد روحه إليه .

المراد **بالسمعيات :**

أي : ما كان طريق العلم به السمع الوارد في الكتاب أو السنة والآثار مما ليس للعقل فيه مجال .

فكل ما جاء في القرآن وصح في السنة والاخبار والاثار من اشراط الساعة واخبار الدجال وياجوج ومأجوج فطريق العلم به الأدلة من نصوص الوحيين .

والعقليات : ماكان طريق العلم به العقل.

ويجب الإيمان بالساعة وأشرطها

المراد **بالساعة** : لغة : جزء من أجزاء الليل والنهار، والجمع ساعات وساع.

وتصغيره سويعة. والليل والنهار معا أربع وعشرون ساعة.

والساعة: الوقت الحاضر. وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾(1) .

؛ يعني بالساعة الوقت الذي تقوم فيه القيامة فلذلك ترك أن يعرف أي ساعة هي، فإن سميت القيامة ساعة فعلى هذا، والساعة: القيامة.

وقال الزجاج : الساعة اسم للوقت الذي تصعق فيه العباد والوقت الذي يبعثون فيه وتقوم فيه القيامة، سميت ساعة لأنها تفجأ الناس في ساعة فيموت الخلق كلهم عند الصيحة الأولى التي ذكرها الله عز وجل فقال: إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون(2).

---

(1) الروم : الآية (٥٥).
(2) لسان العرب (٨ / ١٦٩).

واصطلاحًا :

قال ابن الأثير : «وسُمِّيت الساعة: لأنها تفاجئ الناس في ساعة؛ فيموت الخلق كلهم بصيحة واحدة »[1] .

أشراطها :

جمع شرط : وهو في اللغة : العلامة . أي علامات دنو الساعة يوم القيامة .

واصطلاحًا : الأحداث التي أخبر عنها الله ورسوله ﷺ بوقوعها في آخر الزمان، تسبق الساعة وتدل على قدومها.

إما على قربها، وإما على حصولها، فمن الأمثلة على قربها: الدَّجَّال، ونزول عيسى، ويأجوج ومأجوج، والخسف، ومن الأمثلة على حصولها: الدُّخَّان، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة والنار التي تحشر الناس[2] .

دل على ذلك قول سبحانه : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾[3].

الساعة: جزء من أجزاء الزمان، ويُعَبَّر به عن القيامة، قال تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ﴾[5].

ومن أشراطها التي ذكرها المصنف :

من الدجال ، ويأجوج ، ومأجوج ، ونزول عيسى ، ونحو ذلك ، وبالصعقة ، والحشر ، والنشر ؛ لكل ذي روح ، وغيرها .

---

(١) غريب الحديث لابن الأثير (٢ / ٤٦٠).
(٢) فتح الباري لابن حجر (١٣ / ٣٥٢).
(٣) محمد : الآية (١٨).
(٤) القمر : الآية (١).
(٥) الأعراف : الآية (١٨٧).

من الدجال، ويأجوج، ومأجوج، ونزول عيسى، ونحو ذلك .

من علامات الساعة الكبرى .خروج الدجال .

الدجل : أَي خدّاع وأصل الدجل الْخَلْط وَبِه سمي مسيح الضَّلَالَة لخطة الحقّ بِالْبَاطِلِ.

وقد جاءت أحاديثه في الصحيحين(١).

فتنة الدجال هي إحدى الفتن العظيمة التي يمتحن بها المسلمون ، وأن الله سبحانه يعطيه خوارق يفتن الناس بها ، ليصدقوه ويتبعوه ، فهو يسير في الأرض يدعو الناس فمن الأقوام من يكفر به ولا يؤمن فتصبح أراضيهم جرداء ممحلة ، لا تخرج نباتها وليس فيها من الخيرات ، ويمرّ بقوم آخرين فيؤمنون به ويتبعونه فتنبت أراضيهم وتكثر دوابهم وزروعهم .

وبدء ظهوره من أصبهان ، من حارة منها يقال لها اليهودية ، وينصره من أهلها سبعون ألف يهودي ، عليهم الأسلحة والتيجان ، وهي الطيالسة الخضراء ، وكذلك ينصره سبعون ألفاً من التتار ، وخلق من أهل خراسان .

قال رسول ﷺ : «يتبع الدجال من يهود أصبهان، سبعون ألفا عليهم الطيالسة»(٢).

فيظهر أولاً في صورة ملك من الملوك الجبابرة ، ثم يدعي النبوة ، ثم يدعي الربوبية .

فيتبعه على ذلك الجهلة من بني آدم ، والطغام من الرعاعِ والعوام ، ويخالفه ويَرُدُّ عليه مَن هَدَى الله مِن عباده الصالحين وحزب الله المتقين .

يأخذ البلاد بلداً بلداً ، وحصناً حصناً ، وإقليماً إقليماً ، وكورة كورة ، ولا يبقى بلد من البلاد إلا وطئه بخيله ورجله غير مكة والمدينة ، ومدة مقامه في الأرض أربعون يوماً يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيام الناس هذه ، ومعدل ذلك سنة وشهران ونصف شهر .

وقد خلق الله تعالى على يديه خوارق كثيرة يضل بها من يشاء من خلقه ، ويثبت معها المؤمنون فيزدادون بها إيماناً مع إيمانهم ، وهدى إلى هداهم ،ويكون نزول عيسى بن مريم مسيح الهدى في أيام المسيح الدجال مسيح الضلالة ، على المنارة الشرقية بدمشق ، فيجتمع

---

(١) رواه مسلم (٤ / ٢٢٦٦).
(٢) الفائق في غريب الحديث والأثر (١ / ٤١٢).

عليه المؤمنون ويلتف به عباد الله المتقون ، فيسير بهم المسيح عيسى بن مريم قاصداً نحو الدجال ، وقد توجه نحو بيت المقدس ، فيدركهم عند عقبة أفيق ، فينهزم منه الدجال ، فيلحقه عند مدينة باب لد ، فيقتله بحربته وهو داخل إليها ، ويقول إن لي فيك ضربة لن تفوتني ، وإذا واجهه الدجال ينماع كما يذوب الملح في الماء ، فيتداركه فيقتله بالحربة بباب لدّ ، فتكون وفاته هناك لعنه الله ، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح من غير وجه[١].

وقد جاء وصفه في أحاديث النبي ﷺ :

١. عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « بينما أنا نائم أطوف بالكعبة، فإذا رجل آدم، سبط الشعر، يهادى بين رجلين، ينطف رأسه ماء، أو يهراق رأسه ماء، فقلت: من هذا؟ قالوا: ابن مريم، فذهبت ألتفت، فإذا رجل أحمر جسيم، جعد الرأس، أعور عينه اليمنى، كأن عينه عنبة طافية، قلت: من هذا؟ قالوا: هذا الدجال، وأقرب الناس به، شبها ابن قطن »[٢] .

٢. وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ ذكر الدجال بين ظهرانى الناس فقال: « إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور – وأشار بيده إلى عينه – وإن المسيح الدجال أعور العين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية »[٣].

٣. وروى النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: « ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غَدَاةٍ فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِى طَائِفَةِ النَّخْلِ" فقال فى وصف الدجال: « إنه شاب قطط، عينه طافئة، كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن »[٤].

٤. وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: « إني قد حدثتكم، عن الدجال حتى خشيت أن لا تعقلوا، إن مسيح الدجال رجل قصير أفحج، جعد أعور، مطموس العين، ليس بناتئة ولا جحراء، فإن ألبس عليكم، فاعلموا أن ربكم ليس بأعور » [٥].

(١) النهاية في الفتن والملاحم (١ / ٨٨). انظر لوامع الانوار البهية للسفاريني (٢ / ٨٦) وما بعدها .
(٢) رواه البخاري (٤ / ١٦٧).
(٣) المصدر نفسه (٤ / ١٦٦).
(٤) رواه مسلم (٤ / ٢٢٥٠).
(٥) رواه أبو داود (٦ / ٣٧٤).

٥. وفى حديث أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " وأما مسيح الضلالة، فإنه أعور العين، أجلى الجبهة، عريض النحر، فيه دفأ – إنحناء – »[١].

٦. وفى حديث حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « الدجال أعور العين اليسرى، جفال الشعر، معه جنة ونار، فناره جنة وجنته نار »[٢] .

٧. وفى حديث أنس ﷺ : قال النبي ﷺ : « ما بعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وإن بين عينيه مكتوب كافر »[٣].

ويأجوج ومأجوج.

يأجوج : من أ ج ج: (الأجيج) تلهب النار وقد (أجت) تؤج أجيجا و (أججها) غيرها (فتأججت) و (ائتجت) وماء (أجاج) أي ملح مر وقد (أج) الماء يؤج (أجوجا) بالضم، و (يأجوج) و (مأجوج) يهمز ويلين[٤].

يأجوج ومأجوج: هما قبيلتان ذكرُهما الله تعالى في القرآن– قالوا: إنهما من أولاد يافث بن نوح عليه السلام كانوا يسكنون في الطرف الشرقيّ الشمالي من الأرض، أجسادُهم عظيمةٌ وأخلاقهم سباعيةٌ فكانوا يدخلون البلاد فيفسدون، فذو القرنين الملِك سدّ طريقهم فحبسهم الله سبحانه[٥].

والمراد أن خروجهم ثابت بالكتاب والسنة .

دليل ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾[٦].

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: « لما كان ليلة أسري برسول الله ﷺ لقي إبراهيم وموسى وعيسى – عليهم السلام – فتذاكروا الساعة إلى أن قال: فردوا الحديث إلى عيسى، فذكر

(١) رواه أحمد في المسند (١٣ / ٢٨٣).
(٢) رواه مسلم (٤ / ٢٢٤٨).
(٣) رواه البخاري (٩ / ٦٠) .
(٤) مختار الصحاح (١٣)
(٥) التعريفات للجرجاني (٣٤٤).
(٦) الكهف : الآية (٩٤).

قتل الدجال ثم قال: ثم يرجع الناس إلى بلادهم فيستقبلهم يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون لا يمرون بماء إلا شربوه ولا بشيء إلا أفسدوه.

يجأرون إلي فأدعو الله فيميتهم فتجوى الأرض من ريحهم، فيجأرون إلي فأدعو الله فيرسل السماء بالماء فيحملهم فيقذف بأجسامهم في البحر»(١).

وقال ﷺ : « لن تكون -أو لن تقوم- حتى يكون قبلها عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، والدجال، وعيسى ابن مريم، والدخان، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك تخرج نار من اليمن من قعر عدن، تسوق الناس إلى المحشر » (٢).

وقد ذكر الإمام ابن عبد البر الإجماع على أنهم من ولد يافث بن نوح عليه السلام «وأن النبي ﷺ سئل عن يأجوج ومأجوج هل بلغتهم دعوتك فقال " جزت ليلة أسري بي فدعوتهم فلم يجيبوا»(٣).

ويكون خروجهم من وراء السد على الناس حق ثابت لوروده في الذكر وثبوته عن سيد البشر ولم يحله عقل فوجب اعتقاده .

لقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴾(٤).

وعن زينب بنت جحش، رضي الله عنهن أن النبي ﷺ ، دخل عليها فزعا يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه» وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش فقلت يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث» (٥).

إشارة بذلك إلى أن الذي فتحوه من السد قليلا وهم مع ذلك لم يلهمهم الله تعالى أن يقولوا عند نقبه وحفره غدا نفتحه إن شاء الله فإذا قالوها خرجوا.

---

(١) رواه ابن ابي شيبة في المصنف (١/ ٢٠٥).
(٢) رواه أبو داود (٦ / ٣٩٦).
(٣) لوامع الانوار (٢ / ١١٥) .
(٤) الأنبياء : الآية (٩٦).
(٥) رواه البخاري (٤ / ١٣٨).ومسلم (٤ / ٢٢٠٧).

وإذا خرجوا أهلكوا من أمامهم .

عن حذيفة بن اليمان قال: سألت رسول الله ﷺ ، عن يأجوج ومأجوج؟ قال: «يأجوج أمة، ومأجوج أمة، كل أمة أربعمائة ألف أمة، لا يموت الرجل حتى ينظر إلى ألف ذكر بين يديه من صلبه، كل واحد قد حمل السلاح» قلت: يا رسول الله، صفهم لنا؟ قال: «هم ثلاثة أصناف: صنف منهم أمثال الأرز» قلت: وما الأرز؟ قال: «شجر بالشام طول الشجرة عشرون ومائة ذراع في السماء» ، فقال رسول الله ﷺ : «هؤلاء الذين لا يقوم لهم حيل ولا حديد، وصنف منهم يفترش بأذنه، ويلتحف بالأخرى، لا يمرون بفيل ولا وحش ولا جمل ولا خنزير إلا أكلوه، ومن مات منهم أكلوه، مقدمتهم بالشام، وساقتهم بخراسان، يشربون أنهار المشرق، وبحيرة طبرية»(١).

وجاء في وصفهم ، عن ابن مسعود رضي الله عنه :

وذكر بعضهم في اعدادهم .

عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال: «إن يأجوج ومأجوج أقل ما يترك أحدهم لصلبه ألفا من الذرية، وإن من ورائهم أمما ثلاثة: منسك، وتأويل، وتاريس، لا يعلم عددهم إلا الله»(٢) .

وقال ﷺ: « إن يأجوج ومأجوج لهم نساء يجامعون ما شاؤوا، وشجر يلقحون ما شاؤوا، فلا يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفا فصاعدا » (٣).

سبب منعهم من الخروج فسادهم وأذاهم لغيرهم :

قد ذكر الله تعالى أن ذو القرنين بنى الردم الذي سد به على يأجوج ومأجوج سبب ذلك فسادهم وجرمهم وجعلوا له مقابل ذلك أجرًا قال تعالى : ﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۞ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۞ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰ

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٤ /١٥٥).
(٢) رواه ابن حبان (١٥ / ٢٤٠).
(٣) رواه النسائي في الكبرى (١٣ / ٢٨١).

إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۞ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾[1].

وبعد أن يأذن الله سبحانه وتعالى بخروجهم في آخر الزمان ويفتحون الردم قال سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾[2].

وقال سيدنا رسول الله ﷺ في ذلك وهلاكهم : « إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدا، فيعودون إليه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم، وأراد الله أن يبعثهم على الناس، حفروا، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدا، إن شاء الله، ويستثني، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس، فينشفون المياه، ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء، فترجع وعليها كهيئة الدم، فيقولون: قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء، فيبعث الله عليهم نغفا في أقفائهم فيقتلهم بها " فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفس محمد بيده، إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكرا من لحومهم ودمائهم »[3].

ونزول عيسى .

ومن علامات الساعة الكبرى نزول عيسى عليه السلام ، وهو ثابت بالكتاب بدليل قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [4].

قال: قال رسول الله ﷺ من حديث أبي هريرة ﷺ : «والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها»، ثم يقول أبو هريرة: " واقرءوا إن شئتم:﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته، ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا﴾[النساء: ١٥٩] »[5].

---

(١) الكهف : الآية (٩٤ _ ٩٥_٩٦).
(٢) الآية (٩٧).
(٣) رواه أحمد في المسند (١٦ / ٣٦٩ _ ٣٧٩).وابن ماجه (٥ / ٢٠٧).
(٤) النساء : الآية (١٥٩).
(٥) رواه البخاري (٤ / ١٦٨).

ولحديث النبي ﷺ : « ثم يجيء عيسى ابن مريم من قبل المغرب، مصدقا بمحمد، وعلى ملته، فيقتل الدجال، ثم إنما هو قيام الساعة » (١). وغيرها من الأحاديث الصحيحة .

وبالصعقة :

والصعقة : أصلها: ص ع ق: (الصاعقة) نار تسقط من السماء في رعد شديد يقال: صعقتهم السماء من باب قطع إذا ألقت عليهم الصاعقة. و (الصاعقة) أيضا صيحة العذاب. و (صعق) الرجل بالكسر (صعقا) غشي عليه و (تصعاقا) أيضا. وقوله تعالى: ﴿ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ ﴾ [الزمر: ٦٨] أي مات(٢) .

روي أن النفخات ثلاث: الأولى نفخة الصور للفزع، والثانية نفخة الصعق للموت، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين للبعث ، وهذه النفخة الأولى، المعنى: إذا نفخ في الصور، مات من شدة النفخة جميع الخلائق.

{إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ} من ثبت عليه من الملائكة، ثم يموتون بعد ذلك، وقيل الاستثناء: فيمن قضى الله من ملائكته وأنبيائه وشهداء عبيده أن ينالهم نوع الفزع في الصور.

قال ﷺ : « ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الأرض، إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى، فأكون أول من رفع رأسه، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أكان ممن استثنى الله، أم رفع رأسه قبلي؟ ومن قال: أنا خير من يونس بن متَّى، فقد كذب»(٣) .

وأول النفخات نفخة الفزع ، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾(٤).

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣٣ / ٣٢٦).
(٢) مختار الصحاح (١٧٦).
(٣) فتح الرحمن في تفسير القرآن (٥ / ١٦٥).
(٤) النمل : الآية (٨٧).

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ﴾ قال ابن عباس: هذه النفخة الأولى[1].

الصور : هو قرن ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام.

فهذه النّفخة هي أولى النّفخات في الصّور، وتأتي هذه النّفخة بعد ظهور علامات السّاعة الكبرى، حيث يأمر الله تعالى إسرافيل أن يبدأ بها، وتفزع كلّ الخلائق من هذه النّفخة، وقد استثنى الله تعالى عدداً من عباده من هذه النفخة وقيل هم الأنبياء والشّهداء.

النفخة الثانية :

نفخة الصعق، وفيها هلاك كل شيء، قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾[2]. وقد فسر الصعق بالموت .

وفي الحديث عن ابي هريرة ﷺ : «ثم يأمر الله إسرافيل فينفخ نفخة الصعق فيصعق أهل السماوات والأرض إلا من شاء الله فيقول الله وهو أعلم: فمن بقي؟ فيقول: أي رب بقيت أنت الحي القيوم الذي لا يموت، وبقيت حملة العرش، وبقي جبريل، وميكائيل، وبقيت أنا، فيقول الله تعالى: فليمت جبريل وميكائيل فيموتان، ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار فيقول قد مات جبريل وميكائيل، فيقول الله تعالى فليمت حملة العرش، فيموتون، ويأمر الله العرش أن يقبض الصور من إسرافيل، فيموت ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار فيقول: ربي قد مات حملة العرش، فيقول وهو أعلم: فمن بقي؟ فيقول: أنت الحي الذي لا يموت، وبقيت أنا، فيقول: أنت خلق من خلقي خلقتك لما رأيت فمت، فيموت، فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار طوى السماء والأرض كطي السجل للكتب، وقال:

أنا الجبار، ﴿ لمن الملك اليوم﴾ ثلاث مرات، فلم يجبه أحد، ثم يقول لنفسه ﴿لله الواحد القهار﴾ [3].

---

(١) زاد المسير (٣ / ٣٧٢).
(٢) الآية (٦٨).
(٣) شرح أصول اعتقاد السنة (٢ / ٢٤٧).

الثالثة : نفخة البعث والقيام :

بعد نفخة الصّعق يقوم الملك بالنّفخ في الصور بنفخ البعث والقيام، حيث تردّ الأرواح إلى أجسادها وتنبت من الأرض كما ينبت البقل، ثمّ يساق الخلق جميعاً و يحشرون إلى أرض المحشر بعدما تتبدّل الأرض غير الأرض والسّموات، فينتظرون العرض والحساب أمام الله تعالى فإمّا جنّة أو نار.

قال سبحانه : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ (١).
وقوله: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾(٢) وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ - فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ - عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾(٣) .قال الكلبي وغيره: هي نفخة البعث، والناقور فاعول من النقر، وقوله تعالى: ﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ - يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾(٤) . الآية، قال المفسرون:
المنادي هو إسرافيل عليه السلام، ينفخ في الصور وينادي أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، واللحوم المتمزقة، والشعور المتفرقة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء(٥).

والحشر .

و(حَشَر) الناس جمعهم وبابه ضرب ونصر، ومنه (يومُ الحَشْر) وقال عكرمة في قوله تعالى: {وإذا الوحوش حُشرت} حشرها موتها. و(المِحْشِرُ) بكسر الشين موضع الحشر. والحاشِرُ اسم من أسماء النبي عليه الصلاة والسلام. قال عليه الصلاة والسلام: "لي خمسة أسماء: أنا محمد وأحمد والماحي يمحو الله بي الكفر والحاشر أحشر الناس على قدمي والعاقب(٦) .

وهي آخر علامات الساعة ، وأعظمها .

---

(١) يس : الآية (٥١).
(٢) الزمر : الآية (٦٨).
(٣) المدثر : الآية (٨-١٠).
(٤) ق : الآية (٤١-٤٢).
(٥) انظر لوامع الانوار البهية (٢ / ١٦١_١٦٣).مختصرًا
(٦) مختار الصحاح (٧٣).

وهي حشر للناس من المشرق إلى المغرب ومن اليمن إلى مهاجر إبراهيم عليه السلام وهو أرض الشام .

. عن حذيفة بن أسيد الغفاري، قال: اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: «ما تذاكرون؟» قالوا: نذكر الساعة، قال: « إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات – فذكر – الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم ﷺ ، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم » [١].

وقد ثبت الحشر في الكتاب والسنة .

ذكر ما جاء من الروايات التي تبين مكان خروج النار .

أولها . حديث حذيفة بن اسيد الغفاري : » وآخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم » [٢].

وفي لفظ آخر : « ونارٌ تخرج من قعرة عدن ترحل الناس »[٣].

ثانيها . من حديث ابن عمر رضي الله عنهما؛ قال قال رسول الله ﷺ : « ستخرج نار من حضرموت أو من بحر حضرموت، قبل يوم ا لقيامة، تحشر الناس »[٤].

وثالثها . عن أنس ﷺ أن عبد الله بن سلام لما اسلم سأل النبي ﷺ عن مسائل، ومنها : ما أول أشراط السَّاعة ؟ فقال النبي ﷺ : « أما أول أشراط السَّاعة؛ فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب » [٥].

---

(١) رواه مسلم (٤ / ٢٢٢٥).
(٢) المصدر نفسه .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) رواه أحمد في المسند (٩ / ٢٧٦).والترمذي (٤ / ٦٨).
(٥) رواه البخاري (٤ / ١٣٢).

صفة الحشر :

تحشر النار الناس على ثلاث طوائف :

طائفة : راغبون راهبون .

وطائفة : اثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير .

وطائفة : تحشرهم وتسوقهم سوقًا ، وتسيرهم بألسنتها إلى أرض المحشر .

وقد بوب البخاري بابًا في صحيحه باب كيف الحشر وأورد فيه حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « يحشر الناس على ثلاث طواف راغبين وراهبين، وأثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، ويَحشُر بقيتَهم النار؛ تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أسوا » (1).

وجاء عن حذيفة بن أسيد ﷺ ؛ قال : قام أبو ذر ﷺ فقال : يا بني غفار !قولوا ولا تختلفوا ؛ فإن الصادق المصدوق ﷺ حدثني :

« أن الناس يحشرون على ثلاثة أفواج: فوج راكبين طاعمين كاسين، وفوج يمشون ويسعون، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم إلى النار " فقال قائل منهم: هذان قد عرفناهما، فما بال الذين يمشون ويسعون؟ قال: "يلقي الله الآفة على الظهر حتى لا يبقى ظهر، حتى إن الرجل ليكون له الحديقة المعجبة، فيعطيها بالشارف ذات القتب، فلا يقدر عليه »(2).

(1) رواه البخاري (٨ / ١٠٩).ومسلم (٤ / ٢١٩٥).
(2) المصدر نفسه .

ما جاء في بيان أرض المحشر :

وردت أحاديث كثيرة تبين أن أرض المحشر هي أرض الشام .

منها ما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما في ذكر خروج النار، وفيه : قال : قلنا : يا رسول الله ! فماذا تأمرنا ؟ قال : « عليكم بالشام »[١].

وفي الحديث : قال ابن أبي بكير : ..... ثم قال: « هاهنا تحشرون. هاهنا تحشرون. هاهنا تحشرون.، ثلاثا، ركبانا ومشاة، وعلى وجوهكم توفون يوم القيامة سبعين أمة أنتم آخر الأمم وأكرمها على الله تأتون يوم القيامة وعلى أفواهكم الفدام. أول ما يعرب عن أحدكم فخذه " قال ابن أبي بكير: فأشار بيده إلى الشام فقال: " إلى هاهنا تحشرون » [٢].

وفي رواية عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده؛ قال : قلت : يا رسول الله ! أين تأمرني ؟ قال : « ها هنا ونحا بيده نحو الشام »[٣].

ومما ذكر العلماء أن السبب في كون أرض المحشر هي أرض الشام لما ورد فيها من فضائلها ، والترغيب في سكناها .

قال المناوي : « الشام أرض المحشر والمنشر : أي البقعة التي يجمع الناس فيها إلى الحساب وينشرون من قبورهم ثم يساقون إليها ، وخصت بذلك لأنها الأرض التي قال الله فيها * (باركنا فيها للعالمين) * وأكثر الأنبياء بعثوا منها فانتشرت في العالمين شرائعهم فناسب كونها أرض المحشر والمنشر »[٤].

---

(١) رواه أحمد في المسند (٨ / ١٥٣).والترمذي (٤ / ٦٨).
(٢) المصدر نفسه (٣٣ / ٢١٤).
(٣) رواه الترمذي (٤ / ٥٥).
(٤) فيض القدير للمناوي (٤ / ٢٢٥).

من الأسباب التي جعلت أرض الشام هي أرض المحشر

ما جاء في فضل أرض الشام والترغيب في سكناه من أحاديث كثيرة منها :

والسبب في كون أرض الشام هي أرض المحشر أن الأمن والإيمان حين تقع الفتن في آخر الزمان يكون الشام .

وقد جاء في فضله والترغيب في سكناه أحاديث صحيحة :

منها : عن عبد الله بن الحارث، قال: سمعت عمرو بن العاص يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « بينا أنا في منامي، أتتني الملائكة فحملت عمود الكتاب من تحت وسادتي، فعمدت به إلى الشام، ألا فالإيمان حيث تقع الفتن بالشام »(١).

وقال رسول الله ﷺ: « سيصير الأمر إلى أن تكونوا جنودًا مجنَّدة: جندٌ بالشام، وجندٌ باليمن ، وجندٌ بالعراق . قال ابن حوالة : خِرْ لي يا رسول الله إن أدركت ذلك فقال : « عليك بالشام؛ فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده، فأما إذا أبيتهم؛ فعليكم بيَمنِكم، واسقوا من غدركم، فإن الله توكَّل لي بالشام وأهله »(٢).

وقد دعا رسول الله ﷺ للشام بالبركة ؛ كما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما؛ قال : قال النبي ﷺ : « اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا » (٣).

وقد تقدم أن نزول عيسى عليه السلام في آخر الزَّمان يكون بالشام، وبه يكون اجتماع المؤمنين لقتال الدَّجَّال .

---

(١) رواه احمد في المسند (٢٩ / ٣١٠).
(٢) رواه أبو داود (٤ / ١٤٠).
(٣) رواه البخاري (٢ / ٣٣).

هذا الحشر المذكور في الأحاديث يكون في الدُّنيا، وليس المراد به حشر الناس بعد البعث من القبور، قال القرطبي : « باب الحشر معناه الجمع، وهو على أربعة أوجه :

حشران في الدُّنيا، وحشران في الآخرة .

أما حشر الدُّنيا :

أحدهما : أما الذي في الدنيا فقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾[1].

قال الزهري: كانوا من سبط لم يصيبهم جلاء، وكان الله عز وجل قد كتب عليهم الجلاء فلولا ذلك لعذبهم في الدنيا، وكان أول حشر حشروا في الدنيا إلى الشام.

«قال ابن عباس: من شك أن الحشر في الشام فليقرأ هذه الآية وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم: أخرجوا قالوا أي أين؟ قال: إلى أرض المحشر» قال قتادة: هذا أول الحشر.

الثاني: «عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: يحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين وراهبين واثنان على بعير وثلاثة والثاني : حشر الناس قبل القيامة إلى الشام، وهي النار المذكورة هنا في الأحاديث »[2].

وهذا الحشر الذي على العلماء ونقل الإجماع عليه .

(١) الحشر : الآية (٢).
(٢) التذكرة وأحوال الآخرة للقرطبي (١ / ٢٢٩).

لكل ذي روح

و كل ذي روح مما خلق الله في الأرض .

وبإحياء الميت في قبره

من جملة الاعتقاد بما ورد في النصوص بإحياء الميت في قبره .

دليل ذلك قول النبي ﷺ : «إذا قعد المؤمن في قبره أتي ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فذلك قوله " يثبت الله " الآية»[١].

وضغطته فيه .

والمقصود ضغطة القبر

سبب هذه الضغطة أنه ما من أحد إلا وقد ألم بخطيئة ما وإن كان صالحا فجعلت هذه الضغطة جزاء لها ثم تدركه الرحمة ولذلك ضغط سعد بن معاذ رضي الله عنه.

ما ورد في ضغطة القبر وظلمته لكل واحد من أحاديث منها :

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ « إنَّ للقبر ضغطة لو نجا أحدٌ منها لنجا سعد بن معاذ »[٢].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « لو أن أحدًا نجا من عذاب القبر لنجا سعد بن معاذ ، ثم قال بأصابعه الثلاث فجمعها، كأنه يقللها، ثم قال: «لقد ضُغط ثم عوفي »[٣].

قال السفاريني رحمه الله تعالى :

« وحاصل ذلك أن ما أخبر به الصادق المصدوق وجب الإيمان به وقد تواتر عنه ذلك كما قدمنا ولم تحله العقول وحيث كان ممكنا فمعارضة صحيح الأخبار إلحاد، وهو كما أنه

(١) رواه البخاري (٢ / ٩٢).
(٢) رواه أحمد في المسند (٤٠ / ٣٢٧).
(٣) رواه البيهقي، إثبات عذاب القبر (٨٣)

مقتضى السنة الصحيحة متفق عليه بين أهل السنة قال المروذي قال أبو عبد الله الإمام أحمد رضي الله عنه: عذاب القبر حق لا ينكره إلا ضال مضل. وقال حنبل: قلت لأبي عبد الله في عذاب القبر فقال هذه أحاديث صحاح نؤمن بها ونقر بها، كلما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم إسناد جيد أقررنا به، إذا لم نقر بما جاء به الرسول ودفعناه ورددناه رددنا على الله أمره، قال الله تعالى {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا} [الحشر: ٧] . قلت وعذاب القبر حق؟ قال: حق يعذبون في القبور. قال وسمعت أبا عبد الله يقول: نؤمن بعذاب القبر وبمنكر ونكير (وأن العبد يسأل في قبره فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة في القبر. وقال أحمد بن القاسم: قلت يا أبا عبد الله نقر بمنكر ونكير) . وما يروى في عذاب القبر؟ فقال سبحان الله نعم نقر بذلك، قلت هذه اللفظة نقول منكر ونكير هكذا أو نقول ملكين؟ قال: منكر ونكير.

قلت يقولون ليس في حديث منكر ونكير؟ قال هو هكذا – يعني أنهما منكر ونكير.

قال الإمام ابن القيم في كتابه الروح: وأما أئمة أهل البدع والضلال فقال أبو الهذيل وبشر المريسي: من خرج عن سنة الإيمان فإنه يعذب بين النفختين، قالا والمسألة في القبر إنما تقع في ذلك الوقت. قال ابن القيم: وأثبت الجبائي وابنه والبلخي عذاب القبر لكنهم نفوه عن المؤمنين وأثبتوه لأصحاب التخليد من الكفار والفساق على أصولهم وبالله التوفيق» [1].

ورد روحه إليه، وسؤال منكر ونكير .

ومن جملة اعتقاد أهل السنة والجماعة الإيمان الواجب بأن الميت يرد الله تعالى روحه إليه ، ويمتحن من الملكين منكر ونكير وهو حق .

واستدل عليه بقوله تعالى ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [2].

---

(١) لوامع الأنوار (٢ / ٢٣).

(٢) إبراهيم : الآية (٢٧)

وفي قول النبي ﷺ «عن البراء بن عازب رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: « إذا أقعد المؤمن في قبره أتي، ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فذلك قوله: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ (١). »(٢) .

وحديث «يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك؟ فيقول ربي الله، فيقولان له ما دينك؟ فيقول ديني الإسلام، فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول هو رسول الله ﷺ ، فيقولان له وما يدريك؟ فيقول قرأت كتاب الله تعالى فآمنت به وصدقت، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة وألبسوه من الجنة، ويفسح له فيه مد بصره» " «وقال في الكافر فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك؟ فيقول هاه هاه لا أدري – إلى أن قال فينادي مناد من السماء أن كذب عبدي فأفرشوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار قال فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه»(٣) .

وفي حديث أنس بن مالك ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل – لمحمد ﷺ – فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال له انظر إلى مقعدك من النار وقد أبدلك الله مقعدًا من الجنة، قال فيراهما جميعا – يعني المقعدين – قال قتادة ذكر لنا أنه يفسح له في قبره – وأما المنافق والكافر فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال لا دريت ولا تليت ويضرب بمطراق من حديد ضربة فيصيح صيحة يسمعه من يليه من غير الثقلين» (٤) .

---

(١) الآية (٢٧)
(٢) رواه البخاري (٢ / ٩٨).
(٣) رواه أبو داود (٧ / ١٣٢).
(٤) رواه البخاري (٢ / ٩٠) ومسلم (٤ / ٢٢٠٠).

وفي لفظ قال ﷺ : «أن المؤمن يقال له ما كنت تعبد؟ فإن هداه الله تعالى قال كنت أعبد الله، فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول هو عبد الله ورسوله، قال فما يسأل عن شيء غير هذا»(١) .

وجاء في حديث أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يوم كسفت الشمس: «ولقد أوحي إلي أنكم تفتنون في قبوركم مثل أو قريبا من فتنة الدجال، يؤتى أحدكم فيقال له ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن أو الموقن فيقول محمد رسول الله جاءنا بالبينات والهدى فأجبنا وآمنا واتبعنا، فيقال له نم صالحا فقد علمنا إن كنت لموقنا، وأما المنافق والمرتاب فيقول لا أدري سمعت الناس يقولون شيئا فقلته» (٢) .

جاء في رواية سؤال الملكين وفي أخرى سؤال ملك واحد قال القرطبي: لا تعارض في ذلك بالنسبة إلى الأشخاص فرب شخص يأتيه اثنان معا فيسألانه معا عند انصراف الناس ليكون أهول في حقه وأشد بحسب ما اقترف من الآثام، وآخر يأتيه قبل انصراف الناس عنه تخفيفا عليه لحصول أنسه بهم وآخر يأتيه ملك واحد فيكون أخف عليه وأقل في المراجعة لما قدمه من العمل الصالح.

قال ويحتمل أن يأتي اثنان ويكون السائل أحدهما وإن اشتركا في الإتيان فتحمل رواية الواحد على هذا (٣).

---

(١) رواه أبو داود (٧ م ١٢٩).
(٢) رواه البخاري (١ / ٢٨).
(٣) انظر التذكرة في أحوال الموتى والآخرة (١٢٣).

وثواب الميت، وعقابه للروح والجسد .

وهذا هو الحق وهو معتقد أهل السنة والجماعة أن ثواب القبر وعذابه يلحقان الروح والجسد معًا ، خلافًا للمعتزلة .

وادلة ذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ [١].

قال ابن عباس رضي الله عنهما :

عذَابا شَدِيدا فِي الْقَبْرِ [٢].

وحديث أنس أن النبي ﷺ قال: « إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه حتى إنه يسمع قرع نعالهم أتاه ملكان، فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ -لمحمد- فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة، فيراهما، ويفسح له في قبره سبعون ذراعاً، ويملأ عليه خضراً إلى يوم يبعثون. وأما الكافر أو المنافق فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال له: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطارق من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين، ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه»[٣].

وجه الاستدلال: قوله :

١. يسمع قرع نعالهم أتاه ملكان .

٢. فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ -لمحمد- فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله.

٣. ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين .

فالسماع والقعود والإجابة والضربة والصيحة لا تقع إلا على الجسد والروح معًا .

---

(١) طه : الآية (١٢٤)
(٢) تفسير ابن عباس (٢٦٧).
(٣) رواه البخاري (٢ / ٩٨) ومسلم (٤ / ٢٢٠٠).

وفي لفظ قال ﷺ : « فإذا كان الرجل الصالح أجلس في قبره غير فزع ....وإذا كان الرجل السوء أجلس في قبره فزعًا »[1] .

وبأن كل واحد يعلم مصيره قبل موته .

العبد يعلم عندما يرى الملائكة بدليل قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴾[2].

فإذا كان العبد مؤمنًا صالحًا ، نزلت عليه ملائكة الرحمة تبشره برحمة الله ، وإذا كان العبد كافرًا عاصيًا ، نزلت عليه ملائكة العذاب ، تبشره بعذاب الله فيراهم المؤمن والكافر معًا .

قال ابن كثير رحمه الله :

« أي هم لا يرون الملائكة في يوم خير لهم، بل يوم يروهم لا بشرى يومئذ لهم، وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار، والغضب من الجبار، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه، اخرجي أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث، اخرجي إلى سموم وحميم وظل من يحموم، فتأبى الخروج وتتفرق في البدن فيضربونه، كما قال الله تعالى: ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم [الأنفال: ٥٠] الآية، وقال تعالى: ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أي بالضرب أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون [الأنعام: ٩٣] ولهذا قال في هذه الآية الكريمة يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين وهذا بخلاف حال المؤمنين حال احتضارهم، فإنهم يبشرون بالخيرات، وحصول المسرات، قال الله تعالى: إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم [فصلت: ٣٠- ٣٢] . وفي الحديث الصحيح عن البراء بن عازب: أن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجي أيتها النفس الطيبة في

(١) رواه احمد في المسند (٤٢ / ١٢).
(٢) الفرقان : الآية (٢٢)

الجسد الطيب إن كنت تعمرينه، اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان. وقد تقدم الحديث في سورة إبراهيم عند قوله تعالى: يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء [إبراهيم: ٢٧] » (١) .

وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: « وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب» . قال: « فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول » (٢).

وجه الاستدلال : أن العبد قبل قبض روحه يعلم مصيره قبل موته .

وأن الميزان والمعاد الجسماني حق بعد الإعدام ممن يعدم .

الميزان : في اللغة : اسم آلة من وزَنَ: آلة تُوزن بها الأشياء لمعرفة مقدارها من الثقل، وهو رمز العَدْل : إنّما أراد من ثقل وزنه فوضع الاسم الذي هو الميزان موضع المصدر .

ونعتقد بأن الميزان حق وهو الذي توزن به الحسنات والسيئات حق، قالوا: وله لسان وكفتان توزن به صحائف الأعمال، قال ابن عباس – رضي الله عنهما: توزن الحسنات في أحسن صورة، والسيئات في أقبح صورة.

قال العلامة الشيخ مرعي في بهجته:

الصحيح أن المراد بالميزان الميزان الحقيقي لا مجرد العدل خلافا لبعضهم (٣).

ومراتب المعاد البعث والنشور ثم المحشر، ثم القيام لرب العالمين، ثم العرض، ثم تطاير الصحف وأخذها باليمين وأخذها بالشمال، ثم السؤال والحساب، ثم الميزان .

---

(١) تفسير القرآن لابن كثير (٦ / ٩٣).
(٢) رواه أحمد في المسند (٣٠ / ٥٠١)].
(٣) انظر لوامع الانوار (٢ / ١٨٤).

ودليل الميزان قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ – وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾(١).

وعن عبد الملك بن أبي سليمان، قال : « ذكر الميزان عند الحسن، فقال: له لسان وكفتان»(٢).

والله تعالى يضع ميزاناً يوم القيامة توزن به الصحائف التي تكون فيها اعمل العباد مكتوبة ، وله كفتّان ، أحدهما للحسنات وهي تهوي إلى الجنّة والأخرى للسيئات وهي تهوى إلى النار ، ولسان يكلّمه به ويخبره عما تزن به الحسنات ويجعل رجحان طاعاته علامة على أنه من أهل الجنة ، وخفتها علامة لشقوته (٣).

والمعاد الجسماني حق بعد الإعدام ممن يعدم .

والمراد بالمعاد الجسماني : هو إحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم ، وأن يُحشر العبد في يوم القيامة بروحه وجسده، ونفس خصائص شخصيته التي كان عليها في الدنيا.

وهو حق وصدق واقع أخبر الله تعالى به ورسوله ﷺ فالإيمان به واجب ، خلافًا لمن أنكر المعاد الجسماني والبعث فقال سبحانه : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾(٤).

وقال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾(٥).

وجه الاستدلال : قوله : نُخْرِجُ الْمَوْتَى ، أي الإحياء بعد الموت .

وفي الأحاديث :

عن أبي هريرة ﷺ ، قال: قال رسول الله ﷺ : «ما بين النفختين أربعون» قال: أربعون يوما؟ قال: أبيت، قال: أربعون شهرا؟ قال: أبيت، قال: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قال: «ثم ينزل

(١) المؤمنون : الآية (١٠٢_١٠٣).
(٢) شرح اعتقاد السنة للالكائي (٦ /١٢٤٥).وشعب الإيمان (١ / ٤٤٧).
(٣) مختصر المعتمد (١٧٥).
(٤) يس : الآية (٧٩).
(٥) الأعراف : الآية (٥٧).

الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظما واحدًا وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة» (١).

عن عبد الله بن عباس ﷺ قال: «إنَّ العاص بن وائل أخذ عظماً من البطحاءِ ففتَّه بيده ثم قال لرسول الله ﷺ : أيحيي الله هذا بعد ما أَرَمَّ (بَلِيَ)؟ فقال رسولُ الله ﷺ : نعم، يميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم. قال: ونزلت الآيات من آخر "يس"»(٢).

وعن علي بن أبي طالب ﷺ أن النبي ﷺ قال: « لا يؤمنُ عبدٌ حتَّى يؤمن بأربعٍ: بالله وحده لا شريك له، وأنِّي رسولُ الله، وبالبعث بعد الموت، والقدَر»(٣).

إلى غير ذلك من النصوص القرآنية القطعية والأحاديث الساطعة النبوية، وقد أنكره الطبائعيون والدهرية والملاحدة وفيه تكذيب للنقل الصريح والعقل الصحيح على ما قرره المحققون من أهل الملة.

ويحاسب المسلمون المكلفون إلا من شاء الله أن يدخل الجنة بغير حساب .

الثابت بالسنة والكتاب وإجماع أهل الحق بلا ارتياب ، قال تعالى:

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ - عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٤).

وَقَالَ فِي حَقِّ أَعْدَائِهِ: ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ (٥).

وقال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾(٦).

والحساب : لغة : العد (٧).

اصطلاحًا : تعريف الله الخلائق قبل الانصراف من المحشر على أعمالهم خيرًا كانت أو شرًا ، قولًا كانت فعلًا سواء كان مسلمًا أو كافرًا .

المكلفون : جمع المكلف : وهو البالغ العاقل .

(١) رواه البخاري (٦ / ١٦٥).
(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٥٠٥).
(٣) رواه ابن ماجه (١ / ٥٩).
(٤) الحجر : الآية (٩٢ _ ٩٣).
(٥) الرعد : الآية (١٨).
(٦) الكهف : الآية (٤٩).
(٧) انظر مختار الصحاح (٧٢).

من اعتقاد أهل السنة والجماعة أن المسلم يوقف يوم القيامة للحساب ، وأن كل مكلف معه ملكان ليلًا ونهارًا يحفظان عليهم أعمالهم من خير وشر ، ويكتبانها في الصحائف.

والدليل على ذلك قول الله تعالى:﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (١).

وقول الله تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾(٢).

إلا من شاء الله أن يدخل الجنة بغير حساب .

ومن جملة اعتقاد أهل السنة والجماعة ، أن الله سبحانه يدخل من يشاء بغير حساب كما ثبت في السنة من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال :

« عرضت علي الأمم، فرأيت النبي ﷺ ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى ﷺ وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب » ، ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله، وذكروا أشياء فخرج عليهم رسول الله ﷺ ، فقال: «ما الذي تخوضون فيه؟» فأخبروه، فقال: «هم الذين لا يرقون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»(٣).

و عن أبي أمامة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : «وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفا، وثلاثة حثيات من حثيات ربي»(٤).

---

(١) الانفطار : الآية (١٠).
(٢) ق : الآية (١٨).
(٣) رواه البخاري (٨ / ١١٢) ومسلم (١ / ١٩٩).
(٤) رواه الترمذي (٤ / ٦٢٠).

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ : «سألت ربي فوعدني أن يدخل من أمتي سبعين ألفا على صورة القمر ليلة البدر، فاستزدته فزادني مع كل ألف سبعين ألفا فقلت: أي رب، أرأيت إن لم يكن هؤلاء مهاجري أمتي؟ قال: إذن أكملهم لك من الأعراب»[١].

والكفار لا يحاسبون فلا توزن صحائفهم ، وإن فعل كافر قربة من نحو صدقة ، أو عتق ؛ أو ظُلِم ، رجونا أن يُخَفَّف عنه من العذاب .

والكفار لا يحاسبون ن فلا توزن صحائفهم .

قال القاضي رحمه الله :

والكفار لا يحاسبون خلافًا لابن سالم وابي حفص البرمكي من أصحابنا في قولهما يحاسبون.

والدلالة عليه قول الله تعالى : ﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾[٢].

قال قتادة : « يدخلون النار بغير حساب »[٣] .

وروى أبو سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « يخرج عنقًا من النار يوم القيامة لها لسان ينطق يقول : إني أمرت بثلاثة ، من جعل مع الله إلها آخر ، أو من قتل نفسًا بغير نفس ، والجبارون ، فتطوى عليهم فتلقيهم في النار قبل الحساب بخمسمائة عام »[٤] .

وروي ابن عمر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل يدخل قومًا النار بغير حساب » ، فقال رجل يا رسول الله من هم ؟ . قال « الكفار يحشرون كومًا كومًا من قبورهم إلى النار وقرأ : ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم وردًا ﴾ .

وروى علي بن أبي طالب قال : قال : رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يحاسب كل خلق إلا من أشرك بالله ، فإنه يحاسبه ويؤمر به إلى النار » ورواه أبو بكر من أصحابنا بإسناده[٥] .

(١) رواه أحمد بن حنبل (١٤ / ٣٢٦).
(٢) القصص : الآية (٧٨).
(٣) تفسير الطبري (١٨ / ٣٢٧) .
(٤) القصص : الآية (٧٨).
(٥) مختصر المعتمد (٨٣).

وإن فعل كافر قربة من نحو صدقة ، أو عتق ؛ أو ظُلِم ، رجونا أن يُخَفَّف عنه من العذاب .

الكافر كما تقدم لا يحاسب ، فبالتالي لا ينفعه أي فعل يعتبر قربة لأن عمله هباء منثورًا قال سبحانه : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾[١] .

وإذا فعل رُجي له أن يُخّفف عنه العذاب .

دليل ذلك قول النبي ﷺ : عن العباس بن عبد المطلب، أنه قال: يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «نعم، هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»[٢]

وأن الصراط حق ،وهو جسر مدود على جهنم ، دحض مزلة ، عليه خطاطيف، وأن المرور عليه بحسب الأعمال .

قوله : **والصراط حق يجوزه الأبرار، ويزل عنه الفجار .**

الصراط : جسر ممدود على جهنم .

الصراط أدق من الشعرة، وأحد من السيف، وأحمى من الجمرة ، وأن الكافرين معذبون بالمشي عليه ، وأن النار تلحقهم ، ثم تعدل بهم إليها ، وأن من المؤمنين من يلحقه وهج جهنم وتمس أبدان بعضهم ، ويكون ذلك بقدر ما ينالهم ثم ينجون ويتخلصون منها بعد ذلك برحمة الله تعالى ، أو شفاعة نبينا ﷺ او غيره ، فإن منهم من يخف عليه عبوره ، ومنهم من تلحقه الشدة ومنهم من يسعى عليه ، ومنهم الماشي ، ومنهم من يحبون حبوًا ، فيكون فصلًا بين الشقي والسعيد فمن كان سعيدًا حمله عليه بريح تمسكه ، أو بضرب من لطفه ، ومن كان شقيًا خلّاه فيزل عنه ، وعرف بذلك سعادة وشقاء الساقط ، ومن خلط الخير بالشر منعه الله من السقوط لما معه من الحسنات ، وكشف لأهل الموقف عن اختلاف المنازل[٣] .

---

(١) الفرقان : الآية (٢٣).
(٢) متفق عليه .
(٣) المصدر نفسه (١٧٥).

وقد وردت أحاديث وصفت الصراط فعن عائشة رضي الله عنها قالت:
قال رسول الله ﷺ : «لجهنم جسر أدق من الشعر، وأحد من السيف عليه كلاليب وحسك تأخذ من شاء، والناس عليه كالطرف وكالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، والملائكة يقولون: رب سلم سلم، فناج مسلم، ومخدوش مسلم، ومكور في النار على وجهه»[1].
وعن أبي سعيد الخدري قال: بلغني أن الجسر أدق من الشعر، وأحد من السيف »[2].
عن أبي سعيد أيضا سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وضع الصراط بين ظهراني جهنم عليه حسك كحسك السعدان ثم يستجيز الناس، فناج مسلم، ومخدوش به ثم ناج، ومحتبس به، ومنكوس فيها»[3].
و عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: الصراط على جهنم مثل حد السيف فتمر الطبقة الأولى كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم يمرون، والملائكة يقولون: اللهم سلم اللهم سلم[4].

وأن الجنة والنار حق، وهما مخلوقتان الآن، خلقتنا للبقاء ، وبأن المقام المحمود، والحوض المورود حق.

والجنة والنار مخلوقتان ، وهما الداران ، أحدهما دار الثواب والأخرى دار العقاب ، وهما باقيتان ، وهي الجنة التي كان فيها آدم عليه السلام وابليس اللعين فأخرجهما ، منها ، وهي جنة الخلد التي يثاب فيها المؤمنون ، خلافًا للمعتزلة[5] .
قال الخلال: وأخبرني علي بن عيسى أن حنبلًا حدثهم قال: سمعت أبا عبد اللَّه وسألته، فقال: الجنة والنار قد خلقتا، وفي هذا حجة أن رؤيا الأنبياء في الأحلام رأي العين، وليس حلمهم كسائر الأحلام[6].

(١) رواه أحمد في المسند (٤١ / ٣٠٢).
(٢) رواه مسلم (١ / ١٦٧).
(٣) رواه ابن ماجه (٥ / ٣٤٤).
(٤) رواه البيهقي في شعب الايمان (١ / ٥٧٠).
(٥) بيان تلبيس الجهمية (٧/ ٢٧٣ – ٢٧٤).
(٦) مختصر المعتمد (١٨٠).والايضاح لابن الزاغوني (٥٥٦).

والأدلة على أنهما مخلوقتان :

قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1].

وقوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[2].

وجه الاستدلال :

أن قوله : ﴿ أعدت ﴾ . فلا يجوز أن يقال أعدت إلا وذلك المعد موجود غير معدوم . كمن قال لغيره قد أعددت لك طعامًا وشرابًا ، ودارًا إلا وما ذكره موجودًا غير معدوم.

وقد رد الإمام أحمد ﷺ على المعتزلة في كتابه الرد على الجهمية والزنادقة تفصيليًا .

وبأن المقام المحمود، والحوض المورود حق.

قوله : **والمقام المحمود.**

قال: « فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها فيقال: من هذا؟ فيقال: محمد فيفتحون لي، ويرحبون بي، فيقولون: مرحبا، فأخر ساجدا، فيلهمني الله من الثناء والحمد، فيقال لي: ارفع رأسك وسل تعط، واشفع تشفع، وقل يسمع لقولك، وهو المقام المحمود الذي قال الله ﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [3] » [4].

وهذا هو الأليق بأصول السلف ، والإمام أحمد رضي الله عنهم أجمعين .

وما ورد من قول مجاهد يجاب عنه بأمور منها :

١. أن مجاهد تابعي وقوله ليس بحجة .

٢. ليس هناك دليلًا يُستدل به على قول مجاهد .

ولا نقول في صفات الله تعالى إلا بما ورد في الكتاب والسنة والصحيحة ولا نزيد عليهما إلا بصادر عن دليل أو قول صحابي .

---

(١) آل عمران : الآية (١٣٣).
(٢) الآية (١٣١).
(٣) الاسراء : الآية (٧٩).
(٤) رواه الترمذي (٥ / ٣٠٨).

قوله : **والحوض المورود** .

لقول رسول الله ﷺ : « وددت أني قد رأيت إخواننا ". قالوا: يا رسول الله أولسنا بإخوانك؟ قال: " بل أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد، وأنا فرطهم على الحوض ". قالوا: يا رسول الله كيف تعرف من يأتي بعدك من أمتك؟ قال: " أرأيت لو كان لرجل خيل غر محجلة في خيل دهم بهم، ألا يعرف خيله؟ ". قالوا: بلى يا رسول الله قال: " فإنهم يأتون يوم القيامة غرا محجلين من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض، فليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال، أناديهم: ألا هلم، ألا هلم، ألا هلم ثلاثا ". فيقال: إنهم قد بدلوا، فأقول: " فسحقا، فسحقا، فسحقا »[1].

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١ / ١٣٣).

﴿الباب الخامس في النبوة﴾

والأنبياء متفاوتون في الفضيلة .

قد فضل الله سبحانه وتعالى بعض رسله على بعض، كما قال عز وجل: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ (١) .

وأفضلهم جميعا أولو العزم الوارد ذكرهم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (٢).

وفي قوله سبحانه: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (٣).

وأفضل أولي العزم إجماعًا نبينا محمد ﷺ ، ثم إبراهيم على الراجح من أقوال أهل العلم، واختلف في ترتيب الثلاثة الباقين، فمن أهل العلم من يتوقف عن التفضيل بينهم، ومنهم من قطع بأفضلية موسى بعد إبراهيم، وتوقف في التفضيل بين نوح وعيسى عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام.

ورسول الله ﷺ حق إلى الإنس والجن ، وهو خاتم الأنبياء وأفضلهم .

ونجزم بأن محمدًا ﷺ رسول الله حقا إلى الإنس والجن كافة .

دليل ذلك حديث جابر بن عبد الله، قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ من سفر، حتى إذا دفعنا إلى حائط من حيطان بني النجار، إذا فيه جمل لا يدخل الحائط أحد إلا شد عليه، قال: فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فجاء حتى أتى الحائط، فدعا البعير، فجاء واضعا مشفره إلى الأرض، حتى برك بين يديه، قال: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «هاتوا خطامه» ، فخطمه، ودفعه إلى صاحبه، قال: ثم التفت إلى الناس، قال: «إنه ليس شيء بين السماء والأرض، إلا يعلم أني رسول الله، إلا عاصي الجن والإنس»(٤) .

قال القاضي أبو يعلى: وأنه ﷺ خاتم الأنبياء وأفضلهم، نص عليه الإمام أحمد.

---

(١) البقرة : الآية (٢٥٣).
(٢) الاحزاب : الآية (٧).
(٣) الشورى: الآية (١٣).
(٤) راوه أحمد في المسند (٢٢ / ٢٣٥).

يقول ابن كثير في تفسيره: ولا خلاف أن محمدا ﷺ أفضلهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى على المشهور.

ويقول السيوطي: ونعتقد أَن أفضل الْخلق على الإطلاق حبيب الله الْمُصْطَفى صلى الله عَلَيْهِ وَسلم، يليه إِبْرَاهِيم فِي التَّفْضِيل، فَهُوَ أفضل الْخلق بعده نقل بَعضهم الْإِجْمَاع على ذَلِك، وَفِي الصَّحِيح خير الْبَرِيَّة إِبْرَاهِيم خص مِنْهُ النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم، فَبَقيَ على عُمُومه، فموسى، وَعِيسَى، ونوح الثَّلَاثَة بعد إِبْرَاهِيم أفضل من سَائِر الْأَنْبِيَاء، وَلم أَقف على نقل أَيهمْ أفضل [١].

ولم يكن قبل البعثة على دين قومه، بل ولد مسلمًا مؤمنًا

لم يكن نبينا محمد ﷺ قبل البعثة على دين قومه، بل ولد مسلما مؤمنا كما قال ابن عقيل وغيره، قال في نهاية المبتدئين: قال ابن عقيل: لم يكن – صلى الله عليه وسلم – على دين سوى الإسلام، ولا كان على دين قومه قط، بل ولد نبينا مؤمنا صالحا على ما كتبه الله وعلمه من حاله[٢].

وقال الحافظ ابن رجب : وقد استدل الإمام أحمد ﷺ بحديث العرباض بن سارية السلمي ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم – عليه السلام – لمنجدل في طينته» [٣].

وقال : « بل يستدل بذلك على أنه ﷺ ولد نبيًا، فإن نبوته وجبت له من حين أخذ الميثاق، حيث استخرج من صلب آدم فكان نبيا من حينئذ، لكن كانت مدة خروجه إلى الدنيا متأخرة عن ذلك، وذلك لا يمنع كونه نبيا قبل خروجه، كمن يولى ولاية ويؤمر بالتصرف فيها في زمن مستقبل، فحكم الولاية ثابت له من حين ولايته، وإن كان تصرفه متأخرا إلى حين مجيء الوقت.

(١) كتاب إتمام الدراية لقراء النقاية (١٧).
(٢) لوامع الأنوار (٢ / ٣٠٥).
(٣) لطائف المعارف (٧٩).

وقال أيضًا : قال حنبل: قلت لأبي عبد الله يعني الإمام أحمد ﵁ من زعم أن النبي ﷺ كان على دين قومه قبل أن يبعث؟.

قال: هذا قول سوء ينبغي لصاحب هذه المقالة أن يحذر كلامه ولا يجالس. قلت: إن جارنا الناقد أبا العباس يقول هذه المقالة.

قال: قاتله الله وأي شيء أبقى إذا زعم أن رسول الله ﷺ كان على دين قومه وهم يعبدون الأصنام؟ قال الله تعالى مخبرا عن عيسى – عليه السلام –: {ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد} [الصف: ٦] ، ثم قال الإمام أحمد ﵁ : ماذا يحدث الناس من الكلام؟.

هؤلاء أصحاب الكلام من أحب الكلام لم يفلح، سبحان الله لهذا القول، واحتج الإمام أحمد برؤيا أمه النور عند ولادته حتى أضاءت له قصور الشام قال: وليس ذلك عندما ولدت رأت ذلك! [١].

(١) لطائف المعارف (٨٢).

فصل في معجزات النبي ﷺ

وأن المعجزات القاطعة المعتبرة لصدقه وجدت دالة على نبوته، مقترنة بدعوته، وهي: ما خرق العادة من قول أو فعل، إذا وافق دعوى الرسالة وقارنها وطابقها على وجه التحدي، لا يقدر أحد عليه، ولا يجوز ظهورها على يدي كاذب بدعوى النبوة.

المعجزة: هي اسم فاعل مأخوذة من العجز المقابل للقدرة،

وهي : المعجزة هي ما خرق العادة من قول أو فعل إذا وافق دعوى الرسالة وقارنها وطابقها على جهة التحدي ابتداء بحيث لا يقدر أحد عليها ولا على مثلها، ولا على ما يقاربها.

ومعجزات النبي ﷺ كثيرة أكثر من أن تحصى .

ومنها :

١ . القرآن .

ودليل اعجازه ، عجزوا عن ذلك، قال تعالى: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [(١)].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾[(٢)].

٢. الإسراء والمعراج .

دليل قصة المعراج جاءت مجملة في قول الله تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤادُ مَا رَأى () أَفَتُمارُونَهُ عَلى مَا يَرى () وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى () عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى () عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى () إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشى () مَا زاغَ الْبَصَرُ وما طَغى () لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى﴾[(٣)].

٤. انشقاق القمر له.

٥ . حماية الملائكة له.

٦ . سماعه لأهل القبور.

٧ . مخاطبته لقتلى بدر.

٨ . حنين جذع النخلة.

٩ . اهتزاز جبل أحد.

---

(١) الاسراء : الآية (٨٨).
(٢) الطور : الآية (٣٣ ، ٣٤).
(٣) النجم : الآية (١١ _ ١٧).

١٠ . نبوع الماء من بين أصابعه .

١١ . إضاءة المدينة المنورة لقدومه وظلامها لوفاته .

١٢ . معجزة حادثة شق الصدر .

إذا وافق دعوى الرسالة وقارنها وطابقها على وجه التحدي، لا يقدر أحد عليه، ولا يجوز ظهورها على يدي كاذب بدعوى النبوة .

فإذا وافق النبوة والرسالة ، وكانت مطابقة وعلى وجه التحدي بحيث لا قدرة لأحد على فعلها ، فهي معجزة ، ولا يجوز ان تظهر المعجزة على يد كاذب ودجال يدعي النبوة .

والطريق إلى العلم بصدق للرسالة على الله تعالى المعجزة .

والمعجزة إذا كانت فعلًا وجب قبولها بشرائط :

أحدها : أن يكون ذلك الفعل خارقًا للعادة ، لأنه لو كان مألوفًا معتادًا لم يكن دلالة على صدقه مثل طلوع الشمس من المشرق وغروبها من المغرب وغير ذلك .

والثاني : أن يكون الفعل الخارق للعادة مقارنًا لدعوى المدعي للرسالة على الله تعالى لأنه إذا لم يكن مقارنًا لم يدل على صدقه ، مثل أن يقول المدعي ، آيتي إن الله عز وجل يشق القمر بنصفين أو الشمس ، أو يحيي هذا الميت في وقتنا هذا ، ثم لا يفعله في ذلك الوقت .

الثالث : أن يكون الفعل الخارق للعادة المقارن لدعواه مطابقًا لدعواه أيضًا ، لأنه إذا لم يطابقه لم يكن دلالة على صدقة ، مثل أن يقول : دلالتي أن الله تعالى يحيي هذا الميت في وقتنا فيقوم الميت في ذلك الوقت .

الرابع : أن يكون الفعل ظهر على يده على طريق الإبتداء مع المتحدّي به ، لأجل أن يحصل مثل ذلك الفعل على طريق الاحتذاء كقراءة القرآن الذ ي هو المعجز على سبيل التعظيم ، ولو تحدى واحد منا ذلك ، في موضع من المواضع لوجب منعه من ذلك او توفر دواعي غيره على معارضته ليعلم كذبه [1].

(١) مختصر المعتمد (١٥٥).

وأنه ﷺ ، كان يخشى الله تعالى، وأنه معصوم في ما يؤدي عن الله سبحانه، وهكذا من كل ذنب، وكذا سائر الأنبياء.

وكان النبي ﷺ يخاف الله سبحانه وخوَّفه قبل أن أمنَّه الله تعالى من عقابه .

وخوفه بعد أمنه من عقاب لا يجوز أن يكون من عقابه بل خوفه من عتبه ن ولومه في دار الدنيا بأن ينزل عليه عتب من الله كما نزَّل عليه لما أعرض عن ابن ام مكتوم ، وأفرد لقريش مجلسًا دون أصحاب الصُّفّة فقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١).

وقال تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى ﴾(٢).

وكان يخاف الله من ذلك .

خلافًا للرافضة والمعتزلة .

وأنه معصوم في ما يؤدي عن الله سبحانه، وهكذا من كل ذنب، وكذا سائر الأنبياء.

العصمة :

معناه : المنع، وعِصْمة الله عبدَه: أن يعصمه ممَّا يوبِقُه، يقال: عصمه يعصمه عَصْمًا: منعه ووقاه(٣).

اجماع الأمة على أن الأنبياء معصومون من الخطأ فيما يبلغونه عن الله تعالى فلا يستقر في ذلك خطأ باتفاق المسلمين ، كما قال سبحانه : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ۞ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ۞ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾(٤) .

ونبينا محمد ﷺ معصوم في كل ما يبلغه عن الله من الشرائع قولاً وفعلاً، هذا لا خلاف فيه بين أهل العلم.

وقد حكى الإجماع أنهم معصومون عن الكبائر إلا قول بعضهم .

---

(١) الأنعام : الآية (٥١).
(٢) عبس : الآية (٢) .
(٣) لسان العرب مادة عصم (١٢ / ٤٠٣).
(٤) النجم : الآية (١ _ ٤).

وقال ابن حمدان في نهاية المبتدئين: وإنهم معصومون فيما يؤدون عن الله تعالى، وليسوا معصومين في غير ذلك من الخطأ والنسيان والسهو والصغائر في الأشهر ، لكن لا يقرون على ذلك [1].

وقال ابن عقيل في الإرشاد: إنهم – عليهم الصلاة والسلام – لم يعتصموا في الأفعال بل في نفس الأداء، قال: ولا يجوز عليهم الكذب في الأقوال فيما يؤدونه عن الله تعالى[2].

وقال الحافظ زين الدين العراقي: النبي ﷺ معصوم من تعمد الذنب بعد النبوة بالإجماع ، ولا يعتد بخلاف بعض الخوارج والحشوية الذين نقل عنهم تجويز ذلك، ولا بقول من قال من الروافض بجوازها تقية [3].

---

(١) انظر نهاية المبتدئين (٦٠).
(٢) المصدر نفسه .
(٣) لوامع الأنوار (٢ / ٣٠٤) .

فصل

وكرامات الأولياء حق ، وهي خرق العادات، لا على وجه الاستدعاء والتحدي بها، والأنبياء أفضل منهم، ومن الملائك .

الكرامة :

هي الْأَمر الخارق للْعَادَة غير المقرون بالتحدي وَدَعوى النُّبُوَّة يظهره الله على أَيدي أوليائه(١).

وقالوا : هي ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة، فما لا يكون مقرونا بالإيمان والعمل الصالح يكون استدراجًا ، وما يكون مقرونًا بدعوى النبوة يكون معجزة(٢).

وبهذا يتضح الفرق بين الكرامة والمعجزة .

تظهر الكرامة على يد عبد ظاهر الصلاح، ملتزم لمتابعة نبي كلف بشريعته مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح، علم بها ذلك العبد الصالح أم لم يعلم.

قال ابن حمدان في نهاية المبتدئين:

« وكرامة الأولياء حق، وأنكر الإمام أحمد ﷺ على من أنكرها وضلله، وقال: وتوجد في زمن النبوة وأشراط الساعة وغيرهما، ولا تدل على صدق من ظهرت على يده فيما يخبر به عن الله تعالى، ولا على ولايته لجواز سلبها وأن تكون استدراجا له يعني أن مجرد الخارق لا يدل على ذلك، ولذلك قال: ولا يساكنها ولا يقطع هو بكرامته بها ولا يدعيها، وتظهر بلا طلبه تشريفا له ظاهرا، ولا يعلم من ظهرت منه هو أو غيره أنه ولي لله تعالى غالبا بذلك، وقيل: بلى ولا يلزم من صحة الكرامات ووجودها صدق من يدعيها بدون بينة أو قرائن حالية تفيد الجزم بذلك، وإن مشى هو على الماء وفي الهواء أو سخرت له الجن والسباع، حتى تنظر خاتمته وموافقته للشرع في الأمر والنهي »(٣) .

---

(١) المعجم الوسيط (٢ / ٧٨٤).
(٢) التعريفات للجرجاني (١٨٤).
(٣) نهاية المبتدئين (٦٠ _ ٦١).

وإن وجد الخارق من نحو جاهل فهو مخرقة ومكر من إبليس وإغواء وإضلال، ولا شيء على من ظن الخير بمن يراه منه، وإن كان في الباطن شيطانا وحسن الظن بأهل الدين والصلاح حسن.

ولم تزل الكرامات تظهر على أيدي عباد الله الصالحين والعارفين وأهل التحقيق إلى يومنا هذا والأدلة على ذلك كثيرة كما في قصة العلاء بن الحضرمي من الصحابة – رضي الله عنهم أجمعين –، فإنه لما ذهب إلى البحرين سلكوا مفازة وعطشوا عطشًا شديدًا حتى خافوا الهلاك، فنزل فصلى ركعتين، ثم قال: يا حليم يا عليم يا علي يا عظيم اسقنا، فجاءت سحابة فأمطرت حتى ملئوا الآنية وسقوا الركاب، ثم انطلقوا إلى خليج من البحر ما خيض قبل ذلك اليوم فلم يجدوا سفنا، فصلى ركعتين ثم قال: يا حليم يا عليم يا علي يا عظيم أجزنا، ثم أخذ بعنان فرسه، ثم قال: جوزوا باسم الله، قال أبو هريرة: فمشينا على الماء فوالله ما ابتل لنا قدم ولا خف ولا حافر وكان الجيش أربعة آلاف[١].

والطيران في الهواء كما في قصة جعفر بن أبي طالب ذي الجناحين رضي الله عنه [٢]، وقصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورؤيته لجيش سارية وهو على منبر بالمدينة بنهاوند فنادى وهو على المنبر لأمير الجيش سارية، فقال: يا سارية الجبل.

تحذيرًا له من العدو ومكرهم له من وراء الجبل، وسماع سارية مع بعد المسافة، وكشرب خالد بن الوليد رضي الله عنه السم من غير أن يحصل له تضرر، وكجريان النيل بكتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأمثال ذلك من كرامات الصحابة – رضي الله عنهم – مما لا يحصى إلا بكلفة، وكذلك كرامات التابعين لهم ومن بعدهم ما هو طافح ومشهور، لا يمكن رده وإنكاره في غلبة البيان والظهور.

فاعتقاد اهل السنة والجماعة والحنابلة منهم ، بوجود الكرامات من زمن الصحابة إلى يومنا هذا [٣].

---

(١) أخرجه اللالكائي في كرامات الأولياء (٩ / ١٦٢).
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣ /٢٣٢).
(٣) انظر لوامع الأنوار البهية (٢ / ٣٩٥).

فصل

الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ، فرض كفاية على الجماعة، وعين على الواحد .

الأمر بالمعروف: الإرشاد إلى المراشد المنجية .

والنهي عن المنكر: الزجر عما لا يلائم في الشريعة.

وقيل: الأمر بالمعروف: أمر بما يوافق الكتاب والسنة، والنهي عن المنكر: نهي عما تميل إليه النفس والشهوة، وقيل الأمر بالمعروف إشارة إلى ما يرضي الله تعالى من أفعال العبد وأقواله. والنهي عن المنكر: تقبيح ما تنفر عنه الشريعة والعفة، وهو ما لا يجوز في دين الله تعالى[(١)].

قال ابن مفلح :

« الأمر بالمعروف وهو كل ما أمر به شرعًا، والنهي عن المنكر وهو كل ما ينهى عنه شرعًا فرض عين »

فرض كفاية على الجماعة.

وفرض الكفاية إذا فعله جماعة سقط عن باقي الأمة .

الأصل في ذلك قول الله تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [(٢)].

قال على الجماعة وهم المسلمون يخاطب به الجميع ويسقط بمن يقوم به، بخلاف فرض العين فإنه يجب على كل واحد ولا يسقط عنه بفعل غيره.

دليل ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[(٣)].

وقال ﷺ : «لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن عليكم شراركم، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لكم»[(٤)].

وقد ذم الله تعالى من سبقنا من الأمم لأنهم لم يقوموا بهذه الفريضة كما قال عن بني إسرائيل: ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [(٥)].

---

(١) التعريفات (٣٦ _ ٣٧).
(٢) آل عمران : الآية (١١٠).
(٣) آل عمران : الآية (١٠٤).
(٤) رواه الطبراني في الأوسط (٢ / ٩٩).
(٥) المائدة : الآية (٧٩).

وفي الحديث الثابت « قال: سمعت أبا بكر الصديق، يقول: يا أيها الناس، إنكم تقرءون هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن القوم إذا رأوا المنكر فلم يغيروه عمهم الله بعقاب»[1].

ويجب على من علمه وتحققه، وهو عارف بما ينكره، ولم يخف أذًى في نفسه ، أو ماله ، أو أهله، ولا فتنة تزيد على المنكر، ولم يقم به غيره ، وعلى الناس إعانة المُنْكِرِ، ونصره مع القدرة ، ولا ينكر بسيف، ولا عصًا، إلا مع سلطان .

وهذا أوان الشروع في شروط الآمر بالمعروف .

١. يجب على من علمه وهو عارف بما ينكره ، أي كان عالما بحكم المنكر .

٢. ولم يخف أذى على نفسه ، أو ماله أو أهله .

٣. ولا فتنة تزيد المنكر أو تزيد عليه ، وضابط ذلك مراعاة المصلحة والمفسدة فيه .

٤. ولا يجوز الإنكار في مسائل مختلف فيها ، كالإنكار على عامي يشرب النبيذ مقلدًا أبا حنيفة ، وكمن تزوج امرأة بدون ولي وهو يعتقد جوازه .

وجملة ذلك واقع تحت قولنا لا انكار في مسائل الإجتهاد .

وعلى الناس إعانة المُنْكِرِ لعموم لقول الله تعالى :

قول النبي ﷺ : « «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[2].

ونصرته مع القدرة ، أما إذا انتفت القدرة فيحرم لترتب المفاسد عليه .

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى (٢ / ٩٩).
(٢) رواه مسلم (١ / ٦٩).

والمعروف: كل فعل وقول حسن شرعًا .

والمنكر: كل فعل وقول قبيح ، قصد، شرعًا .

وهما مبنيان على التحسين والتقبيح الشرعي ، فلا مدخل للعقل فيهما خلافًا للمبتدعة .

فالحكم على المنكر لا يكون بالعقل ، ولا يدل عليه ، إنما بالأدلة الشرعية .

ويقسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باعتبار الفاعل إلى قسمين :

الأول . ظاهر يعرفه العامة والخاصة ، مثل وجوب الصلوات الخمس والحج والصوم وغير ذلك من الواجبات التي يعرفها كل أحد .

وكذلك المنكر ما يعرفه كل أحد كتحريم شرب الخمر والزنا والسرقة وغير ذلك من المحرمات فهذا نوع على العامة انكاره مع القدرة ، كما يجب ذلك على العلماء .

الثاني : ما لايعرفه إلا الخواص مثل اعتقاد ما يجوز على الله سبحانه وما لا يجوز ذلك .

وهو مختص بالعلماء انكار ذلك ، وكل ذلك مقيد بالقدرة[١].

والإنكار في ترك الواجب، وفعل الحرام واجب، وفى ترك المسنون وعدم تعلمه، وتعليمه مندوب .

والإنكار في ترك الواجب فحكمه واجب .

والإنكار على من فعل الحرام واجب.

وترك الإنكار على من ترك المسنون وعدم تعلمه وتعليمه مسنون .

يراعى في ذلك المصالح والمفاسد ، والسياسة الشرعية .

---

(١) مختصر المعتمد (١٩٥).

فائدة: وكل ما يؤمر به، وينهى عنه، إما حق الله تعالى، كالصلاة والصيام ، والحث على الطاعة وترك المعصية ، أو لآدمي كوفاء الدين والعدل ، أو: لهما، كالزكاة والكفارات، ونحو ذلك ، والأب وغيره في الإنكار عليه سواء.

يقسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى ثلاثة أقسام :

الأول . حق الله تعالى ، كالصلاة والصيام ، والحث على طاعة الله تعالى وترك المعصية .

الثاني . لآدمي ، كوفاء الدين والعدل .

الثالث . لله تعالى ، وللآدمي ، كالزكاة والكفارات ونحوها .

والأب وغيره في الإنكار عليه سواء.

وانكار الأب على أهل بيته واجب ، قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾(١).

وهذا أمر من الله تعالى على الأب ومن قام مقامه ، أن يبذل النصح لنفسه ولأهل لبيته .

وجاء في حديث النبي ﷺ : « ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام الأعظم الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده وهي مسؤولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » (٢).

وجه الدلالة من الحديث بيان منزلة كل من اتاه الله رعية ، سواء الأب او غيره .

---

(١) التحريم : الآية (٦).

(٢) رواه البخاري (٣ / ١٢٠). ومسلم (٣ / ١٤٥٩).

تنبيهات: ينبغي أن يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، متواضعًا رفيقًا فيما يدعو إليه، ذا رأي ومراقبة ، وشدة في الدين.

صفات الأمر بالمعروف ، والناهي عن المنكر :

١. متواضعًا .

٢. رفيقًا فيما يدعو إليه شفيقا رحيما غير فظ ولا غليظ القلب، ولا متعنتا.

لقول الله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (١).

لقول رسول الله ﷺ : «يا عائشة! إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه»(٢).

قال سفيان الثوري رحمه الله: «لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فيه ثلاث خصال: رفيق بما يأمر، رفيق بما ينهى، عدل بما يأمر، عدل بما ينهى، عالم بما يأمر، عالم بما ينهى»(٣).

قال حنبل إنه سمع أبا عبد الله يقول والناس يحتاجون إلى مداراة ورفق، الأمر بالمعروف بلا غلظة إلا رجل معلن بالفسق فقد وجب عليك نهيه وإعلامه لأنه يقال ليس لفاسق حرمة فهؤلاء لا حرمة لهم.

وسأله مهنا هل يستقيم أن يكون ضربا باليد إذا أمر بالمعروف قال الرفق.

ونقل يعقوب أنه سئل عن الأمر بالمعروف قال كان أصحاب عبد الله بن مسعود يقولون مهلا رحمكم الله. ونقل مهنا ينبغي أن يأمر بالرفق والخضوع قلت كيف قال إن أسمعوه ما يكره لا يغضب فيريد أن ينتصر لنفسه. وسأله أبو طالب إذا أمرته بمعروف فلم ينته قال دعه إن زدت عليه ذهب الأمر بالمعروف وصرت منتصرا لنفسك فتخرج إلى الإثم، فإذا أمرت بالمعروف فإن قبل منك وإلا فدعه(٤).

---

(١) آل عمران : الآية (١٥٩).
(٢) رواه مسلم (٣ / ١٤٥٩).
(٣) حلية الاولياء (٦ / ٣٧٩)
(٤) الآداب الشريعة والمنح المرعية لابن مفلح (٢ / ١٩٢).

قاصدًا بذلك وجه الله، وإقامة دينه، ونصر شرعه، وامتثال أمره، وإحياء سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، بلا رياء، ولا منافقة، ولا مداهنة، غير منافس، ولا مفاخر، ولا ممن يخالف قوله فعله .

ومن صفاته أيضًا :

أن يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر متواضعًا، رفيقًا فيما يدعو إليه شفيقًا رحيمًا غير فظ ولا غليظ القلب، ولا متعنتًا، حرًا ويتوجه أن العبد مثله وإن كان الحر أكمل، عدلا فقيها، عالما بالمأمورات والمنهيات شرعًا، دينًا نزهًا، عفيفًا ذا رأي وصرامة وشدة في الدين، قاصدا بذلك وجه الله عز جل، وإقامة دينه، ونصرة شرعه، وامتثال أمره، وإحياء سننه، بلا رياء ولا منافقة ولا مداهنة غير متنافس ولا متفاخر، ولا ممن يخالف قوله فعله، ويسن له العمل بالنوافل والمندوبات والرفق، وطلاقة الوجه وحسن الخلق عند إنكاره، والتثبيت والمسامحة بالهفوة عند أول مرة.

يبدأ في إنكاره بالأسهل، فإن زال ، وإلا زاد، فإن لم ، رفعه إلى سلطان عادل لا يأخذ مالًا، ولا يفعل غير ما يجب .

ويجب أن يبدأ إنكاره بالأسهل، ويعمل بظنه في ذلك، فإن لم يزل المنكر الواجب زاد بقدر الحاجة، فإن لم ينفع أغلظ فيه، فإن زال وإلا رفعه إلى ولي الأمر ابتداء إن أمن حيفه فيه، لكن يكره.

ويشترط أن يكون السلطان عادلًا ، ولا يأخذ مالًا .

وينكر على السلطان ، بوعظ وتخويف من عذاب الله تعالى.

ولا ينكر أحد على سلطان إلا وعظًا له وتخويفًا أو تحذيرًا من العاقبة في الدنيا والآخرة فإنه يجب ويحرم بغير ذلك ، والمراد ولم يخف منه بالتخويف والتحذير وإلا سقط وكان حكم ذلك كغيره .

وإنما جعل الإنكار بالقول للحاكم ، لأن الإنكار بالقتال لا يمكن إلا بشرطين ، تحقق المصلحة ووجود القدرة .

وما يزعمه البعض من أنه لا ينكر على الحاكم كذب على أئمة الإسلام والسنة .

﴿ مايسن في حق العاصي المجاهر ﴾

وسن هجران العصاة المتجاهرين، ويجب الإغضاء عن المستترين ، ويجب هجران المبتدعين الداعين إلى الضلالة، على من عجز عن إصلاحهم والإنكار عليهم.

الأصل في هجر المسلم لأخيه المسلم المنع لقول الله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[١].

ومن السنة : عن أبي أيوب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

« لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام »[٢].

فإن كان ممن يفعل المعاصي ، فيسن هجره بالمعاصي الفعلية والقولية والاعتقادية التي يفعلها.

قال أحمد في رواية حنبل: إذا علم أنه مقيم على معصية وهو يعلم بذلك لم يأثم إن هو جفاه حتى يرجع، وإلا كيف يتبين للرجل ما هو عليه إذا لم ير منكرا ولا جفوة من صديق؟.

الرواية عنه في هجره من أجاب في المحنة إلى أن مات .

---

(١) الحجرات : الآية (١٠).
(٢) رواه البخاري (١٨ / ١٩).ومسلم (٤ / ١٩٨٤).

ويجب هجران المبتدعين الداعين إلى الضلالة، على من عجز عن إصلاحهم والإنكار عليهم.

الهجر: الهجر ضد الوصل، والاسم: الهِجْرة، والمهاجرة من أرض إلى أرض: تركُ الأولى للثانية، والتهاجر: التقاطع [1].

والهَجر: بالفتح ترك ما يلزم تعهده وأيضاً مفارقةُ الإنسان غيره [2].

ومفارقة أهل البدع عند العجز عن اصلاحهم ، يجب شرعًا .

والمراد بالمبتدعة ، الخوراج ، والقدرية والرافضة والمعتزلة ، والجهمية .

وفي هذا العصر العلمانيون والليبراليون ، والعقلانيون ، والتنويريون .

دليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وإذَا رَأَيْتَ الَذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وإمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[3].

فيه دلالة على هجران أهل البدع .

ويفرق عندنا في المذهب بين الداعية إلى البدعة وبين غير الداعية .

فالذي يهجر هو الداعية .

عن جعفر بن محمد بن أبان الحراني قال : قلت لأحمد بن حنبل : فنكتب عن المرجئ والقدري وغيرهما من أهل الأهواء ؟ قال : نعم ، إذا لم يكن يدعو إليه ويكثر الكلام فيه ، فأما إذا كان داعياً فلا [4].

قال أحمد في رواية الفضل .. قلت : يا أبا عبد الله كيف يصنع بأهل الأهواء ؟ قال : أما الجهمية والرافضة فلا ، قيل له : فالمرجئة ؟ قال : هؤلاء أسهل الا المخاصم منهم فلا تكلمه[5].

---

(١) مختار الصحاح (٧٠٥).
(٢) التعريفات (٢٤٢).
(٣) الأنعام : الآية (٦٨).
(٤) الجامع للخطيب (١٥٨٣).
(٥) الآداب الشرعية (٢٢٩/١).

فائد : يجب على القادر الدفع عن نفسه ، وحرمته إن أمكنه ، ويسقط إنْ علم أنه لا يفيد .

ومن أُريدت نفسه أو حرمته أو ماله فله الدفع عن ذلك بأسهل ما يعلم دفعه به، فإن لم يحصل إلا بالقتل فله ذلك ولا شيء عليه. وإن قُتل كان شهيداً.

وسواء كان الصائل آدمياً أو بهيمة .

أما كون من أريدت نفسه أو حرمته أو ماله.

أي قُصدت: له الدفع عن ذلك؛ فلأنه لو مُنع من ذلك لأدى إلى تلفه وأذاه في نفسه وحرمته وماله.

ولأنه لو لم يجز ذلك لتسلط الناس بعضهم على بعض، وأدى إلى الهرج والمرج.

وأما كون الدفع بأسهل ما يعلم دفعه به؛ فلأن الزائد عليه لا حاجة له به؛ لحصول الدفع بدونه.

فعلى هذا متى علم الدافع أن الصائل عليه يندفع بالقول لم يجز ضربه بشيء، وإن علم أنه يندفع بعصاً لم يجز ضربه بحديد.

وأما كون الدفع إذا لم يحصل إلا بالقتل له ذلك؛ فلأن ضرره إذا لم يندفع إلا به يتعين طريقاً إلى الدفع المحتاج إليه.

وأما كونه لا شيء عليه بالقتل المذكور؛ فلأنه قتلٌ لدفع شر الصائل.

فلم يجب به شيء؛ كقتل الباغي.

وروي عن عبيد بن عمير «أن رجلاً ضافَ ناساً من هذيل. فأراد امرأة على نفسها فرمته بحجر. فقال عمر: والله! لا يودى أبدًا» .

ويسقط إنْ علم أنه لا يفيد .

يسقط وجوب الدفع حيث وجب بإياسه من فائدة دفعه لا بظنه أنه لا يفيد لتيقن الوجوب فلا يترك بالظن .

﴿ الدفاع عن المسلم ﴾

وعليه إنجاؤه من غرق، حريق ونحوهما، كما يجب أن ينجيه من المجاعة، والظمأ، مع القدرة .

ومثلما يلزمه الدفع عن نفسه ما يهلكه ، فكذلك يجب عليه الدفاع عن أخيه المسلم ، وأن ينجيه مما يتسبب في هلاكه ، كمن يرى مسلم يغرق ، أو من يرى أنه يمر بمجاعة كما في جنوب أفريقيا فيجب على الشعوب المسلمة إغاثتهم ، وحفر الآبار لهم ، وكل ذلك مقيد بالقدرة .

دليل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١).

وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: « المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، ألا لا يقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهد في عهده »(٢).

(١) التوبة : الآية (٧١).
(٢) رواه احمد في المسند (٢ / ٢٨٦).وأبو داود (٤ / ٣٧٩).

الخاتمة

من كفَّر من ليس بكافر، معتقدًا كفره ، كفر، ومن فسق من ليس بفاسق، معتقدًا فسقه ، فسق ، ويحرم لعن كافر معين.

ختم المصنف رحمه الله المقصد الأول ، في بيان تغليظ حكم من كفَّر من ليس بكافر ، ولا شك أنه من أخطر الأحكام التي ، وجب التنبيه على خطورة اطلاقها على المسلمين ، بدون أهلية من الحاكم .

ومعنى قول المصنف من كفَّر من ليس بكافر ، أنَّ من اطلق حكم التكفير من المسلمين علماء وعوام ، على أحد من المسلمين ولم يكن متلبسًا بسبب مكفِّر فإنه يكفر .

دل على ذلك حديث النبي ﷺ قال : « أيما رجل مسلم أكفر رجلًا مسلمًا: فإن كان كافرًا، وإلا كان هو الكافر »(١).

وقيد رحمه الله وقوع الكفر على من كفَّر بالإعتقاد ، أي أنه إذا اعتقد أن هذا المسلم الذي كفره ، كافرًا ، فيقع في الكفر ولو لم يكفره أحد بدلالة الحديث.

وحديث « أيما امرئ قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما، إن كان كما قال، وإلا رجعت عليه "(٢).

وهذا دليل على شدة مذهب الإمام أحمد رضي الله عنه في مسألة المنع من اطلاق التكفير ، وهذا عكس ما يشاع من قبل بعض من ينسب نفسه للمذهب زورًا وبهتانًا .

وقد نص أئمتنا على الأحاديث التي ورد فيها اطلاق حكم التكفير ، إنما هي للتغليظ

قال شيخ الإسلام الموفق رحمه الله : « وأما الأحاديث المتقدمة فهي على سبيل التغليظ والتشبيه له بالكفار، لا على الحقيقة، كقوله – عليه السلام – : «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر» وقوله: «كفر بالله تبرؤ من نسب وإن دق» وقوله: «من قال لأخيه يا كافر. فقد باء بها أحدهما» وقوله: «من أتى حائضا أو امرأة في دبرها، فقد كفر بما أنزل على محمد» قال: «ومن قال: مطرنا بنوء الكواكب. فهو كافر بالله، مؤمن بالكواكب» وقوله:

---

(١) رواه احمد في المسند (٢ / ٢٨٦).وأبو داود (٤ / ٣٧٩).

(٢) المصدر نفسه .

«من حلف بغير الله فقد أشرك» وقوله: «شارب الخمر كعابد وثن» . وأشباه هذا مما أريد به التشديد في الوعيد، وهو أصوب القولين، والله أعلم»[1].

وعلماء المذهب على هذا .

ولا يفسِّق مسلمًا ، فإذا فسَّقه بما ليس مفسقًّا ، فسق .

ويحرم لعن كافر معين.

يفرق المذهب بين العموم والتعيين ، فلعن الله اليهود والنصارى عمومًا جائز ، قال تعالى: ﴿فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩] وقال: ﴿إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤]، لكن تعيين الكافر المعين بلعن لا يجوز .

(١) المغني شرح الخرقي (٢ / ٣٣٢).

فصل

في معنى القديم والعالم والمستحيل لذاته

والقديم: ما لا أول لوجوده، ولم يسبقه عدم، ويراد به: المتقدم، وإن سبقه العدم .

القديم : يطلق على الموجود الذي لا يكون وجوده من غيره، وهو القديم بالذات، ويطلق القديم على الموجود الذي ليس وجوده مسبوقا بالعدم [1] .

وقالوا : إنه لا أول لوجوده ، وإن الذي يُخَصُّ بهذه التسمية هو الله تعالى دون سائر الموجودات[2] .

والعالَم: كل موجود سوى الله تعالى وصفاته.

العالَم : عبارة عن كل موجود سوى الله تعالى[3] .

والمستحيل لذاته: غير ممكن ، ولا مقدور، وإلا صار ممكنًا.

المستحيل : الذي يتعذر وجوده في نفسه .

ويقسم إلى قسمين :

مستحيل لذاته : غير ممكن ، ولا مقدور، وإلا صار ممكنًا.

المستحيل لغيره : هو ما يمتنع وجوده؛ لاستلزامه الممتنع، لا لكون تصور وقوعه محالاً في العقل .

مثل التكليف بما تعلق علم الله الأزلي بعدم وقوعه، كتكليف أبي لهب بالإيمان، مع علم الله أنه لن يؤمن . ومثّله بعضهم بما تقضي العادة باستحالته كالجري من المريض [4].

---

(١) التعريفات (١٧٢).
(٢) الحدود الكلامية (٢ / ١٦٤).
(٣) المصدر نفسه (٢ / ٤٨).
(٤) انظر : شرح مختصر الروضة للطوفي (١ /٥٧، ٢٢٦) ، حاشية العطار على شرح المحلي (١ /١٠٠) ، التحبير للمرداوي (٣ /١١٣٢) .

﴿ الجائز والدور والتسلسل ﴾

الجائز: ما جاز اجتماعه واقترافه، وهو شرعاً: ما أذن فيه الشرع.

ويطلق الجائز على المباح وهو من اسمائه، وعلى ما لا يمتنع شرعَا، وما لا يمتنع عقلًا – فيعم الواجب والممكن الخاص – وعلى ما لا يمتنع وجوده وعدمه – وهو ممكن خاص، أخص مما قبله – شرعا وعقلا على ما يشك أنه لا يمتنع، وعلى ما يشك أنه استوى وجوده وعدمه(١).

والدَّور: توقف كل شيئين على الآخر .

توقف الشيء على ما تُوقِّف عليه .

هو توقف الشيء على ما يتوقف عليه، ويسمى: الدور المصرح، كما يتوقف "أ" على "ب"، وبالعكس، أو بمراتب، ويسمى: الدور المضمر، كما يتوقف"أ" على "ب"، و "ب" على "ج"، و "ج" على "أ"، والفرق بين الدور وبين تعريف الشيء بنفسه هو أنه في الدور يلزم تقدمه عليها بمرتبتين، إن كان صريحا، وفي تعريف الشيء بنفسه يلزم تقدمه على نفسه بمرتبة واحدة(٢) .

والدور نوعان :

أحدهما : الدور القبلي السبقي، فهذا ممتنع باتفاق العقلاء، مثل أن يقال لا يكون هذا إلا بعد ذاك، ولا يكون ذاك إلا بعد هذا، فهذا ممتنع باتفاق العقلاء .

والآخر : الدور المعي الاقتراني، مثل أن يقال لا يكون هذا إلا مع ذاك، لا قبله، ولا بعده، فهذا جائز، كما إذا قيل لا تكون الأبوة إلا مع البنوة(٣) .

والتسلسل: ترتيب أمور غير متناهية .

وأقسامه أربعة: لأنه لا يخفى؛ إما إن يكون في الآحاد المجتمعة في الوجود، أو لم يكن فيها، كالتسلسل في الحوادث والأول إما أن يكون فيها ترتيب أو لا، والثاني كالتسلسل في النفوس الناطقة، والأول إما أن يكون ذلك الترتيب طبيعيا كالتسلسل في العلل والمعلولات والصفات

---

(١) أصول الفقه لابن مفلح (١ / ٢٤١).
(٢) التعريفات (١٠٥).
(٣) شرح مختصر الروضة للطوفي (٣١٠/٢) ، التحبير للمرداوي (٣٠٩١/٦).

والموصفات، أو وضعيا كالتسلسل في الأجسام، والمستحيل عند الحكيم الأخير دون الأولين[1] .

كقوله لزوجته: أنت طالق، وكلما طلقت فأنت طالق بعدها، فتطلق بالأولى، ثم تقع عليها الثانية بوقوع الأولى فهي شرط لها، ثم تقع الثالثة بوقوع الثانية، والرابعة بالثالثة، وهكذا، فهذا تسلسل.

(١) شرح مختصر الروضة للطوفي (٣١٠/٢) ، التحبير للمرداوي (٣٠٩١/٦).

التتمة

أسلم الطرق التسليم، فما سلم دين من لم يُسَلِّم لله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ورد علم ما اشتبه إلى عالمه ، ومن أراد علم ما يمتنع علمه، حجبه مرامه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان، فيتردد بين الإقرار والإنكار، شاكًّا زائغاً متحيراً، ولا مؤمناً صادقاً، ولا جاحداً مكذباً، ولا مؤمنًا محققاً.

تتمة ما يتعلق بالمقصد الأول وهو إجمال اعتقاد أهل السنة والجماعة الحنابلة الأثرية ، وما ذكره المصنف رحمه الله تعالى هو نص ابن حمدان رحمه الله .

أسلم الطرق التسليم.

ومعنى قوله : أي أسلم الأقوال العقدية بين المؤولة ، والمشبهة ، والمعطلة ، والمجسمة ، هو التسليم : هو الانقياد لأمر الله تعالى وترك الاعتراض فيما لا يلائم(١).

والمراد التسليم لنصوص القرآن وصحيح السنة في مسائل الأسماء والصفات .

ورد علم ما اشتبه إلى عالمه .

وهذا مذهب الصحابة والتابعين وتابعيهم وما ذهب إليه الإمام أحمد رضي الله عنهم أجمعين.

وهو وجوب الوقوف على قول الله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾(٢).

ولم يُنقل خلاف ذلك عن الصحابة رضي الله عنهم .

والمحكم : ما استقل بنفسه ولم يحتج لبيان .

والمتشابه : ما احتاج إلى بيان ، وهذا ظاهر كلام الإمام أحمد رضي الله عنه .

قال ابن هانئ : قلت لأبي عبد الله كيف للرجل أن يعرف المتشابه من المحكم قال : « المتشابه يكون في موضع كذا وفي موضع كذا ، مختلف.

والمحكم الذي ليس فيه اختلاف»(٣) .

والمتشابه: ما ورد في صفات الله –سبحانه– مما يجب الإيمان به، ويحرم التعرض لتأويله، كقوله –تعالى–: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)، (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ، و(لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) ، (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ) و (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا) .

---

(١) التعريفات (٥٧).
(٢) آل عمران : الآية (٧).
(٣) مسائل ابن هانئ (٩٩١٧).

فهذا اتفق السلف –رحمهم الله– على الإقرار به، وإمراره على وجهه وترك تأويله.

فإن الله –سبحانه– ذم المبتغين لتأويله، وقرنهم –في الذم– بالذين يبتغون الفتنة، وسماهم أهل زيغ »[1].

ومن أراد علم ما يمتنع علمه، حجبه مرامه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان، فيتردد بين الإقرار والإنكار، شاكًّا زائغاً متحيراً، ولا مؤمناً صادقاً، ولا جاحداً مكذباً، ولا مؤمنًا محققاً.

ومن أراد علم ما يمتنع علمه :

أي من بحث فيما يعجز عن العلم به ، ويمتنع وهو معرفة كنه صفات الله تعالى .

وعقوبته بسبب إرادته العلم المختص بالله سبحانه ، حجبه مرامه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان، فيتردد بين الإقرار والإنكار، شاكًّا زائغاً متحيراً، ولا مؤمناً صادقاً، ولا جاحداً مكذباً، ولا مؤمنًا محققاً.

ومن لم يتوقَّ النفي والتشبيه ضل، والتعمق في الفكر ذريعة الخذلان، وسُلَّم الحرمان ودرجة الطغيان، ومادة التوهان والولهان، فإنه يفتح باب الحيرة غالبًا، وقلَّ أن يكون ملازمه إلا خائبًا.

يتوقَّ : أصلها من الوقاية ، أي اجتنبه .

النفي : وهو نفي صفات الله تعالى ومذهب المعطلة المعتزلة .

والتشبيه : وهو تشبيه صفات الله تعالى بخلقه تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا ، وذلك بتفسير المعاني اللغوية للصفات وهم الكرامية .

(١) روضة الناظر (١ / ٢٠٦).

والأمن واليأس ينقلان عن الملة، وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة.

والمراد بالأمن من مكر الله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[1].

والمكر في اللغة : أصله الستر، يقال: مكر اللَّيْلُ، أي أظلم وستر بظلمته ما فيه[2].

وقد دلت الآية على النهي عن الأمن من مكر الله تعالى .

ومعنى: «مَكْرَ اللَّهِ» أي إضافة المخلوق إلى الخَالقِ كقولهم: ناقة الله، وبيتُ الله، والمرادُ بشهِ فعلٌ يعاقب به الكفرة، وأضيف إلى الله لما كان عقوبة الذَّنْبِ، فإنَّ العرب تسمِّي العقوبة على أي جهة كانت باسم الذَّنْبِ الذي وقعت عليه العقوبة [3].

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [4].

وروي عن ابن مسعود أنه قال: « الكبائِر أربع: الإشراك بالله، والأمن لمكر الله، والقنوط من رحمة الله، والإياس من روح الله »[5].

من رحمة الله، قاله ابن عباس[6].

قال ابن عطية:« اليأس من رحمة الله وتفريجه من صفة الكافرين. إذ فيه إما التكذيب بالربوبية، وإما الجهل بصفات الله تعالى»[7] .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن حكمهما كبيرة من الكبائر .

---

(١) روضة الناظر (١ / ٢٠٦).
(٢) اللباب في علوم الكتاب (٥ / ٢٦٤).
(٣) المصدر نفسه (٥٩ / ٢٣٧).
(٤) روضة الناظر (١ / ٢٠٦).
(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٦ / ١١١٢).
(٦) زاد المسير في علم التفسير (٢ / ٤٦٦).
(٧) المحرر الوجيز لابن عطية (٤ / ٣٣٨).

فإنه بين الغلو والتقصير، والتشبيه والتعطيل ، وبين الجبر والقدر ، فعليك يا أخي اتباع السنة والآثار، دون الافتكار والابتكار، فإن قليل ذلك مع الفطنة كثير، والممعن في التعمق مذموم، والحريص على التوغل في اللهو محروم، والإسراف في الجدال يوجب عداوة الرجال، وينشر الفتن، ويولد المحن، ويقلل الهيبة، ويكثر الخيبة، فإن الله سبحانه لا تفهمه الأفهام ، ولا تتوهمه الأوهام ، فعليك بطلب الحق ، والصدق، والتوقف معهما، وترك التغير عنهما، واجتهد في عدم الدخول فيما لا يلزمك، فإنه يلزم منه همُّك وندمك، فاستنصح يا أخي فيما قربت إليك وبذلك جهدي في نصحك؛ شفقة عليك؛ فإنه أصوب وأثوب، وأسلم وأقوم، والله أعلم.

هذا آخر المقصد الأول.

أنهى رحمه الله تعالى المقصد الأول بنصيحة وجهها للطلبة والقراء .

وبيَّن أن الخوض في الجدل والمناظرات ، يورث العداوة بين المسلمين ، وأن يورث الشحناء والبغضاء ، وسبب لكثرة الفتن .

وعلى المسلم الكف عن مثل هذه المسائل .

﴿ مقدمة المقصد الثاني ﴾

وللكلام على المقصد الثاني: تقدمة:

وهي أن طوائف أهل السنة ثلاثة: أشاعرة، وحنابلة، وماتريدية .

بدليل عطف العلماء الحنابلة على الأشاعرة في كثير من الكتب الكلامية ، وجميع كتب الحنابلة، والعطف يقتضي المغايرة، وكيف يصح إدخال الحنابلة في الأشاعرة؟.

مع أنه قد ذكر ابن السبكي في طبقات الشافعية ، أن الشيخ أبا الحسن الأشعري ولد سنة ستين ومائتين ، بعد وفاة الأمام أحمد بعشرين سنة ، فكيف يصح نسبة الحنابلة إلى اعتقادهم؟ مع أنهم منذ زمن الإمام أحمد "رضي الله عنه" إلى زماننا هذا، لم يزالوا إلى اعتقاد إمامهم ، الذي هو معتقد السلف، كبقية الأئمة الأربعة .

في هذا المقصد :

١. الرد على من زعم أن الحنابلة يُنَسبون في الإعتقاد إلى الأشاعرة .

٢. بيان أن طوائف أهل السنة ثلاثة .

أما من زعم أنَّ الحنابلة منتسبون في الإعتقاد للأشاعرة فلا يصح لأدلة ذكرها المصنف :

أولًا : ذُكِرَ في المصنفات العقدية أسماء الطوائف الثلاث ، الحنابلة والأشاعرة والماتريدية ، ومنها ماذكره ابن عساكر .

ودليل ذلك القاعدة النحوية : العطف يقتضي المغايرة .

ثانيًا : أن ولادة الإمام الأشعري سنة (٢٦٠ هـ) بعد وفاة الإمام أحمد ﷺ .

وأضفنا إلى ما تقدم من الأدلة تتميمًا لها :

ثالثًا : أن الحنابلة في اعتقادهم لا يجوز عندهم التأويل ، والأشاعرة خلاف ذلك.

رابعًا : الحنابلة يعتقدون أن كلام الله تعالى حرف وصوت ، والأشاعرة خلاف ذلك.

خامسًا : تصريح الإمام أبي الحسن الأشعري بأنه على مذهب أهل الحديث ومنهم الإمام أحمد رضي الله عنه .

قال : « ولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها، التمسك بكتاب الله ربنا عز وجل، وبسنة نبينا محمد ﷺ ، وما روى عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل – نضر الله وجهه ورفع

درجته وأجزل مثوبته – قائلون، ولما خالف قوله مخالفون؛ لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل، الذي أبان الله به الحق، ودفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيع الزائغين، وشك الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مقدم، وجليل معظم، وكبير مفهم »[1] .

والخلاف بينهم في قضايا أكثر مما تقدم .

فإن قيل : فضلاء الحنابلة وافقوا الأشاعرة .

قلنا : هذا اللقب أطلقوه على ابن عقيل وابن الجوزي رحمهما الله .

أما ابن عقيل فقد تاب كما نص رحمه الله ونقل عنه ، ثم صنف في الاعتقاد الحنبلي وضمنها ردودًا على الأشاعرة .

وأما ابن الجوزي فقد وافق الأشاعرة في بعض المسائل في كتابه دفع التشبيه ، وقام عليه الحنابلة وأنكروا عليه وشددوا في الإنكار .

بيان أن طوائف أهل السنة ثلاثة .

أولها : الحنابلة الأثرية ، وهم اتباع الإمام أحمد بن حنبل ﷺ .

ثانيها : الأشاعرة ، وهم أتباع الإمام أبي الحسن الأشعري.

ثالثها : الماتريدية ، وهم أتباع الإمام أبي منصور الماتريدي .

وهذا التقسيم من جهة المذاهب العقدية عند أهل السنة عامة .

(١) الإبانة عن أصول الديانة (٢١).

أما الدليل على كون الأشاعرة والماتريدية من أهل السنة والجماعة :

أولًا . التأويل : فهم معذورون بالتأويل ، وكون أئمتهم من المجتهدين وهم من علماء أهل السنة والجماعة وهم كثر رحم الله من مات منهم .

ثانيًا . ادخالهم من قبل علماء المذهب بهذا المسمى ، عملًا ، كما فعل الموفق في جهاده تحت راية صلاح الدين رحمه الله الأشعري ، وابن تيمية في جهاده تحت راية محمد بن قلاوون ، وموقف علماء المذهب كالكرمي مع الدولة العثمانية .

ثالثًا . واقع الأمة وبِنيتها مكونة من هذه المذاهب العقدية الثلاثة .

فإن قيل ما بال الخلاف العقدي بين الحنابلة والأشاعرة ؟.

قلنا : الخلاف موجود بين المذهبين ، وهو خلاف حقيقي ويظهر في مصنفات المذهبين .

ولا ينفي دخول المذاهب الثلاثة في مسمى أهل السنة والجماعة الخلاف بينهم .

وفي المقابل هناك أصول اعتقاد متفقين عليها بين الطوائف الثلاث»[(1)] .

من حيث تسليم آيات الصفات، وعدم تأويلها، ألا ترى إلى جواب مالك، لما سئل عن الاستواء.

ذكر المصنف اعتقاد الحنابلة أنهم على اعتقاد الإمام أحمد رضي الله عنه .

والحنابلة متبعون للسلف ومنهم الأئمة الأربعة .

فالحنابلة الأصل عندهم في الإعتقاد التسليم للنصوص من الكتاب والسنة ، وتحريم تأويلها ، مستدلًا برواية الإمام مالك .

(١) انظر المنهج الأحمد (٤٣ _ ٤٤).

المقصد الثاني

مدخل

المقصد الثاني: في مسائل وقع فيها الخلاف بين الحنابلة والأشاعرة.

أولًا: الاستواء

منها : أننا نؤمن بأن الله تعالى مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، من غير تأويل ؛ فعن أم سلمة، رضي الله عنها ، جواب في الاستواء .

صدر المصنف رحمه الله المقصد الثاني بأهم المسائل التي اختلف فيها الحنابلة والأشاعرة .

وأولها : الاستواء : اعتقادنا أننا نصدق ونقر ونؤمن ونثبت بأن الله مستوٍ على العرش ، بائن من خلقه ، ونكل علم معنى الاستواء إلى الله تبارك وتعالى ، ولا نتجاوز النص .

وقد ورد الاستواء في سبعة مواضع في كتاب الله تعالى .

الأول : قال تعالى: ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا﴾ [1].

الثاني: قال تعالى: ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾[2].

الثالث: قال تعالى: ﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش﴾ [3].

الرابع: قال تعالى: ﴿ الرحمن على العرش استوى﴾[4].

الخامس: قال تعالى: ﴿ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا﴾[5].

الموضع السادس: في سورة السجدة، قال تعالى: ﴿ الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون﴾[6].

---

(١) الأعراف : الآية (٥٤).
(٢) يونس : الآية (٣)
(٣) الرعد : الآية (٢).
(٤) طه : الآية (٥) .
(٥) الفرقان : الآية (٥٩).
(٦) السجدة : الآية (٤).

الموضع السابع: في سورة الحديد، قال تعالى: ﴿ هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾[١].

ففي هذه الآيات نصت على استواء الله تعالى على العرش .

والكلام على الاستواء يشتمل على أمور :

أحدها : ما نطق اللفظ به وهو الاستواء على العرش .

فالنص دل بدلالة صريحة على الاستواء ولم يرد نص بتفسير زائد على الاستواء .

الثاني : ما هو من مقتضى اللفظ وذلك اختصاصه سبحانه بجهة العلو .

بمعنى أن الله سبحانه مستوٍ على عرشه فوق سماواته بائن من خلقه

الثالث : ما ثبت بطريق المقتضى أيضًا وهو جواز السؤال عنه بـ (أين) ، وهو سؤال يدل على ثبوت جهة الإختصاص .

من غير تأويل ؛ فعن أم سلمة، رضي الله عنها ، جواب في الاستواء .

من غير تأويل : وهو صرف اللفظ عن ظاهره .

وذهب الأشعرية إلى أن لفظة الاستواء لا يحمل على ظاهره ؛ لأنه يؤدي إلى اثبات الجهة ، ويسأل عنه بأين الدالة على الجهة والمكان ، وتأولوه بالاستيلاء .

ويدل على اثبات وصف الاستواء بلفظه :

أن ما ينسب إلى الله تعالى من الصفات الذاتية إنما ينسب إليه على الوجه الذي يليق بذاته ، وهو إثبات وصف يوجب الاختصاص بمقصود ذلك الوجه ، لا على الوجه الذي يليق بالجواهر والأجسام مما يثبت كيفية ولا تتصرف العقول فيه بصورة تعرف للنفس تدل على كمية ، ولا توجب التصاقًا ولا مماسة ولا حلولًا ولا مقدرًا ، من جهة أن الالتصاق ، والمماسة إنما يتصور بين الجسمين ، ولهذا لا لا يوصف الجوهر والجسم مع العرض بأنهما يتماسان ، إنما يقال الجهور يلاصق الجوهر ، ويماسه ، فصار بذلك مجتمعين وجسمًا إلى غير ذلك مما يثبت للجواهر والأجسام[٢] ، وهذا محال في حق الله سبحانه[٣].

---

(١) الحديد : الآية (٤).

(٢) وهذا ابطال للمماسة والملاصقة لمن قال بها من مثبتة معاني الصفات في اللغة العربية ، والاشاعرة قالوا : بأن الإثبات يلزم منه ملاصقة ومماسة .

(٣) انظر الإيضاح لابن الزاغوني (٢٩٩).

فإن قيل :

قلتم إنه قد استوى على العرش بمعنى أنه تجدد له صفة عند خلق العرش ، وهو الاستواء فلذلك تغيير عما كان عليه من الصفة القديمة الواجبة لذاته ، وإذا كان يؤدي إلى هذا التناقض ، وجب ان يتأول الاستواء على العرش بما يقتضيه لنجمع بين هذا القول المنقول ، وبين هذا الأصل المتفق عليه .

قال الحنابلة رحمهم الله :

الكون الموصوف به الذات الكائنة الثابتة بحقيقة الإثبات ليس من شرطها الكون في مكان سواء كانت الذات الكائنة قديمة أو محدثة ، وإنما من شرطها أن تكون قائمة بقوة الألوهية ، إما :

بطريق الاقتران ، وهو ان تقترن القدرة الإلهية بوجود الذات الموجودة ، فتستغني بها عما سواها من المكان بغير واسطة .

أو تستغني بها بواسطة ، وهذا أمر يشترك فيه الخالق والمخلوق ، والدليل على هذا الكون الكلي وهو الدائر المحيط بالعالم فإنه لا في مكان لا من قبيل أنه مستغنٍ فيه بنفسه وذاته ، ولكن لدليلين ، شرعي وعقلي .

الدليل الشرعي :

فما جاء في القرآن الكريم ، فثبت عندنا من إمساكه بالقدرة الإلهية ، وذلك في قوله تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾[(١)].

وقوله تعالى : ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾[(٢)].

وغيرها من الآيات ، فوجب التسليم لاستقلال الكون الكلي ثابتًا بقدرته تعالى .

والدليل العقلي :

أنه قد ثبت في العقل أنه لو احتاج الكون الكلي لكونه ، ذاتًا قائمة بنفسها إلى مكان يحملها ويقلها لافتقر المكان الثاني إلى مكان ثالث ، ويتسلسل ذلك إلى ما لانهاية له ، فيؤدي إلى أن يكون هذا الموجود معدومًا ، وما يؤدي إلى المحال فهو محال ، وإذا ثبت هذا واستقر بما ذكرناه من الدلالة الواضحة عليه ، علمنا بذلك إن ما استحقه من ذلك لم

---

(١) فاطر : الآية (٤١).

(٢) الحج : الآية (٦٥).

يستحقه لأنه وجب له فيما لم ينزل ولا لأنه ذات قديمة ، ولا أنه استحقه لذاته القديمة وإنما استحقه بمعنى هو وصف لذاته ، وهو أنه استغنى بالقدرة الإلهية عن مكان ، والغنى والقدرة وصفان من أوصافه لثبوتهما ثبت استغناؤه عن المكان ، وبهذا الدليل ثبت استغناء الكون الكلي عن مكان (١).

مسألة : قال الأشاعرة :

أثبتم في الاستواء على العرش أحوالًا لا يجوز مثلها في حق الباري تعالى ، وهو يقتضي إثبات المقابلة والمحاذات ، وذلك من صفات الأجسام فإنه لا يتقابل إلا الجسمان ولا يتحاذا إلا الجوهران ، فأما ما ليس بجسم فلا يجوز أن يقابل ما هو جسم ولا يحاذيه .

فإن قلتم : إن الباري بصفة الفوق والعلو ، والعرش بصفة التحت والدنو فهذا بعينه صفة الأجسام والجواهر ، وهذا بعينه الذي دعانا إلى نفي الجهات عنه ، وأنه لا يجوز أن يتخصص بجهة ولا يشار إليه في جهة ولا بما يتقدر بتقدير الجهة ، بحال للعلة التي ذكرنا ، والذي أوردتم يؤدي إلى ذلك وما يؤدي إلى المحال فهو محال .

قلنا (٢):

دعواكم أنه لا تصح المقابلة والمحاذات إلا إذا اشترك المتحاذيان والمتقابلان في الجسمية غير مسلم عندنا ؛ لأنه دعوى مسألة الخلاف فما الدليل عليه ؟.

فإن رددتم ذلك إلى الشاهد : قلنا إنما يرد إلى الشاهد من الغائب بما الاستراك منوط به أو علة فيه أو سبب له ، وهذا لا تجدونه في حق الباري الغائب مع الموجود الشاهد ، ثم لو كان المتعلق في نفي كونه على العرش ما يقتضيه الشاهد من المقابلة والمحاذاة التي تقتضي التساوي بين المتحاذيين في الذاتية ، ويكون هذا دفعًا صحيحًا ؛ لاقتضى ذلك أن نمنع من قولنا إن الباري ذات ثابتة قائمة بنفسها قابلة للصفات ، لأن ما هذه صفته في الشاهد يجب أن يفتقر إلى مكان ، ويجب أن يكون محدثًا إلى غير ذلك مما يوجد في الشاهد للذوات الثابتة القائمة بنفسها الحاملة للصفات ، وهذا أمر قد قطعنا على بطلانه ، وسد باب الاشتراك فيه ، فليكن في مسألتنا مثله ، وهذا جليٌّ واضح لا خفاء به(٣) .

(١) ابن الزاغوني في الايضاح (٣٠٢).
(٢) الحج : الآية (٦٥).
(٣) الايضاح (٣٠٦).

مسألة في جواز القول جهة العلو :

الباري سبحانه مختص بجهة العلو دون غيرها من الجهات[1] ، وهو قول القاضي وجماعة من المحققين ، وهو قياس المذهب قاله أبو يعلى الصغير .

وهو ظاهر كلام الإمام أحمد واختاره تقي الدين رحم الله الجميع .

وامتنع الكثير من أصحابنا القول بأنه في جهة وتعليلهم في ذلك لأن لفظة (في تقتضي الظرفية) والله سبحانه منزه عن الظرفية[2]. .

ونقل ذلك رزق الله أبو محمد التميمي أن الإمام أحمد رضي الله عنه كان لا يقول بالجهة [3].

وجواز القول أن الله تعالى في جهة اتباعًا لما أطلقه في الإضافة إلى نفسه بقوله تعالى :﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾[4] .

وقوله تعالى : ﴿ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ﴾[5] ، وقوله تعالى : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾[6] .

ونحو ذلك من الآيات إلا أنهم أثبتوا ذلك لفظًا ، فأما معنى بمعنى أنها جهة محيطة توجب إحاطة الظرف بالمظروف ، فامتنعوا من ذلك ، لأنه تعالى تنزه أن يحاط به علمًا بقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾[7].

والعلم أوسع وأعم في الإحاطة وأسهل في التناول ، فإذا كان هذا ممتنعًا ، فأولى أن يكون الآخر ممتنعًا [8].

ويجوز على الله الأينية ، فقال : أين الله [9] .

---

(١) الإيضاح (٣٠٧) وتحفة الوصول إلى علم الأصول لابن المبرد (٧٩).
(٢) المصدر نفسه .
(٣) تحفة الوصول إلى علم الأصول لابن المبرد (٧٩).
(٤) الأنعام : الآية (٣) .
(٥) الملك : الآية (١٦) .
(٦) الأنعام : الآية (٣) .
(٧) الإيضاح (٣٠٥) وتحفة الوصول إلى علم الأصول لابن المبرد (٨١).
(٨) النحل : الآية (٥٠) .
(٩) مختصر المعتمد للقاضي (٥٦) .

أقوال السلف من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم :

١.جواب أم سلمة ﵂ : « عن أم سلمة في قوله: {الرحمن على العرش استوى} [طه: ٥]، قالت: الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر»(١).

تصريح الإمام مالك بعدم جواز تأوليه (باستولى)

٢. « قال أبو سليمان داود بن علي قال: كنا عند ابن الأعرابي فأتاه رجل فقال له: ما معنى قول الله ، عز وجل ، {الرحمن على العرش استوى} [طه: ٥] ؟ فقال: هو على عرشه كما أخبر ، عز وجل ، فقال: يا أبا عبد الله ليس هذا معناه ، إنما معناه استولى ، قال: اسكت ما أنت وهذا؟ لا يقال: استولى على الشيء إلا أن يكون له مضاد ، فإذا غلب أحدهما قيل استولى ، أما سمعت النابغة:

ألا لمثلك أو من أنت سابقه ... سبق الجواد إذا استولى على الأمد »(٢).

نص الإمام احمد ﵁ :

وفي رواية حنبل رحمه الله : « أنه سئل عن قوله {وهو معكم أينما كنتم} وقوله {ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم} [المجادلة: ٧] قال: علمه: عالم بالغيب والشهادة ، علمه محيط بالكل ، وربنا على العرش بلا حد ولا صفة ، وسع كرسيه السموات والأرض بعلمه»(٣).

٣. أخبرنا أحمد بن محمد بن موسى بن القاسم، حدثنا أبو بكر الأنباري، قال: ثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن النضر وهو ابن بنت معاوية بن عمرو قال: «كان أبو عبد الله بن الأعرابي جارنا ، وكان ليله أحسن ليل ، وذكر لنا أن ابن أبي داود سأله أتعرف في اللغة: استوى بمعنى استولى؟ فقال: لا أعرف »(٤).

---

(١) انظر الايضاح لابن الزاغوني (٣٠١_ ٣٠٢).
(٢) أخرجه اللالكائي في السنة (٣ / ٤٤٢)
(٣) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (٧ / ١٦٢). واللالكائي في السنة (٣ / ٤٤٠)
(٤) أخرجه اللالكائي في السنة (٣ / ٤٤٣)

كما اشتهر من جواب أبي علي الحسين بن الفضل البجلي[1]، عن الاستواء، فقال: «لا نعرف أنباء الغيب إلا ما كشف لنا، وقد علمنا جل ذكره: أنه استوى على عرشه، لم يخبر كيف استوى، ومن اعتقد أن الله مفتقر للعرش، أو لغيره من المخلوقات، أو أن استواءه على العرش ،كاستواء المخلوقات على كرسيه، فهو ضالٌّ مبتدع، فكان الله ولا زمان ولا مكان، وهو الآن على ما عليه كان » .

ذكر المصنف قول البجلي العلامة المفسر توفي سنة ٢٨٢ هـ ، ونقله غير المصنف كالصابوني رحمه الله تعالى .

(١) الحسين بن الفضل بن عُمير البجلي، مفسر معمر، كان رأساً في معاني القرآن، أصله من الكوفة، وانتقل إلى نيسابور، وأنزله واليها عبد الله بن طاهر في دار اشتراها له سنة ٢١٧ هـ، فأقام فيها يعلم الناس ٦٥ سنة، وكان قبره فيها معروف، الأعلام: (٢ / ٢٥٢).

فصل في اثبات صفة النزول وبيان اعتقاد الحنابلة

ومنها: نزول الرب سبحانه وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، من غير تشبيه بنزول المخلوقين، ولا تمثيل، ولا تكييف .

نزول الله سبحانه وتعالى ثابت بنص رسول الله ﷺ ، من غير تأويل ولا تشبيه ، ولا تكييف ولا تمثيل ولا نزول انتقال ، ولا يخلو العرش منه ، ولا بنزول المخلوقين لأن ذلك صفات الأجسام والله تعالى منزه عن ذلك ، ولا يعقل معناه ، هذا هو اعتقاد السلف وأئمة الإسلام والسنة ، وما دلت عليه الأدلة .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:« ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»(١) .

بل يثبت الحنابلة ما أثبته رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويُمِرُّون الخبر الصحيح الوراد بذكره على ظاهره، ويكلون علمه إلى الله تعالى .

الحنابلة يسلكون مسلك إمامهم وهو مسلك الصحابة والتابعين في اثبات صفات الله تبارك ويمكن معرفة معتقد الحنابلة لمعرفة صفات الله تعالى ، وهي :

١.اثبات ما أثبته رسوله ﷺ .

٢.أن تكون الصفة وردت في حديث صحيح ، فإذا كان الحديث ضعيفًا لا تثبت فيه صفة.

٣.امرار الحديث على ظاهره ، ومعنى ذلك أن لا تؤول .

٤. يكلون العلم بمعنى الصفة إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ.

(١) رواه البخاري (٢ / ٥٣).

أقوال أئمة الحنابلة في صفة النزول :

١. قال حرب: سألت إسحاق بن إبراهيم قلت: حديث النبي ﷺ : « ينزل الله كل ليلة إلى السماء الدنيا » .

قال: نعم، ينزل الله كل ليلة إلى السماء الدنيا، **كما شاء، وكيف شاء، وليس فيه صفة.**

٢. وقال إسحاق: **لا يجوز الخوض في أمر الله كما يجوز الخوض في فعل المخلوقين،** يقول الله تبارك وتعالى: {لا يسأل عما يفعل وهم يسألون (٢٣)} [الأنبياء: ٢٣]، ولا يجوز لأحد أن يتوهم على الخالق بصفاته وفعاله بوهم ما يجوز التفكر والنظر في أمر المخلوقين، وذلك أنه يمكن أن يكون موصوفا بالنزول كل ليلة إذا مضى ثلثها إلى السماء الدنيا كما شاء، **لا يسأل كيف نزوله؛ لأنه الخالق يصنع ما شاء كما شاء** » [١].

٣. قال حنبل: سألت أبا عبد الله أحمد بن حنبل عن الأحاديث التي تروى عن النبي ﷺ :« إن الله ينزل إلى السماء الدنيا» ، فقال أبو عبد الله: نؤمن بها ونصدق بها، ولا نرد شيئا منها إذا كانت أسانيد صحاح، ولا نرد على رسول الله ﷺ قوله، ونعلم أن ما جاء به الرسول حق. حتى قلت لأبي عبد الله: ينزل الله إلى السماء الدنيا، قال: قلت: نزوله بعلمه أم بماذا؟ فقال لي: اسكت عن هذا، ما لك ولهذا، امض الحديث على ما روي، بلا كيف، أولا حد، بما جاءت به الآثار وبما جاء به الكتاب قال الله: {فلا تضربوا لله الأمثال} [النحل: ٧٤] ينزل كيف يشاء؛ بعلمه وقدرته، أحاط بكل شيء علما، لا يبلغ قدره واصف، ولا ينأى عنه هرب هارب» [٢].

٤.وقد قال أحمد في رسالته إلى مسدد: إن الله، عز وجل، ينزل في كل ليلة إلى السماء الدنيا ولا يخلوا من العرش فقد صرح أحمد بالقول إن العرش لا يخلوا منه[٣].

٥.قال البربهاري رحمه الله :

كل ما سمعت من الآثار شيئًا مما لم يبلغه عقلك، نحو قول رسول الله ﷺ : «قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن» ، وقوله: «إن الله تبارك وتعالى ينزل إلى سماء الدنيا» ، وينزل يوم عرفة ويوم القيامة، وأن جهنم لا تزال يُطرح فيها حتى يضع عليها قدمه جل ثناؤه، وقول الله

(١) مسائل حرب (٤١٦).وابن تيمية في الاستقامة (١ / ٧٨).
(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٣ / ٥٠٢).
(٣) المصدر نفسه (١ / ٢٦١).

تعالى للعبد: «إن مشيت إليّ هرولت إليك» ، وقوله: «إن الله تبارك وتعالى ينزل يوم القيامة» ، وقوله: «إن الله خلق آدم على صورته» ، وقول النبي ﷺ : «إني رأيت ربي في أحسن صورة» ، وأشباه هذه الأحاديث، **فعليك بالتسليم والتصديق والتفويض والرضى، ولا تفسر شيئا من هذه بهواك**، فإن الإيمان بهذا واجب، فمن فسر شيئا من هذا بهواه أو رده فهو جهمي» [1] .

٦.قال القاضي أبو يعلى رحمه الله :

«والوجه في ذلك أنه ليس في الأخذ بظاهره ما يحيل صفاته ولا يخرجها عما تستحقه، لأنا لا نحمله على نزول انتقال كما قال: ﴿وأنزلنا من السماء ماء طهورا﴾ **ولا على أن يخلوا منه مكان ويشغل مكان، لأن هذا من صفات الأجسام**، بل نطلق القول فيه كما أطلقناه في قوله: ﴿إنا أنزلناه قرءانا﴾ وليس يمتنع إطلاق ذلك»[2] .

وقال أيضا :

« وليس يمتنع أن نثبت له نزول ذات لا على وجه الانتقال **لا يعقل معناه** »[3].

٧.قال ابن الزاغوني رحمه الله :

« فنحن نثبت وصفه بالنزول إلى سماء الدنيا بالحديث ، ولا نتأوله بما ذكروه ، **ولا نلحقه بنزول الآدميين الذي هو زوال وانتقال من علو إلى أسفل بل نسلم للنقل كما ورد** ، وندفع بالتشبيه لعدم موجبه ، ونمنع من التأويل لارتفاع سببه ، وهذه الرواية المشهورة والمعمول عليها عند عامة المشايخ من أصحابنا »[4] .

---

(١) شرح السنة للبربهاري (٦٨).
(٢) المصدر نفسه .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) الايضاح لابن الزاغوني (٢٩٥ _ ٢٩٦).

٤.قال سيدنا الشيخ عبد القادر الكيلاني رحمه الله :

« وأنه تعالى ينزل في كل ليلة إلى سماء الدنيا، **كيف شاء وكما شاء**، فيغفر لمن أذنب وأخطأ وأجرم وعصى لمن يختار من عباده ويشاء، تبارك وتعالى العلي الأعلى، لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى، لا بمعنى نزول رحمته وثوابه على ما ادعته المعتزلة والأشعرية »(١).

فإن قيل قد ورد قول ابن حامد رحمه الله : " أنه نزول انتقال " .

قلنا : بأن قوله مردود :

١.بقول إمام المذهب : قال حنبل: سألت أبا عبد الله أحمد بن حنبل عن الأحاديث التي تروى عن النبي ﷺ :« إن الله ينزل إلى السماء الدنيا» ، فقال أبو عبد الله: نؤمن بها ونصدق بها، ولا نرد شيئا منها إذا كانت أسانيد صحاح، ولا نرد على رسول الله ﷺ قوله، ونعلم أن ما جاء به الرسول حق. حتى قلت لأبي عبد الله: ينزل الله إلى السماء الدنيا، قال: قلت: نزوله بعلمه أم بماذا؟

فقال لي: اسكت عن هذا وغضب غضبًا شديدًا ، وقال امض الحديث على ورد »(٢).

٢ . وحكى ابن حامد عن طائفة أخرى من أصحابنا أنهم قالوا : « أثبت نزولًا لا يُعقَل معناه ، هل هو بانتقال ؟ أم بغير انتقال ؟ »(٣).

قال القاضي رحمه الله : وهذه الطريقة هي المذهب ، ونص أحمد عليها في مواضع »(٤).

قلت وهذا الأليق بالنصوص فلا يجوز زيادة على ما ورد في الكتاب والسنة الصحيحة.

(١) الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل للشيخ عبد القادر الكيلاني (١٢٥).
(٢) أخرجها القاضي في الروايتين والوجهين (٦٢) .
(٣) تحفة الوصول إلى علم الأصول (٩١).
(٤) المصدر السابق

ويكلون علمه إلى الله تعالى .

وهذا هو مذهب السلف قاطبة ونقل الموفق رحمه الله وغيره عن الأئمة الإجماع على ذلك ، أنهم يثبتون صفات الله تبارك وتعالى ، ولا يحددون لها المعاني اللغوية خلافًا لمن قال بأن صفات الله تعالى معلومة المعنى بالوضع العربي ، وهذا خلاف ماعليه الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

ولنقض هذا المذهب نقول :

١. ثبت أن الصحابة رضي الله عنهم أجمعين أنهم كانوا يقفون على لفظ الجلالة من قول الله تعالى : (وما يعلم تأويله إلا الله تعالى) .

٢. لم يثبت أن الصحابة رضي الله عنهم أجمعين خاضوا في الصفات وفي معانيها .

٣. زَجْرُ الفاروق أمير المؤمنين لصبيغ لأنه خاض في معنى آية وهي من المتشابه .

٤. زجر الإمام مالك رحمه الله ، لمن سأل عن صفة الاستواء وقد تقدم.

٥. نصوص الأئمة في قولهم : لا تفسر ، وقراؤتها تفسيرها .

٦. نصوص الإمام أحمد رضي الله عنه اثبات صفات الباري عزوجل بلا كيف ولا معنى .

٧. من أصول الإمام أحمد ﷺ أن صفات الباري عز وجل تدخل في المتشابه .

٨. نصوص علماء المذهب الصريحة في تفويض معاني الصفات .

﴿ والمجيء والإتيان ﴾

وكذلك ما أنزل الله عز اسمه في كتابه، من ذكر المجيء والإتيان ، المذكورين في قوله تعالى: {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ} ٤الآية، وفي قوله: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمْ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنْ الْغَمَامِ} ٥ الآية.

وما جاء في كتاب الله تعالى من ذكر صفة المجيء والإتيان فنحن نثبتها ونؤمن بها ونقر بها ونمرها كما جاءت بدون تأويل أو تشبيه .

ولا يلزم في مجيئه إلى انتقال وزوال لأن دواعي ذلك وموجبه لا يوجد في حقه فأثبتنا المجيء ومنعنا ما يتوهم في حقه مما يلزم في حق المخلوقين لأنهم في حاجة إلى ذلك .

فإن قيل : قد وردت رواية عن الإمام أحمد ﷺ بتأويل المجيء بقدرته .

وقد قال أحمد في رواية حنبل في قوله: « {وجاء ربك} ، قال: قدرته .

جوابنا عن هذه الرواية :

١.أن الإمام أحمد ﷺ مات على اثبات المجيء والإتيان دون تأويل .

قد قال أحمد في رواية أبي طالب: « {هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة} {وجاء ربك والملك صفا صفا} فمن قال أن الله لا يرى فقد كفر، وظاهر هذا أن أحمد أثبت مجيء ذاته، لأنه احتج بذلك على جواز رؤيته، وإنما يحتج بذلك على جواز رؤيته إذا كان الإتيان والمجيء مضافا إلى الذات »(١) .

٢. أن التأويل مخالف لما عليه الإمام ومن سبقه من شيوخه من أصول الاعتقاد .

٣. قال أبو إسحاق بن شاقلا: هذا غلط من حنبل لا شك فيه »(٢).

٤. عامة علماء المذهب على اثبات صفة المجيء دون تأويل وتفويض معناه إلى الله تعالى .

---

(١) ابطال التأويلات (١٣٢).
(٢) المصدر السابق .

ونؤمن بذلك بلا كيف، فلو شاء سبحانه أن يبين لنا كيفية ذلك لفعل، فانتهينا إلى ما أحكمه، وكففنا عن الذي يتشابه.

وتتميمًا لبيان معتقد الحنابلة اهل السنة والجماعة قال نؤمن بذلك بلا كيف .

والكيف : يسأل بها عن الحال من قعود واضجاع ونحو ذلك وهذا ممتنع في حق الباري عزوجل.

فلو شاء الله أن يبيِّن الكيفية لبيَّنها ، كما بيَّن شريعته قال سبحانه :﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[1].

وانتهينا إلى ما احكمه وبينه في كتابه اقتداء بصالح سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

(١) مريم : الآية (٦٤).

أقوال أئمة الإسلام والسنة في البدع وأهلها

وقال مالك رضي الله عنه: « إياكم والبدع ، قيل: وما البدع؟ قال: أهل البدع: الذين يتكلمون في أسماء الله تعالى وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته، لا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون»(1).

كان الإمام مالك شديدًا على المبتدعة الذين يخوضون في صفات الله تعالى ، وفيها رد على من يزعم معرفة معانيها .

والروايات التي وردت كثيرة منها :

١. « قال جعفر بن ميمون قال: سئل مالك بن أنس عن قوله: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه:٥] كيف استوى؟ قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا ضالاً، وأَمر به أن يُخرج من مجلسه »(2).

٢. « عن جعفر بن عبد الله قال: جاء رجل إلى مالك بن أنس رحمه الله يعني يسأله عن قوله: {الرحمن على العرش استوى} [طه:٥]، قال: فما رأيته وجد من شيء كوجده من مقالته، وعلاه الرحضاء وأطرق القوم فجعلوا ينظرون الأمر به فيه ثم سري عن مالك رحمه الله فقال: الكيف غير معلوم، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وإني لأخاف أن تكون ضالا، ثم أمر به فأخرج »(3).

٣. « وسئل أبو علي الحسين بن فضل البجلي عن الاستواء وقيل له: كيف استوى على عرشه؟ فقال رحمه الله: إنا لا نعرف من أنباء الغيب إلا مقدار ما كشف لنا، وقد أعلمنا جل ذكره أنه استوى على عرشه، ولم يخبرنا كيف استوى »(4).

وغيرها من الروايات .

---

(١) شرح السنة للبغوي (١ / ٢١٧).
(٢) اعتقاد السلف وأصحاب الحديث (١٨١)
(٣) المصدر نفسه (١٨٢).
(٤) المصدر نفسه (١٨٥).

وفي صحف إدريس: « لا تروموا أن تحيطوا بالله خبرة ، فإنه أعظم وأعلى أن تدركه فطن المخلوقين» [1].

والفطن : هو الفهم .

قال الشافعي رحمه الله تعالى: « أن يلقَ الله العبد بكل ذنب ما عدا الشرك، أحب إليَّ من أن يلقاه بشيء من الأهواء»[2] .

قال عمر بن العزيز ، لرجل سأله عن شيء من الأهواء، فقال: « الزم دين الصبيان في الكُتَّاب؛ والأعراب، والْهَ[3] عما سوى ذلك»[4] .

مراده بذلك ، عدم البحث والتقصي ، واستعمال العقل وعلم الكلام في معرفة عقائد المسلمين .

قال ابن عيينة: « كل ما وصف الله به نفسه في كتابه، فتفسيره تلاوته ، والسكوت عنه»[5] .

فتفسيره تلاوته ، وسواء كان التفسير بالمعنى اللغوي أو التأويل بغيد دليل .

قال بعض السلف : « قدم الإسلام لا يثبت إلا على قنطرة التسليم»[6] .

والمراد به : التسليم لنصوص القرآن والسنة الصحيحة الي وردت فيها صفات الله تبارك وتعالى وعدم تجاوزها .

---

(١) فتح الرحمن في تفسير القرآن (٤ / ٢٦٠).
(٢) أخرجه البيهقي في الإعتقاد (١٥٨) بلفظ (الهوى) .
(٣) منشغلا عن ذلك .
(٤) اخرجه الهروي في ذم الكلام (مخطوط).
(٥) اخرجه البيهقي في (١١٨).
(٦) اخرجه البغوي في شرح السنة (١ / ١٧١).

فقد قال الإمام الشافعي، رحمه الله تعالى: « آمنت بالله، وبما جاء عن الله، وعلى مراد الله، وآمنت برسول الله صلى الله عليه وسلم، وبماء جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم»(١) ، نقله عنه الإمام أبو الحسن اللبوذي الحنبلي(٢) في كتابه: اللمع في السنن والبدع ، قال بعد: وعلى هذا درج أئمة السلف(٣).

وسيأتي في التمة الخامسة ، ذكر كلام الشيخ الأشعري، وأنه موافق للإمام أحمد في الاعتقاد، وأنه يجري المتشابهات على ما قاله الله من غير تصرف ولا تأويل، كما هو مذهب السلف، وعليه: فلا خوف ولا نزاع، والحمد لله .

والمقصود أنه لا خلاف مع الإمام أبي الحسن الأشعري في مسألة دخول الصفات في المتشابه وتفويض معانيها ، إلا مع الأشاعرة المتأخرين كابن فورك، والرازي ، وعبد الظاهر البغدادي، والغزالي، وإمام الحرمين .

(١) اخرجه البيهقي في (١١٨).
(٢) ثبت ذلك في مخطوط بالمكتبة الظاهرية الأهلية بدمشق.
(٣) اخرجه البيهقي في (١١٨).

المقصد الثالث

﴿ في مسألة الكلام ﴾

مسألة الكلام

المراد بها كلام الله تعالى ، وتعتبر من أمهات المسائل العقدية التي حصل فيها الخلاف ، فقيض الله لهم الإمام أحمد ﷺ فوقف بوجههم ، وأظهر بدعتهم وزيف قولهم .

ثم ظهرت الأشعرية وإمامهم كان تبعًا لإمامنا في الاعتقاد كما نص هو رحمه الله في مواضع عدة .

ثم حصل الخلاف بين الحنابلة والأشاعرة في مسألة الكلام وهي من المسائل الخلافية الكبرى ، وسيأتي رد المصنف المواهبي رحمه الله مفصلًا على مقالاتهم .

وذكر ما نقل عن الإمام أحمد .

حيث نص على أن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق .

قال أبو بكر المروذي:

وسمعت أبا عبد الله يقول: « ولا نرضى أن نقول: كلام الله ونسكت حتى نقول: إنه غير مخلوق»[1].

فنقول: القرآن كلام الله، نزله على محمد صلى الله عليه وسلم، معجز بنفسه، متعبد بتلاوته .

والكلام حقيقة : الأصوات والحروف، وإن سمي به المعنى النفسي، وهو نسبة بين مفردين قائمة بالمتكلم ، فمجاز .

يعني أنه متى أطلق الكلام على المعنى النفسي فإطلاقه عليه يكون مجاز .

(١) الإبانة لابن بطة (٥ / ٣١٤).

فلم يزل الله متكلمًا كيف شاء، إذا شاء، بلا كيف، يأمر بما يشاء ويحكم.

وهذا مذهب الإمام أحمد وأصحابه .

قال حنبل رحمه الله : « وسمعت أبا عبد الله، قال: " {وكلم الله موسى تكليما} [النساء: ١٦٤]، فأثبت الكلام لموسى كرامة منه لموسى، ثم قال بعد كلامه {تكليما} [النساء: ١٦٤]: قلت لأبي عبد الله: يكلم عبده يوم القيامة؟ قال: نعم، فمن يقضي بين الخلق إلا الله؟ يكلم الله عبده ويسأله، الله متكلم، لم يزل الله يأمر بما شاء ويحكم، وليس لله عدل ولا مثل كيف شاء وأنى شاء »(١) .

وفي لفظ: « بل نقول إن الله تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء ولا نقول إنه قد كان و لا يتكلم حتى خلق كلاما »(٢) .

و نقل حنبل عنه في رواية طويلة أخرجها أبو بكر الخلال: «لم يزل الله عالما متكلما »(٣).

ومذهب المحدثين بلا شك، محمد بن إسماعيل البخاري وجمهور العلماء، قاله ابن مفلح في أصوله، وابن قاضي الجبل .

قال الشيخ تقي الدين : المعروف عند جماهير أهل السنة أن الله يتكلم بصوت، وهو قول جماهير فرق الأمة .

قال يعقوب بن بختان: سئل أبو عبد الله عمن زعم أن الله لم يتكلم بصوت، قال: « بلى يتكلم سبحانه بصوت » (٤).

فنقول: القرآن كلام الله، نزله على محمد صلى الله عليه وسلم، معجز بنفسه، متعبد بتلاوته .

قوله : القرآن : لغة: الجمع. تقول: قرأت الشيء قرآنًا، إذا جمعت بعضه إلى بعض.

قوله : كلام الله : ليخرج به كلام غيره .

قوله : نزله على محمد ﷺ :

الذي أنزله الله تعالى على نبيه بألفاظه ومعانيه

---

(١) الإبانة (٦ / ٣٢٠).
(٢) الرد على الجهمية والزنادقة (١٣٩).
(٣) السنة للخلال (٦ / ٣٣) .
(٤) طبقات الحنابلة (٢ / ٥٥٦).

فقولنا: معجز بنفسه :

أي: مراد به الإعجاز، كما أن المقصود به بيان الأحكام، والمواعظ، وقص أخبار من قص في القرآن من الأمم، دليل التحدي: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ (١).

، أي: فأتوا بمثله إن ادَّعيتم القدرة، فلما عجزوا، تحداهم بعشر سور، ثم بسورة، ثم بحديث مثله .

وقولنا: متعبد بتلاوته؛ ودلائله .

لتخرج الآيات المنسوخة اللفظ، سواء بقي حكمها أما لا، وصارت بعد النسخ غير قرآن؛ لسقوط التعبد بتلاوتها .

قولنا: والكتابة كلام حقيقة؛ ودلائله

لقول عائشة: "ما بين دفتي المصحف كلام الله، وأن من كتب صريح الطلاق يقع عليه الطلاق بذلك، ولو لم ينوه على الصحيح .

وعلى هذا بنيت أحكام عند الحنابلة منها الطلاق ن فإذا كتب لها بالطلاق طلقت في الحال ، ويثبت الحكم بشاهدين(٢).

نص على ذلك الإمام أحمد قال : « وقال: سألت أحمد، قلت: امرأة أتاها كتاب من زوجها بخطه وخاتمه بالطلاق، هل تزوج؟

قال: لا حتى يشهد عندها شهود عدول.

قيل: فإن شهد حامل الكتاب؟

قال: لا، إلا شاهدين »(٣).

---

(١) الآية (٦) .
(٢) الإبانة لابن بطة (٥ / ٣١٤).
(٣) مسائل حرب (١٤١).

وقولنا: ولم يزل الله متكلمًا .

كيف شاء، إذا شاء، بلا كيف، يأمر بما يشاء ، ويحكم .

فقد قال الأئمة: إن الله سبحانه وتعالى يتكلم بمشيئته وقدرته، بمعنى أنه لم يزل متكلمًا إذا شاء، فإن الكلام صفة كمال، ومن يتكلم أكمل ممن لم يتكلم، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته، أكمل ممن يكون الكلام ممكنًا له.

وقال قوم : لا يتكلم بمشيئته وقدرته، بل كلامه لازم لذاته كحياته .

قال ابن المبرد رحمه الله :

« وعندي أن الأمر على غير ما ذكره القاضي[١] ، وأن الأمر في ذلك شيئين :

الأول : القرآن كلام الله قديم ن وهذا ليس له مدخل في كلام الإمام أحمد .

الثاني : أن كلام الله عز وجل بالقرآن وبغير القرآن قديم ، وأن الله لم يزل متكلمًا ، ولا نقول الكلام صفة حدثت له ، فهو لم يزل متكلمًا من حيث الجملة من غير نظر إلى شيء ، وقول أحمد : (متى شاء) . يعني متى شاء أن يتكلم بشيء تكلم به ، مع ان كلامه عز وجل الذي هو ضد ما لم يتكلم قديم ، وأنه إذا شاء تكلم ، وإذا شاء لم يتكلم وأن كلامه ليس بمتصل منه في سائر الأوقات ، بل إذا شاء الكلام تكلم ، مع أن وصفه بأنه متكلم قديم ، وأنه إذا شاء تكلم بشيء ، وإذا شاء تكلم بغيره ، وأما ما قالوه : يلزم منه أنه متكلم في كل الأوقات ، وأن كلامه متصل مستمر على سائر الأوقات ، وهذا يرده النقل والعقل ، وأيضًا فإن قول النبي ﷺ : « إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء كجر السلسلة على الصفوان » . هذا يدل على أن له أوقاتًا لا يتكلم فيها ، وأنه لا يتكلم إلا إذا شاء مع أن وصفه بأنه متكلم قديم ، وقولهم : يلزم منه إذا تكلم بكلمة لا يزال يقولها ، وليس الأمر كذلك بل يتكلم بشيء وينتهي ويأتي غيره »[٢] .

وعلى هذا سلك ابن النجار وابن المبرد وابن قايد النجدي رحمهم الله تعالى .

---

(١) المقصود أن قول القاضي : كلام الله قديم وقول الإمام أحمد : إذا شاء ، أي يسمعنا .

(٢) تحفة الوصول إلى علم الوصول لابن المبرد (١١٧).

على أنه يتكلم بمشيئته ، وبقدرته ، وكذا قال شيخ الإسلام رحمه الله :

« إن الله يتكلم بمشيئته وقدرته وإن كان مع ذلك قديم النوع – بمعنى أنه لم يزل متكلما إذا شاء »(١).

ومنشأ هذا القول : أمران :

أولًا . فهمهم لرواية الإمام أحمد ﷺ **: قال** « بل نقول إن الله تعالى لم يزل متكلمًا **إذا شاء** و لا نقول إنه قد كان و لا يتكلم حتى خلق كلاما »(٢) .

ولبيان خطأ من فهم أن قوله (إذا شاء) معناه أن كلامه سبحانه بقدرته ومشيئته .

المراد من رواية (إذا شاء) أي : إذا شاء يسمعنا ، وبينه أئمة المذهب قبل شيخ الإسلام وهو الموافق لأصول الإمام .

١ . قال القاضي أبو يعلى رحمه الله : « **معناه إذا شاء يسمعنا إياه ، فعادة المشيئة إلى أسماعنا إياه لا إلى نفس الكلام** ، وكيف يجوز أن يستدل بذلك على الحدث ؟. وقد قال لم يزل متكلمًا ، والمحدث كيف يكون فيما لم يلزم ؟! »(٣) .

٢ . قال القاضي الصغير : « فتنصيص أحمد على أنه متكلم فيما لم يزل في هذه الرواية يقطع كل حِبَال ، ويزيل كل إشكال ، **وتعود المشيئة إلى ماذكره القاضي** »(٤) .

٣ . وسلك الموفق رحمه الله مسلك باقي علماء المذهب فقال : «كلام الله ومن صفات الله تعالى **أنه متكلم بكلام قديم يُسْمِعهُ منه من شاء من خلقه** »(٥) .

٤ . وعند النظر في نصوص الإمام أحمد ﷺ التي وصلت إلينا ، لم نجد عبارة شيخ الإسلام (إن الله يتكلم بمشيئته وقدرته وإن كان مع ذلك قديم النوع).

وفي نفس الوقت نجد أن شيخ الإسلام يشدد على التزام النصوص الواردة وأن لا نتجاوزها بإحداث مصطلحات جديدة .

---

(١) المجموع (١٢ / ٣٧٢).
(٢) الرد على الجهمية والزنادقة (١٣٩).
(٣) تحفة الوصول إلى علم الوصول لابن المبرد (١١٦).
(٤) المصدر نفسه (١١٦).
(٥) لمعة الإعتقاد (١٥).

وقد أخطأ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في نفيه لقول الإمام أحمد ﷺ أن القرآن قديم. حيث قال :

« وكان أئمة السنة كأحمد وأمثاله والبخاري وأمثاله وداود وأمثاله وابن المبارك وأمثاله وابن خزيمة وعثمان بن سعيد الدارمي وابن أبي شيبة وغيرهم متفقين على أن الله يتكلم بمشيئته وقدرته ولم يقل أحد منهم أن القرآن قديم وأول من شهر عنه أنه قال ذلك هو ابن كلاب»(١).

بينما نص الإمام أحمد ﷺ على قدم القرآن في رواية السجزي رحمه الله قال :

« قال أبو عبد الله السجزي: أتيت إلى باب المعتصم: إلى أن قال: قال: يحضر أحمد بن حنبل، فأحضرني فلما وقفت بين يديه وسلم عليه قال: يا أحمد، تكلم ولا تخف، فقال له أحمد: لا، والله لقد دخلت عليك وما في قلبي مثقال ذرة من الفزع، فقال: ما تقول في القرآن؟ .

فقال: كلام الله قديم غير مخلوق(٢).

(١) المصدر السابق (٥٣٣/٥) .
(٢) المسائل التي حلف عليها الإمام أحمد (٤٧).

ثانيًا : قولهم أن كلام الله تعالى صفة فعل وصفة ذات .

أما قولهم بأن كلام الله تعالى صفة فعل فهو مخالف لأصول الإمام أحمد ﷺ ولعامة الحنابلة .

وهذه أقوال علماء المذهب :

قال التميمي رحمه الله :

« وكان يقول إن لله عز و جل كلاما هو به متكلم وذلك **صفة له في ذاته** خالف بها الخرس والبكم والسكوت وامتدح بها نفسه »(١).

قال ابن القاضي أبي يعلى رحمه الله :

« لم يزل ولا يزال متكلماً. **ولا يجوز مفارقته بالعدم لذاته.**

وأنه يُسْمَع تارة من الله عز وجل، وتارة من التالي فالذي يسمعه من الله سبحانه من يتولى خطابه بنفسه لا واسطة ولا ترجمان: كنبينا محمد عليه السلام ليلة المعراج لما كلمه. وموسى على جبل الطور.

فكذلك سبيل من يتولى خطابه بنفسه من ملائكته، ومن عدا ذلك فإنما يسمع كلام الله القديم على الحقيقة من التالي. وهو حرف مفهوم، وصوت مسموع »(٢).

وقال ابن الزاغوني رحمه الله :

فأما الدلالة على **أن الكلام صفة نفسية وليست صفة** فعل وأنه ليس من جنس الأفعال فمن طريقين أحدهما النقل ، والثاني : المعقول .

فأما النقل فمنه الآية التي تقدم ذكرها ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ (٣).

ففرق بين الكلام والقراءة وبين العمل ، ولو كان أحدهما الآخر لما فرق بينهما .

ودليل آخر :قوله تعالى:﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (٤).

فوجه الدليل أنه جعل الفعل إنما هو تحريك اللسان وذلك عين القراءة ، فدل على أنه ليس بمفعول ، إذ لو كان مفعولًا لقال لا تحركه بلسانك ، ليضيف الفعل إليه .

---

(١) اعتقاد الإمام المنبل أبي عبد الله أحمد بن حنبل للتميمي (٢٨).
(٢) الاعتقاد لأبي الحسين محمد بن القاضي أبي يعلى (٢٥).
(٣) يونس : الآية (٦١).
(٤) القيامة : الآية (١٦ _ ١٧).

الطريق الثاني : وهو المعقول فنقول : الحياة مصححة لكون المتكلم متكلمًا ، والكلام يدل على أن المتكلم حي كما يدل العلم على أن العالم حي ، وكما تدل القدرة على أن القادر حي فهذه الصفات كل واحدة منها تدل على حياة الموصوف والحياة شرط مصحح لكل واحدة منها على وجه واحد ووتيرة واحدة ثم هذه الصفات ذاتية وليست بفعلية فليكن الكلام أيضًا كذلك ولا فرق .

ومما يحقق هذا ويوضحه أن الإنسان يجد نفسه في حال كونها متكلمة على خلاف ما يجدها ساكتة وتنفصل إحدى الحالتين عن الأخرى انفصالًا لاريب فيه ولا مرية ، وهذا يدل على أن الكلام صفة ذاتية (١).

قال ابن حمدان رحمه الله :

« والله تعالى قائل ومتكلم، تكلم **ويتكلم بكلام قديم ذاتي** وجودي غير مخلوق ولا محدث ولا حادث، لا يشبه كلام الناس ، لم يزل أمرًا ونهيًا وخبرًا ، وما هو عليه . وقال أحمد: لم يزل الله متكلما كيف شاء بلا تكييف ، وفي لفظ إذا شاء . قال القاضي : إذا شاء أن يسمعنا»(٢).

والقول بأن كلام الله صفة فعل **فقوله كقول المعتزلة** ومن قال بأن كلام الله تعالى صفة ذات فقول الحنابلة .

قال الطوفي رحمه الله :

« فإن قيل: هو حقيقة في العبارات انبنى على أن الكلام صفة فعل أو ذات، **فمن رآه صفة فعل قال: هو مخلوق كالمعتزلة ، ومن رآه صفة ذات قال: هو قديم كالحنابلة** »(٣).

(١) لينظر الإيضاح (٣٥٣).
(٢) نهاية المبتدئين (٢٦) .
(٣) الإشارات الإلهية في المباحث الأصولية (٥٩).

فإن قيل : ما سبب القول بعدم صحة القول بأن الكلام بالمشيئة .

قلنا :

١. لأن صفة الكلام قديمة لا يتطرق إليها الحدوث بشكل من الأشكال ، وذلك لأن حدوث الآحاد يستلزم حدوث الصفة ، وهذا محال وممتنع في حقه تبارك وتعالى ، ويلزم من القول بأن الكلام بالمشيئة لوازم :

الأول : إضافة صفة نقص ، والله سبحانه منزه عن كل نقص فله صفات الكمال .

الثاني : أن الله سبحانه _ تعالى عن ذلك _ يحتاج إلى الكلام فيتكلم ، والله سبحانه منزه عن ذلك فله الأسماء الحسنى والصفات العلى .

٢. أن صفة الكلام من الصفات الواجبة .

والواجب: مالا يتصور العقل عدمه ، أو ما لا يقبل الانتفاء لذاته ، وما قبل العدم أو الانتفاء فليس بواجب بل هو من قبيل الممكنات، ولذا فمن جوز تعلق المشيئة بصفة الكلام بحيث : (إذا شاء تكلم واذا شاء لم تكلم) ، فقد جوّز عليه الوجوب و العدم على السواء، فتكون صفة الكلام ممكنة الوجود لا واجبة الوجود وهذا محال.

فالحنابلة اتفقوا على أن صفة الكلام من الصفات الواجبة، واتفقوا على أن كلام الله تعالى قديم ؛ وهذا يمنع تعلق المشيئة والقدرة بكلام الله تعالى، حيث أن القدرة والمشيئة تتعلقان بالممكن فقط لا الواجب، اضافة الى ذلك وصف القرآن بالقدم ناف لنقيضه كتجدده وحدوثه، فالمشيئة والقدرة تعلقان كما أسلفنا بالإيجاد، فلا تعلق لهما إذن بالقدم لأنه لا بداءة لوجوده [١] .

---

(١) مستفاد وملخص من شرحي الصوتي على الأثر والعين لخصه الشيخ مروان السريحي .

أما القول بأن كلام الله تعالى (صفة ذات وفعل) في نفس الآن ، أخذ به شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله ونسبه إلى السلف كما في المجموع ثم ذكر أن القائلين به من الهشامية والكرامية ، حيث قال :

« وأما " السلف وأئمة السنة " وكثير من أهل الكلام كالهشامية والكرامية وأصحاب أبي معاذ التومني وزهير اليامي وطوائف غير هؤلاء: يقولون: إنه " صفة ذات وفعل " هو يتكلم بمشيئته وقدرته كلاما قائما بذاته »(١). **لزم منه البحث وتحقيق النسبة** .

وإن الوقوف على ما وقف عليه أئمة السلف وعدم الخوض فيما زاد على ماكانوا عليه نجاة للمسلم من الوقوع في مخالفتهم .

قال الأوزاعي في الرجل سئل: أمؤمن أنت؟ فقال: إن المسألة عما سئل بدعة، والشهادة به تعمق لم نكلفه في ديننا ولم يشرعه نبينا ليس لمن يسأل عن ذلك فيه إمام ، القول به جدل، والمنازعة فيه حدث، ولعمري ما شهادتك لنفسك بالتي توجب لك تلك الحقيقة إن لم تكن كذلك ولا تركك الشهادة لنفسك بها بالتي تخرجك من الإيمان، إن كنت كذلك، وإن الذي سألك عن إيمانك، ليس يشك في ذلك منك، ولكنه يريد أن ينازع الله عز وجل علمه في ذلك، حين يزعم أن علمه وعلم الله عز وجل في ذلك سواء، فاصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل فيما قالوا، وكف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح، فإنه يسعك ما وسعهم (٢).

وقد قال الحافظ ابن حجر في آخر نقله للخلاف في مسألة الكلام هل هو صفة فعل أو صفة ذات : « والمحفوظ عن جمهور السلف ترك الخوض في ذلك والتعمق فيه والاقتصار على القول بأن القرآن كلام الله وأنه غير مخلوق ثم السكوت عما وراء ذلك »(٣).

لاسيما وأن شيخ الإسلام تقي الدين يشدد في هذا الأمر ومع ذلك هو من يتناول ذكر هذه المسائل الزائدة عن قواعد الإمام وماقالاته !.

---

(١) مجموع الفتاوى (٦ / ٢١٦).
(٢) الإبانة الكبرى لابن بطة (٢ / ٨٨٢).
(٣) فتح الباري (١٣ / ٤٥٥) .

والناظر في روايات الأئمة وبالأخص قول الإمام أحمد رضي الله عنه كلها تقول القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق وهي أشهر من أن تنقل[1].

والسعيد من سُعِد بقانون أئمة السلف والسنة ، ولم يتجاوز طريقتهم ومسلكهم .

---

(١) يراجع ص (٢٩).

مسألة الحرف والصوت

ثم من هؤلاء من عرف أن الحروف والأصوات لا تكون إلا متعاقبة، والصوت لا يبقي زمانين، فضلًا عن أن يكون قديمًا، فقال: القديم معنى واحد لامتناع معانٍ لا نهاية لها، وامتناع التخصيص بعدد دون عدد، فقالوا: هو معنى واحد ، وقالوا: معنى التوراة والإنجيل والقرآن معنى واحد، ومعنى آية الكرسي ، والدَّين واحد .

قال الحافظ بن حجر رحمه الله في سياق نقله :

« وزعم بعضهم أن هذا هو مراد السلف الذين قالوا ان القرآن ليس بمخلوق وأخذ بقول بن كلاب القابسي والأشعري وأتباعهما وقالوا إذا كان الكلام قديما لعينه لازما لذات الرب وثبت أنه ليس بمخلوق فالحروف ليست قديمة لأنها متعاقبة وما كان مسبوقا بغيره لم يكن قديما والكلام القديم معنى قائم بالذات لا يتعدد ولا يتجزأ بل هو معنى واحد إن عبر عنه بالعربية فهو قرآن أو بالعبرانية فهو توراة مثلا »[١] .

ومنهم من قال: إنه حروف وأصوات قديمة الأعيان، لم تزل ولا تزال، وأن الباء لم تسبق السين ، والسين لم تسبق الميم، وأن الحروف مقرونة ببعضها اقترانًا قديمًا أزليًا، لم يزل ولا يزال، وهي متراتبة في حقيقتها وماهيتها، غير متراتبة في وجودها .

وهو قول السالمية إنه حروف وأصوات قديمة الأعين وهو عين هذه الحروف المكتوبة والأصوات المسموعة [٢].

وقال كثير منهم: إنها مع ذلك شيء واحد، إلى غير ذلك من اللوازم التي يقول جمهور العقلاء : إنها معلومة الفساد بضرورة العقل.

نعم هي مؤثرة للفائدة بالقوة، والعبارة مؤثرة بالفعل، فكانت أولى "بأن تكون" حقيقة، وما يكون مؤثرًا بالقوة مجاز ، انتهى كلامه .

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر (١٣ / ٤٥٥).

(٢) المصدر السابق (١٣ / ٤٩٣) .

كلام الطوفي في الحقيقة والمجاز في كلام الله عز وجل

قال الإمام الطوفي من الحنابلة: إنما كان حقيقة في العبارة ، مجازًا في مدلولها، لوجهين:

أحدهما: أن المتبادر إلى فهم أهل اللغة من إطلاق الكلام ، إنما هو العبارة، والمتبادر دليل الحقيقة.

الثاني: أن الكلام مشتق من الكلم، لتأثيره في نفس السامع، والمؤثر في نفس السامع إنما هو العبارة لا المعاني النفسية بالفعل (١).

ساق المصنف قول الطوفي ــ في شرحه مختصر الروضة ــ في بيان حقيقة الكلام عند الحنابلة.

وسبب ذلك أن الكلام ليس مشتركًا بين العبارة ومدلولها ، فالكلام قديم ، هو الحروف المسموعة ؛ والكلام حقيقة في العبارة ، مجاز في مدلولها ، ثم ذكر الوجهين ، دليلين على ما قرره .

---

(١) شرح مختصر الروضة (٢ / ١٤).

فصل في أدلة السلف على كون الكلام حقيقة الأصوات والحروف

وهو فصل لبيان مذهب الحنابلة والرد على من قال بأن كلام الله تعالى معنى قائم بالنفس.

أدلة : جمع دليل : في اللغة : ما يرشد إلى المطلوب .

والمراد بهذا الفصل ذكر أدلة الحنابلة على أن الكلام حقيقة صوت وحرف .

خلافًا للأشاعرة القائلين : بأن الكلام معنى قائم في النفس والحروف والأصوات عبارة عنه وهي غيره .

والأدلة تنقسم إلى قسمين :

أدلة نقلية : وهي من القرآن والسنة الصحيحة وأقوال الصحابة رضي الله عنهم .

وأدلة عقلية .

ومنها :

قال الله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾[١].

وجه الإستدلال :

أن الذي يتحرك به اللسان إنما هو الحروف والاصوات وذلك أن هذه الآية وردت على سبب ، وهو أن النبي ﷺ كان إذا سمع القرآن من جبريل قرأه معه حرصًا على حفظه فأُمر النبي ﷺ باستماعه من جبريل ثم إنه يقرأه بعد ذلك على سبيل الاتباع له في ذلك وهو ظاهر واضح في أن الذي يتحرك به اللسان هو القرآن الذي سمعه من جبريل ، وليس ذلك هو المعنى القائم في النفس .

وذكر منها :

منه ما روى عبد الله بن مسعود ﷺ ، عن النبي ﷺ أنه قال: « إذا تكلم الله بالوحي ،سمع صوته أهل السماء»[٢].

وجه الدلالة : أن الله يتكلم بكلام وهو بصوت .

---

(١) القيامة : الآية (١٦)

(٢) رواه البخاري (٩ / ١٤١).

وعن أبي هريرة ﷺ ، عن النبي ﷺ : « إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله تعالى ، كأنها – أو قال: كأنه– سلسلة على صفوان»[1].

وفي حديث آخر قال ﷺ : « إذا أراد الله أن يوحي الأمر، تكلم بالوحي، أخذت السموات منه رجفة، –أو قال: رعدة– شديدة، خوفًا من الله تعالى، فإذا سمع ذلك أهل السموات ، صعقوا ، وخروا سجدًا لله، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، عليه الصلاة والسلام، فيكلمه عز وجل من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق، وهو العلى الكبير»[2].

وجه الاستدلال :

قوله كأنه أي القول المسموع سلسلة على صفوان هو مثل قوله في بدء الوحي صلصلة كصلصلة الجرس وهو صوت الملك بالوحي وقد روى بن مردويه من حديث بن مسعود رفعه إذا تكلم الله بالوحي يسمع أهل السماوات صلصلة كصلصلة السلسلة على الصفوان[3].

وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ أحدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾[4].

وقد استدل الإمام أحمد ﷺ بهذه الآية على أن الله تكلم بكلام يسمعه لمن يشاء من خلقه.

قال أبو الفضل: سمعت أبي يقول: « افترقت الجهمية على ثلاث فرق:

فرقة قالوا: القرآن مخلوق ، وفرقة قالوا: كلام الله. وتسكت.

وفرقة قالوا: لفظنا بالقرآن مخلوق.

قال الله عز وجل في كتابه: {فأجره حتى يسمع كلام الله} [التوبة: ٦] فجبريل سمعه من الله، وسمعه النبي ﷺ من جبريل عليه السلام، وسمعه أصحاب النبي ﷺ من النبي فالقرآن كلام الله غير مخلوق »[5].

(١) رواه البخاري (٦ / ١٢٢).
(٢) التوحيد لابن خزيمة (١ / ٣٤٨).
(٣) فتح الباري لابن حجر (٨ / ٥٣٨).
(٤) التوبة : الآية (٦) .
(٥) سيرة الإمام أحمد لصالح (٧٢).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ (١).

والمسموع دائمًا الحروف والأصوات ، لا المعاني، والإشارة بالمثل إلى شيء حاضر، فلو كان كلام الله معنى قائمًا في النفس، كما قالت الأشعرية، لم تصح الإشارة إليه، وما روي عنه ﷺ ، أنه قال: « من قرأ القرآن فأعربه ، فله بكل حرف منه عشر حسنات»(٢). الحديث، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي يطول ذكرها، وسيأتي بعضها.

وجه الدلالة :

أنه القرآن كلام الله تعالى ، وهو حرف كما دل الحديث .

وقد زعم من لا علم له بمذهب الإمام أحمد ﷺ أنه لا توجد رواية نص فيها على الحرف والصوت(٣).

وإليك نصوص الإمام أحمد ﷺ :

١. أَخْبَرَنَا ابن المبارك عَنْ إِبْرَاهِيم البرمكي عَنْ عبد العزيز قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ الخلال حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَلِيّ قَالَ: حَدَّثَنَا يَعْقُوب بْن بختان قَالَ: سئل أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عمن زعم أن اللَّه عَزَّ وَجَلَّ لم يتكلم بصوت قَالَ: « بلى يتكلم سبحانه بصوت »(٤).

٢. وقال الخلال : وأنبأنا أبو بكر المروزي : سمعت أبا عبد الله وقيل له : إن عبد الوهاب قد تكلم وقال : من زعم أن الله كلم موسى بلا صوت فهو جهمي عدو الله وعدو الإسلام ، فتبسم أبو عبد الله وقال : « ما أحسن ما قال ، عافاه الله»(٥) .

---

(١) الإسراء : الآية (٨٨) .
(٢) رواه الطبراني في المعجم الوسيط (٧ / ٣٠٧).والبيهقي في شعب الإيمان (٢ / ٤٢٨).
(٣) قد نقل لي بعض الطلبة أن هناك من الحنابلة من نفى أن تكون هناك رواية نص فيها على الحرف والصوت ، وزعموا أن ما نقله عبد الله بن الإمام فإن الكتاب أصلًا لم يثبت سنده ، وغاية ذلك نفي مذهب الإمام أنه حرف وصوت ، مذهب الإمام .
(٤) رواها ابن ابي يعلى في طبقات الحنابلة (١ / ٤١٥).
(٥) درء تعارض العقل والنقل (٢ / ٣٨ – ٣٩).

٣.قال التميمي رحمه الله ناقلًا عن الإمام أحمد رضي الله عنه :
« وكان يقول إن القرآن كيف تصرف غير مخلوق وأن الله تعالى تكلم بالصوت والحرف»[١].
ولم يختلف أحد من علماء المذهب من أصحاب الإمام أحمد إلى يومنا هذا في أن القرآن حرف وصوت ونقلوه ونصوا عليه .

(١) اعتقاد الإمام للتميمي (٣٣).

مذهب ابن كلاب ولأشعري ، وأصحابه في الكلام وأدلتهم

وقال ابن كُلَّاب وأتباعه، منهم الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ، وأتباعه: إن الكلام مشترك بين الألفاظ المسموعة، وبين الكلام النفسي، وذلك أنه قد استعمل لغة وعرفًا فيهما، والأصل في الإطلاق الحقيقة، فيكون مشتركًا .

أما استعماله في العبارة: فنحو قوله تعالى: ﴿ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ﴾[١]. وسمعت كلام فلان وفصاحته.

وفي مدلولها ، فنحو: ﴿ يَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾[٢] ، ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ﴾[٣].

هو أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كُلَاب (بضم الكاف وتشديد اللام) القطان البصري.

أدرجه الإمام أبو الحسن الأشعري في مقالاته[٤]، تحت فرق المعتزلة وهذا مما هو مستغرب إذ أن الكثير من الأشعرية يعدونه من أئمتهم ، ويعدون الأشعري متبعًا له .

شرع المصنف في بيان مذهب الكلابية والأشعرية في مسألة كلام الله تعالى ، وأنه قائم بنفسه ، وأنه ليس بحرف وصوت .

---

(١) التوبة : الآية (٦) .
(٢) المجادلة : الآية (٨) .
(٣) الملك: الآية (١٣) .
(٤) مقالات الإسلاميين (١٦٩).

وقوله عمر ﷺ : « زوَّرت في نفسي كلامًا »[1] .

وقول الأخطل :

أن الكلام لفي الفؤاد .. البيت.

ولأنه لما كان سمعه بلا انخراق ، وجب أن يكون كلامه بلا حرف ولا صوت .

وذكر الغزالي : أن قومًا، جعلوا الكلام حقيقة في المعنى، مجازًا في العبارة.

أما قول عمر رضي الله عنه : « زوَّرت في نفسي كلامًا»[2] .

قلنا: زور: صور ما يريد النطق به، أو كقول القائل: زورت في نفسي نبأ أو سفرًا ، وإنما أفاد ذلك بقرينة قوله: (في نفسي) . وسماه كلامًا .

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما ... جعل اللسان على الفؤاد دليلا

قلنا: البيت موضوع على الأخطل. فليس هو في نسخ ديوانه، وإنما هو لابن ضمضم[3] .

قال الموفق رحمه الله تعالى :

« وقد سمعت شيخنا أبا محمد بن الخشاب رحمة الله عليه وكان إمام أهل عصره في العربية، يقول: قد فتشت دواوين الأخطل العتيقة، فلم أجد هذا البيت فيها، وقال أبو نصر السجزي: إنما قال الأخطل:

إن البيان من الفؤاد فحرفوه ... .

وقالوا: إن الكلام ثم لو صح ذلك فإنما سماه كلاماً، مجازاً. يعني: أن عقلاء الناس لا يتكلمون إلا بعد روية وفكر واستحضار معنى الكلام في القلب كما قيل: لسان الحكيم من وراء قلبه، فإذا أراد أن يتكلم نظر، فإن كان له قال: وإلا سكت، والأحمق إنما كلامه على طرف لسانه.

ويتعين حمل قوله على المجاز لثبوت حقيقة الكلام في النطق بما قد ذكرنا يقيناً ولأن حقيقة الشيء ما يتبادر إلى الأفهام من إطلاق اللفظ به، وهو ما قلنا؛ ولأن تأويل كلمة الأخطل بحملها على مجازها أولى من تأويل قول الله، وقول رسوله، وقول سائر الخلق.

---

(١) رواه البخاري (٨ / ١٦٨).
(٢) المصدر نفسه .
(٣) مختصر التحرير (٢ / ٣٣).

ثم إن قدرنا أن كلام الأخطل لا يحتمل التأويل؛ فنسبة الخطأ إليه أولى من نسبته إلى أهل العربية الذين ذكروا حقيقة الكلام، وقولهم لا يحتمل التأويل أيضاً.

ثم لو قدرنا خلو كلام الأخطل عن معارض لم يجز أن يبنى مثل هذا الأصل العظيم وتأسيس مذهب برأسه على كلمة شاذة نادرة لا يعتقدها دليلاً مع إمكان خطأ قائلها، فإنه ليس بمعصوم من الخطأ، ولا هو من أهل الدين والتقى: نصراني يقذف المحصنات، ويهجو الأنصار، ويعيب الإسلام، فلو لم يكن في مذهبهم من العيب، إلا أن أساسه كلمة من قول الأخطل، لكان من أشد العيب، فكيف وقد خالفوا ربهم تعالى ونبيهم صلى الله عليه وسلم وسائر أهل اللسان من المسلمين وغيرهم »[1] .

لأنه لما كان سمعه بلا انخراق ، وجب أن يكون كلامه بلا حرف ولا صوت .

وذكر الغزالي : أن قومًا، جعلوا الكلام حقيقة في المعنى، مجازًا في العبارة ،وقومًا عكسوا، وقومًا قالوا بالاشتراك ، ونقل الثلاثة عن الأشعري .

أما قول الأشعري : لأنه لما كان سمعه بلا انخراق إلى آخره

فقد قال فيه الحافظ أبو نصر عبيد الله بن سعيد بن حاتم السجستاني :

هذا غير مسلم، ولا يقتضي ما قاله، وإنما يقتضي أن سمعه لما كان بلا انخراق، وجب أن يكون كلامه من غير لسان وشفتين وحنك، وأيضا لو كان الكلام غير حرف، وكانت الحروف عبارة عنه، لم يكن بد من أن يحكم لتلك العبارة بحكم، إما أن يكون أحدثها في صدر أو لوح، أو أنطق بها بعض عبيده، فتكون منسوبة إليه، فيلزم من يقول ذلك أن يفصح بما عنده في السور والآي والحروف، أهي عبارة جبريل أو محمد – عليهما الصلاة والسلام – ؟ وأيضا قوله تعالى: {إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون} [النحل: ٤٠] و " كن " حرفان، ولا يخلو الأمر من أحد وجهين: إما أن يكون المراد بقوله: "كن "، التكوين كالمعتزلة، أو أن يكون المراد به ظاهره، وأن الله تعالى إذا أراد إنجاز شيء قال له: كن – على الحقيقة – فيكون»[2] .

---

(١) البرهان في بيان القرآن (١ / ١٥٢).

(٢) التحبير شرح التحرير (٣ / ١٢٤٩) و البرهان في بيان القرآن (١ / ١٤٤).

فصل في نقض قول من قال بأن كلام الله تعالى عبارة لا عينه .

فعلى القول الثاني لا خلاف بيننا وبينهم ، ولكن المشهور أن الأشعري وأصحابه قالوا: القرآن الموجود عندنا حكاية كلام الله تعالى.

وابن كلاب وأتباعه قالوا: عبارة عن كلام الله لا عينه .

ويروى عن الأشعري: كلام الله القائم بذاته، يسمع عند تلاوة كل تالٍ، وقراءة كل قارئ

وقال الباقلاني : إنما نسمع التلاوة دون المَتْلُوِّ، والقراءة دون المقروء .

المذهب المشهور عند الأشعري أن القرآن : حكاية كلام الله تعالى .

فعلى القول الثاني لا خلاف بيننا وبينهم .

مراد المصنف في اثبات صفة الكلام فلا خلاف في اثباته بين الحنابلة والأشاعرة في أن القرن كلام الله تعالى ، والخلاف الحقيقي وقع في مسألة : هل القرآن حرف وصوت أم معنى قائم في النفس .

والأول وهو الحق الذي لا مرية فيه، وقال به الإمام أحمد وأئمة الإسلام والسنة ودلت الأدلة النقلية عليه .

وقال الباقلاني : إنما نسمع التلاوة دون المَتْلُوِّ، والقراءة دون المقروء .

قول الباقلاني [1] في اثبات مذهب الأشعري في أن الكلام معنى قائم في النفس .

(١) أورده في كتابه لإنصاف في ما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به (٧٦ _ ٧٧).

فصل في أقوال الأئمة كمالك والشافعي في بيان مخالفة الأشعري لهم

كلام أبي حامد الاسفرائيني في مذهب الشافعي في الكلام ومخالفة الأشعري له

وكان أبو حامد الإسفرائيني يقول: مذهب الشافعي وسائر الأئمة خلاف قول الأشعري، وقولهم هو قول الإمام أحمد .

وكذلك أبو محمد الجويني ، ذكر أن الأشعري خالف في مسألة الكلام قول الشافعي وغيره من السلف، وأنه أخطأ في ذلك .

وكذلك سائر أئمة أصحاب مالك ، والشافعي وغيرهما، ويذكرون قولهم في حد الكلام وأنواعه، من الأمر والنهي ، والخبر العام والخاص وغير ذلك، يجعلون الخلاف في ذلك مع الأشعري كما هو مبين في أصول الفقه التي صنفها أئمة أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وغيرهم [١].

من هذا الباب شرع المصنف بنقل ما ينقض دعاوى الأشاعرة[٢] في مسألة كلام الله تعالى حيث يورد ــ رحمه الله ــ بعد كل دعوى ما ينقضها سواء من أقوال الأئمة المتقدمين أو من أقوال علماء المذهب واعتمد في نقض تلك الدعوى على الموفق وتقي الدين وابن القيم والطوفي وابن قاضي الجبل وابن النجار ومن غير الحنابلة ، الغزالي وابن حجر رحمهم الله تعالى[٣] .

---

(١) مختصر التحرير شرح الكوكب المنير (٢ / ٣٨ ــ ٣٩).

(٢) وهذا رد على من زعم من السلفية المعاصرة أن المواهبي أشعري ، ولا شك أن هذا الفهم من عامي وإن لبس ثوب العلم زورًا .

(٣) فاكتفيت بما أورده المصنف رحمه الله تعالى من مذهب الأشاعرة ، ونقضه بأقوال الأئمة وعلماء الحنابلة ، لا سيما وأن الحجج والبراهين التي نقضت مذهب الأشاعرة ليست بحاجة إلى مزيد شرح ، فهي كالشمس في وسط النهار، وعلقت بما ينفع الموضع المبهم .

مذهب الإمام أحمد ﷺ في القرآن العظيم

قال الإمام أحمد رحمه الله: القرآن كيف تصرف فهو غير مخلوق، ولا نرى القول بالحكاية والعبارة ، وغلَّط من قال بهما وجهَّله، فقال: من قال: إن القرآن عبارة عن كلامه تعالى، فقد غلط وجهل.

وقال: الناسخ والمنسوخ في كتاب الله دون العبارة والحكاية.

وقال: هذه بدعة لم تقلها السلف، وقوله: "تكليمًا" يبطل الحكاية، منه بدأ وإليه يعود ، انتهى .

قال الطوفي: قال المخالفون: استعمل لغة وعرفًا في النفس والعبارة ، قلنا: نعم، لكن بالاشتراك أو بالحقيقة فيما ذكرناه، وبالمجاز فيما ذكرتموه، والأول ممنوع.

قالوا: الأصل في الإطلاق الحقيقة.

قلنا: والأصل عدم الاشترك، ثم قد يعارض المجاز الاشتراك المجرد، والمجاز أولى، ثم إن لفظ الكلام أكثر ما يستعمل في العبارات ، كثرة موارد الاستعمال تدل على الحقيقة.

أما قول الإمام أحمد ﷺ فهو من رواية ابن وارة: « سألت أحمد عن القرآن، فقال: القرآن كلام الله غير مخلوق حيثما تصرف» (١).

وفي رواية أبي موسى العكبري: سألت أحمد لما قدم عكبرا في خان مليح، قلت: يا أبا عبد الله، القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود؟ قال: « منه بدأ علمه، وإليه يعود حكمه»(٢).

وقول إمامنا ﷺ بدعة لم تقلها السلف : إنما هو الوقوف على ما وقفوا عليه ، وسلموا له من النصوص ، وعدم الخوض فيما لم يخوضوا فيه من مسائل الإعتقاد فهو لا شك بدعة في دين الله تبارك وتعالى ، وهو لم يقل القرآن مخلوقًا إلا جوابًا عن شبهة المعتزلة في قولهم القرآن مخلوق .

---

(١) طبقات الحنابلة (٢/ ٣٧٠).
(٢) المصدر نفسه (٢/ ٥١٧ ـ ٥١٨).

وأما قوله تعالى: {وَيَقُوْلُوْنَ فِي أَنْفُسِهِمْ}[1] ، فمجاز؛ لأنه إنما دل على المعنى النفسي بالقرنية، وهو قوله: "في أنفسهم"، ولو أطلق، لما فهم إلا العبارة.

وكذلك كل ما جاء من هذا الباب، إنما يفيد مع القرينة، ومنه قول عمر رضي الله عنه: "زورت في نفسي كلامًا" .

وأما قوله تعالى: {وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ}[2] ، فلا حجة فيه؛ لأن ، الإسرار به خلاف الجهر ، وكلاهما عبارة عن أن يكون أحدهما أرفع صوتًا من الآخر ، أما بيت الأخطل فيقال: إن المشهور فيه "إن البيان لفي الفؤاد"، وبتقدير أن يكون كما ذكرتم، فهو مجاز عن مادة الكلام، وهو التصورات الصحيحة له، إذ من لم يتصور ما يقول، لا يُوجِدُ كلامًا، ثم هو مبالغة من هذا الشاعر، في ترجيح الفؤاد على اللسان، انتهى.

ولابن قاضي الجبل في الجواب عن الآيات وبيت الأخطل، كلام يقاربه في المعنى، ونقل ابن القيم أن الشيخ تقي الدين رد الكلام النفسي من سبعين وجهًا .

وقال الغزالي: من أحال سماع موسى كلامًا ليس بحرف ولا صوت، فليُحِل يوم القيامة رؤية ذات ، ليست بجسم ولا عرض[3]. انتهى

وقد تقدم الجواب عن وهن الاستدلال بقول عمر ﷺ ، وبيت الأخطل .

---

(١) المجادلة : الآية (٨).
(٢) الملك : الآية (١٣).
(٣) شرح مختصر الروضة (٢ / ١٣).

نقض الطوفي لمزاعم الأشاعرة

وقال الطوفي: كل هذا تكلف وخروج عن الظاهر، بل عن القاطع من غير ضرورة، إلا خيالات لاغية، وأوهام متلاشية، وما ذكروه معارض بأن المعاني لا تقوم شاهدًا إلا بالأجسام، فإن أجازوا معنًى قام بالذات القديمة وليست جسمًا، فليجيزوا خروج صوت من الذات القديمة وليست جسمًا، إذ كلا الأمرين خلاف الشاهد، ومن أحال كلامًا لفظيًا من غير جسم، فليحل ذاتًا مرئية من غير جسم، ولا فرق[١] .

والعجب من هؤلاء القوم، مع أنهم عقلاء فضلاء، يجيزون أن الله تعالى يخلق لمن يشاء من عباده علمًا ضروريًا، وسمعًا لكلامه النفسي، من غير توسط صوت ولا حرف، وذلك من خاصة موسى عليه الصلاة والسلام، مع أن ذلك قلب لحقيقة السمع في الشاهد، إذا حقيقة السمع في الشاهد، إيصال الأصوات بحاسة[٢] .

إنما قال الطوفي ، إن كلام الأشاعرة في هذا الباب تكلف وخروج عن الظاهر لكثرة الأدلة النقلية والعقلية ومقالات الأئمة على أن القرآن كلام الله تعالى بحرف وصوت .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) مختصر التحرير شرح الكوكب المنير (٢ / ١٦).

رد الحافظ أبو نصر على قول الأشعري: لما كان سمعه بلا انخراق وجب أن يكون كلامه بلا حرف ولا صوت.

فإن قالوا: لأنه يستحيل وجود حرف ، ولا صوت إلا من جسم .

قلنا: إن عنيتم استحالته بالإضافة إلى الشاهد، فسماع كلام بدون توسط صوت وحرف كذلك أيضًا، وإن عنيتم استحالته مطلقًا، فلا نسلم، إذ الباري جل جلاله على خلاف المشاهدة والمعقول في ذاته وصفاته، وقد وردت النصوص بما قلناه، فوجب القول به(١) انتهى.

وسيأتي في التتمة الثانية ذكر كلام صاحب المواقف ، وجوابه الموافق لكلام الطوفي.

وقال أبو النصر السجستاني عن قول الأشعري:

"لما كان سمعه بلا انخراق ، وجب أن يكون كلامه بلا حرف ولا صوت".

هذا غير مسلَّم، ولا يقتضي ما قال، وإنما يقتضي أن سمعه لما كان بلا انخراق ، وجب أن يكون كلامه بلا لسان وشفتين ، وحنك، وأيضًا لو كان الكلام غير حرف ، كانت الحروف عبارة عنه ، لم يكن بد من أن يحكم لتلك العبارة بحكم، إما أن يكون أحدثها في صدر، أو لوح، أو نطق بها بعض عبيده، فتكون منسوبة إليه، فيلزم من يقول بذلك أن يفحص بما عنده في السور والآي والحروف، أهي عبارة لجبريل؟، أو محمد عليهما الصلاة والسلام؟.

---

(١) مختصر التحرير شرح الكوكب المنير (٢ / ١٨).

وأيضًا قوله تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[١] وكن حرفان، ولا يخلو الأمر من أحد وجهين:

إما أن يراد بقوله: "كن" من التكوين كقول المعتزلة، أو يكون المراد به ظاهره، فإنه سبحانه وتعالى إذا أراد إنجاز شيء قال له: "كن" على الحقيقة ، فيكون.

فإن قال الأشعري: إنه على ظاهره ، لا بمعنى التكوين، فيكون حرفان، وهو مخالف لمذهبه، وإن قال: ليس بحرف ، صار بمعنى التكوين كالمعتزلة[٢]. انتهى .

نقل الحافظ ابن حجر لمذهب السلف

وقال الحافظ ابن حجر في شرح البخاري في باب قوله تعالى: {أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ}[٣]. الآية: والمنقول عن السلف اتفاقهم على أن القرآن كلام الله غير مخلوق تلقاه جبريل عن الله عز وجل، وبلغ جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وبلغه هو إلى أمته[٤]. انتهى.

نقل الحافظ ابن حجر رحمه الله مذهب السلف في القرآن وهو : كلام الله تعالى غير مخلوق.

(١) النحل : الآية (٤٠).
(٢)مختصر التحرير شرح الكوكب المنير (٢ / ١٩).
(٣) النساء : الآية (١٦٦).
(٤) فتح الباري لابن حجر (١٣ / ٤٦٣).

استدلال ابن قاضي الجبل في بيان أن القرآن كلام الله تعالى حرف وصوت

قال ابن القاضي الجبل:

احتج الجمهور بالكتاب والسنة واللغة والعرف ، أما الكتاب : فقوله سبحانه: {آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً ، فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً}(١) ، فلم يسم الإشارة كلامًا ، وقال لمريم عليها السلام: {فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا}(٢) ، وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله عفى لأمتي عن الخطأ والنسيان ، وما حدثت به أنفسها، وما لم تتكلم أو تعمل"(٣) .

وقسم أهل اللسان الكلام إلى اسم وفعل وحرف، واتفق الفقهاء كافة على أن من حلف لا يتكلم ، لا يحنث بدون النطق، وإن حدثته نفسه .

فإن قيل: الأيمان مبناها على العرف.

قيل: الأصل عدم التغيير.

أهل العرف يسمون الناطق متكلمًا، ومن عداه ساكتًا أو أخرس(٤).

والمراد بأهل العرف : أهل اللغة .

---

(١) مريم : الآية (١٠ _ ١١).
(٢) الآية (٢٦).
(٣) لم أجد هذا اللفظ في المصنفات الحديثية التي تحت يدي ولعله جمع بين لفظين الأول : قال ﷺ : « قال: إن الله عز وجل عفا لكم عن ثلاث: عن الخطأ، والنسيان، وما استكرهتم عليه » وهذا الحديث بهذا اللفظ رواه سعيد بن منصور (١ / ٣١٧).
والثاني : قال ﷺ : «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم تعمل أو تتكلم» رواه البخاري ومسلم .
(٤) مختصر التحرير شرح الكوكب المنير (٢ / ٣١٩).

نقض الحافظ أبي نصر لدعوى عدم تبعض كلام الله ودليله

فإن قالوا: قوله تعالى: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}(١) .

أكذبهم الله تعالى في شهادتهم، ومعلوم صدقهم اللساني، فلا بد من إثبات الكلام النفسي؛ ليكون الكلام عائدًا إليه .

فالجواب: إن الشهادة الإخبار عن الشيء مع اعتقاده، فلما لم يكونوا معتقدين ذلك، كذبهم الله تعالى.

وقال أبو النصر السجزي: قولهم" لا يتبعض".

يرد عليه أن موسى عليه الصلاة والسلام، سمع بعض كلام الله،ولا يمكن أن يقال سمع الكل (٢).

---

(١) المنافقون : الآية (١).
(٢) مختصر التحرير شرح الكوكب المنير (٢ / ٣٢).

نقض تقي الدين بن تيمية لدعوى أن القرآن عبارة عن كلام الله

وقال الشيخ تقي الدين في فتيا له تسمى بالأزهرية : ومن قال: إن القرآن عبارة عن كلام الله تعالى، وقع في محذورات:

أحدها: قولهم: إن القرآن ليس بكلام الله تعالى، فإن نفي هذا الإطلاق خلاف ما علم بالاضطرار من دين الإسلام، وخلاف ما دل عليه الشرع والعقل.

والثاني: قولهم: "عبارة" إن أرادوا ، أن هذا التالي هو الذي عبر عن كلام الله تعالى القائم بنفسه، لزم أن يكون كل تالٍ معبرًا عما في نفس الله، والمعبر عن غيره هو المنشئ للعبارة، فيكون كل قارئ هو المنشئ لعبارة القرآن، وهذا معلوم الفساد بالضرورة.

وإن أرادوا أن القران العربي عبارة عن معانيه، فهذا حق إذ كل كلام لفظه عبارة عن معناه، لكن هذا لا يمنع أن يكون الكلام متناولًا اللفظ والمعنى(١) . انتهى .

(١) مختصر التحرير شرح الكوكب المنير (٢ / ٣٤).

نقض شيخ الإسلام الموفق بن قدامة لدعوى الأشاعرة

قال الشيخ الإسلام موفق الدين بن قدامة المقدسي في مصنف له : واعترض القائل بكلام النفس بوجوه:

أحدها قول الاخطل: إن الكلام لفي الفؤاد ... البيت.

الثاني: سلمنا أن كلام الآدمي صوت وحرف، لكن كلام الله تعالى يخالفه؛ لأنه صفته، فلا تشبه صفات الآدميين، وكلامه كلامهم.

الثالث: أن مذهبكم في الصفات أن لا تفسر، فيكيف فسرتم كلام الله بما ذكرتم.

الرابع: أن الحروف لا تخرج إلا من خارج وأدوات، والصوت لا يكون إلا من جسم، والله متعالٍ عن ذلك.

الخامس: أن الحروف يدخلها التعاقب ، وكل مسبوق مخلوق.

السادس: أن هذا يدخله التجزؤ ، والتعدد والقديم لا يتجزأ ولا يتعدد.

رد الموفق على ما تقدم

قال شيخ الإسلام الموفق: الجواب عن الأول من وجوه.

الأول: أن هذا كلام شاعر نصراني عدو لله ورسوله ودينه، أفيجب اطراح كلامه تعالى ورسوله وسائر الخلق تصحيحًا لكلامه؟، وحمل كلامهم على المجاز صيانة لكلامه؟، هذا عن المجاز.

وأيضًا فتحتاجون إلى إثبات هذا الشعر ببيان إسناده، ونقل الثقات له، ولا نقنع بشهرته، فقد يشتهر الفاسد(١).

(١) مختصر التحرير شرح الكوكب المنير (٢ / ٤١).

وقد سمعت شيخنا أبا محمد الخشاب ، إمام أهل العربية في زمانه، يقول: قد فتشت دواوين الأخطل العتيقة، فلم أجد هذا البيت فيها .

الثاني: لا نسلم أن لفظه هكذا، إنما قال: "إن البيان من الفؤاد"، فحرفوه وقالوا: الكلام.

الثالث: أن هذا مجاز، يراد به أن الكلام من عقلاء الناس إنما يكون بعد التروي فيه، واستحضار معانيه في القلب ، كما قيل: لسان الحكيم من وراء قلبه، فإن كان له محل قاله، وإن لم يكن سكت، وكلام الجاهل على طرف لسانه.

والدليل على أن هذا مجاز من وجوه كثيرة.

أحدها: ما ذكرناه مما يدل على أن الكلام هو النطق، وحمله على الحقيقة، يحمل كلام الأخطل على مجازها أولى من العكس.

ثانيها: أن الحقيقة يستدل عليها بسبقها إلى الذهن، وتبادر الأفهام إليها، وإنما يفهم من إطلاق الكلام ما ذكرناه.

ثالثها: ترتيب الأحكام على ما ذكرناه، دون ما ذكروه[1].

رابعها: قول أهل العربية الذين هم أهل اللسان، وهم أعرف بهذا الشأن.

خامسها : لا تصح إضافة ما ذكروه إلى الله تعالى، فإنه جعل اللسان دليلًا عليه، "والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك" ، ولأن الذي عبر عنه الأخطل بالكلام، هو التروي والفكر واستحضار المعاني، وحديث النفس، ووسوستها، ولا يجوز إضافة شيء من ذلك إلى الله تعالى بلا خلاف بين المسلمين.

قال : من أعجب الأمور أن خصومنا ردوا على الله وعلى رسوله، وخالفوا جميع الخلق من المسلمين، وغيرهم، فرارًا من التشبيه على زعمهم، ثم صاروا إلى تشبيه أقبح وأفحش من كل تشبيه، وهذا نوع التغفل ومن أدل الأشياء على فساد قولهم، تركهم قوله تعالى، وقول رسوله صلى الله عليه وسلم، وما لا يحصى من الأدلة، وتمسكهم بكلمة قالها هذا الشاعر النصراني، وجعلوها أساس مذهبهم، وقاعدة عقدهم، ولو أنها انفردت عن

(١) مختصر التحرير شرح الكوكب المنير (٢ / ٣٤).

مبطل، وخلت عن معارض، لما جاز أن يبنى عليها هذا الأصل العظيم، فكيف، وقد عارضها ما لا يمكن رده؟ .

فمثلهم كمثل من بنى قصراً على أعواد الكبريت، في مجرى النيل.

وأما قولهم: إن كلام الله يجب أن لا يكون حرفًا يشبه كلام الآدميين.

قلنا: جوابه من وجوه:

أحدها: أن الاتفاق في أصل الحقيقة ليس بتشبيه، كما أن إدراك البصر بأنه إدراك المبصرات، والسمع في أنه إدراك المسموعات، والعلم في أنه إدراك المعلومات، ليس بتشبه، كذلك هذا.

الثاني: أنه لو كان تشبيهًا، لكان تشبيههم أقبح وأفحش، على ما ذكرناه.

الثالث: أنهم نفوا هذه الصفة بكون هذا تشبيهًا، ينبغي أن ينفوا سائر الصفات، من الوجود والحياة والسمع والبصر وغيرها[١].

أم قولهم: "أنتم فسرتم هذه الصفة".

قلنا: لا يجوز تفسير المتشابه الذي سكت السلف عن تفسيره، وليس كذلك الكلام، فإنه من المعلوم بين الخلق أنه لا تشابه فيه، وأنه فسره الكتاب والسنة.

وأيضًا: نحن فسرناه بحمله على حقيقته، تفسيراً جاء به القرآن والسنة، وهم فسروه بما لم يرد به كتاب، ولا سنة، ولا يوافق الحقيقة، ولا يجوز نسبته إلى الله تعالى.

وأما قولهم: "إن الحروف تحتاج إلى مخارج وأدوات".

قلنا: احتياجها إلى ذلك في حقنا، لا يوجب ذلك في كلام الله تعالى، تعالى الله عن ذلك.

فإن قالوا: بل احتياج الله كاحتياجنا قياسًا له علينا.

أخطأوا من وجوه:

أحدها: أنه يلزمهم في سائر الصفات التي سلموها، كالسمع والعلم والحياة، ولا يكون في حقنا إلا في جسم، ولا يكون البصر إلا من حدقة، ولا السمع إلا من انخراق، والله تعالى بخلاف ذلك .

ثانيها: أن هذا تشبيه لله بنا، وقياس له علينا، وهذا كفر.

---

(١) مختصر التحرير شرح الكوكب المنير (٢ / ٤٢).

ثالثها: أن بعض المخلوقات لم تحتج إلى مخارج في كلامها، كالأيدي والأرجل والجلود التي تتكلم يوم القيامة ، والحجر الذي سلم على النبي صلى الله عليه وسلم، والحصى الذي سبح في كفه ، والذراع المسمومة التي كلمته، وقال بن مسعود: « كنا نسمع تسبيح الطعام، وهو يؤكل»[1].

ولا خلاف في أن الله سبحانه وتعالى قادر على إنطاق الحجر الأصم بلا أدوات.

قلت: إن الذي يقطع به عنهم، أنهم لا يقولون: إن الله سبحانه يحتاج كحاجتنا، قياسًا له علينا، فإنه عين التشبيه، وهم لا يقولون كذلك، ويفرون منه، والظاهر أن الشيخ الموفق قال ذلك على تقدير قولهم له.

ثم قال: وقولهم: "إن التعاقب يدخل في الحروف".

قلنا: إنما ذلك في حق من ينطق بالمخارج والأدوات، ولا يوصف سبحانه وتعالى بذلك[2].

---

(١) رواه الترمذي (٦ / ٣١).
(٢) المناظرة في القرآن (٢٥).

جواب الحافظ أبي نصر في مسألة التعاقب

وقال الحافظ أبو نصر: إنما يتعين التعاقب فيمن يتكلم بأداة يعجز عن أداء شيء إلا بعد الفراغ من غيره، وأما المتكلم بلا جارحة، فلا يتعين في كلامه تعاقب، وقد اتفقت العلماء على أنه يتولى الحساب بين خلقه يوم القيامة في حالة واحدة، وعند كل واحد منهم أن المخاطب في الحال هو وحده ، وهذا خلاف التعاقب، انتهى كلام أبي نصر[1].

كلام ابن قدامة في مسألة التجزؤ والتعدد

قال الموفق: قولهم: "إن القديم لا يتجزأ ولا يتعدد" غير صحيح ، فإن أسماءه سبحانه وتعالى معدودة، قال تعالى: {ولله الأسماء الحسنى}[2] ، وقال صلى الله عليه وسلم: "إن لله تسعة وتسعين اسمًا ، من أحصاها دخل الجنة" ، وهي قديمة .

نص الشافعي وأحمد على قدم أسماء الله تعالى.

وقد نص الشافعي على أن أسماء الله تعالى غير مخلوقة.

وقال أحمد: "من قال إن أسماء الله مخلوقة فقد كفر".

وقال أبي: « من زعم أن القرآن مخلوق فقد كفر، ومن زعم أن أسماء الله مخلوقة كفر، لا يصلى خلف من قال: القرآن مخلوق؛ فإن صلى رجل عاد »[3].

وكذا كتب الله تعالى، فإن التوراة والإنجيل والزبور والفرقان متعددة، وهي كلامه تعالى غير مخلوق، وإنما هذا أخذوه علم الكلام، وهو مُطَّرَحٌ عند جميع الأئمة[4].

---

(١) مختصر التحرير شرح الكوكب المنير (٢ / ٤٨).
(٢) الأعراف : الآية (١٨٠).
(٣) سيرة الإمام أحمد لصالح (٦٦ _ ٦٧).
(٤) مختصر التحرير شرح الكوكب المنير (٢ / ٤٩).

فصل في حكم علم الكلام

قال أبو يوسف : من طلب العلم بالكلام تزندق .

وقال الشافعي: "ما ارتدى بالكلام أحد فأفلح" .

وقال أحمد: "ما أحب أحد الكلام، فكان عاقبته إلى خير"(١).

وقال ابن خويز منداد المالكي : البدع عند مالك وأصحابه، هي: كتب الكلام، والتنجيم، وشبه ذلك، لا يصح إجارتها، ولا تقبل شهادة أهله.

علم الكلام : له تعاريف كثيرة منها تعريف الإيجي قال :

« علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبهة »(٢).

لا شك أن علم الكلام المذموم عند أئمة الإسلام والسنة ، هو المستعمل في تأسيس عقائد المسلمين ، ونصوصهم في هذا الباب كثيرة معلومة لدى المشتغلين في علم العقائد بل في علوم الشريعة كلها .

إلا أنه لا بد من الوقوف والنظر في مقاصد المتقدمين في النهي عن الخوض في هذا العلم وهل المراد ذمه بالكلية .

ينبغي مراعاة أمرين في حكم علم الكلام :

الأولى : المرحلة الزمنية التي عاشها الأئمة في بداية دخول علم الكلام إلى الأمة الإسلامية .

الثانية : السبب في اطلاقهم التحريم بالإجماع .

أما الأولى وهي المرحلة الزمنية التي عاصرها الأئمة فيظهر فيها حرصهم الشديد على المنع من الخوض في هذا العلم الدخيل ، وللمحافظة على ثوابت الدين ، ولأن المبتدعة كانوا هم من سار به بين الناس .

اما السبب في اطلاق حكمهم التحريم على علم الكلام .

لأن فتح هذا الباب نتائجه التشويش على عقائد المسلمين ، ولا سيما العامة منهم .

أما ما بعد زمن الأئمة ــ واليوم ــ وظهور كثير من الشبه العقلية مع كثرة الإلحاد والزندقة والكفر .

جاز أن تقوم طائفة من الأمة بواجب الرد على هذه الشبه بالحجج والبراهين العقلية .

---

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح (١ / ٢٠٠).
(٢) المواقف لعضد الدين الإيجي (١ / ٣١).

أما حكمه عند أصحابنا :

قد اختلف القول في مسألة استعمال علم الكلام والتصنيف فيه عندنا على قولين .

الأول : التحريم ، وهو قول طائفة من المتقدمين ونص عليه الإمام .

الثاني : أنه علم مشروع مأمور به وإلى هذا القول ذهب القاضي أبو يعلى وشيخه ابن حامد والتميمي والقاضي الصغير إلى أن : علم الكلام مشروع مأمور به ، ويجوز مناظرة اهل البدع ووضع الكتب في الرد عليهم »[1].

وهو المعتمد في المذهب [2].

واستندوا في ذلك إلى قول أحمد في رواية حنبل: قد كنا نأمر بالسكوت فلما دعينا إلى أمر ما كان بد لنا أن ندفع ذلك، ونبين من أمره ما ينفي عنه ما قالوه.

وقد ذكر الخلال أن حكم التحريم عند الإمام منسوخ[3] .

ومن المعلوم أن القرآن العظيم متضمن للأدلة العقلية .

وإنما جاز استعمال علم الكلام بشروط :

أولها : أن يكون المعقول موافقًا وتابعًا للمنقول لا مخالفًا له ، وليس أصلًا يعتمد عليه ، كما عند بعض الطوائف .

ثانيًا : جاز استعماله للرد على أهل البدع وتأليف الكتب في رد شبههم ، وليس لتأسيس عقائد المسلمين على قواعد علم الكلام .

ولمن قصد الدفاع عن الإسلام من طلبة العلم ، بعد دراسة العلوم الشريعة جاز له التخصص بهذا العلم ، على أن يعتني في كتب التفسير والسنة والتزكية ، لأن هذا العلم ثقيل وجاف .

ولا يجوز لمن يرى الحرمة أن يعيب على من يقصد التخصص بذلك ، أو تحصين نفسه ومن في معيته .

ولا يجوز لمن يرى الجواز أن يعيب على من يرى الحرمة فكل له سلف في ذلك .

---

(١) تحفة الوصول إلى علم الأصول (٦٠).
(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح (١ / ٢٠٦ _ ٢٠٧)
(٣) المصدر نفسه (١ / ٢٠٧).

نقض قول من قال إذا ثبت الحرف والصوت في الكلام اقتضيا عددًا والله واحد من كل جهة .

قال الحافظ أبو نصر: فإن قيل: الصوت والحرف إذا ثبتا في الكلام اقتضيا عددًا ، والله واحد من كل جهة.

قيل لهم: اعتماد أهل الحق في هذه الأبواب على السمع، وقد ورد السمع بأن القرآن ذو عدد، وأقر المسلمون بأنه كلام الله تعالى حقيقة لا مجازًا ، وهو صفته، وقد عد الأشعري صفات الله تعالى سبعة عشر صفة، وبيَّن أن منها ما لا يعلم إلا بالسمع، وإذا جاز أن يوصف بصفات معدودة، لم يلزمنا بدخول العدد في الحروف شيء ، انتهى كلام أبي نصر[1].

---

(١)مختصر التحرير شرح الكوكب المنير (٢ / ٥٠).

استدلال الإمام موفق الدين ابن قدامة في إثبات الحرف والصوت في كلام الله

قال الشيخ الموفق في الاستدلال : إن الله تعالى كلم موسى صلى الله عليه وسلم، ويكلِّم المؤمنين يوم القيامة، قال تعالى: {وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ}(١) ، وقال تعالى: {يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي}(٢) ، وقال تعالى: {وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ}(٣) ، وأجمعنا على أن موسى صلى الله عليه وسلم، سمع كلام الله تعالى من الله، لا من ذات الشجرة، ولا من حجر، ولا من غيره؛ لأنه لو سمع من غير الله تعالى، كان بنو إسرائيل أفضل في ذلك منه ؛ لأنهم سمعوا من أفضل ممن سمع منه موسي، لكونهم سمعوا من موسى، فلم سمي إذن كليم الرحمن؟.

وإذا ثبت هذا، لم يكن الكلام الذي سمعه موسى إلا صوتًا وحرفًا، فإنه لو كان معنى في النفس، لم يكن ذلك تكليمًا لموسى، ولا هو شيء يسمع، ولا يسمى مناداةه.

فإن قالوا: نحن لا نسميه صوتًا مع كونه مسموعًا.

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن هذا مخالفة في اللفظ مع الموافقة في المعنى، فإنا لا نعني بالصوت إلا ما كان مسموعًا.

ثانيهما: أن لفظ الصوت قد جاءت به الأخبار والآثار ، والنزاع إنما هو في أن الله تعالى تكلم بحرف وصوت ، أم لا؟

فمذهب أهل السنة اتباع ما ورد في الكتاب والسنة، انتهى كلام الشيخ الموفق .

---

(١) الأعراف : الآية (١٤٣).
(٢) الآية (١٤٤).
(٣) النازعات : الآية (١٦).

رد الحافظ ابن حجر على قول البيهقي في كلام الله عز وجل

وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: قال البيهقي : "الكلام ما ينطق به المتكلم، وهو مستقر في نفسه، كما في كلام عمر في قصة السقيفة ، فإن كان المتكلم ذا مخارج سمع كلامه ذا حروف وأصوات، وإن كان غير ذي مخارج، فهو خلاف ذلك، والباري بخلاف ذلك فلا يكون كلامه كذلك"[1].

وأول ما ورد في حديث: "أن الملائكة يسمعون صوتًا"، باحتمال أن يكون الصوت للسماء، أو للملك الآتي بالوحي، أو لأجنحة الملائكة، وإذا احتمل ذلك لم يكن نصًّا في المسألة[2].

قال ابن حجر في رده: "وهذا حاصل الكلام في نفي الصوت من الأئمة، ويلزم منه أنه تعالى لم يسمع أحدًا من الملائكة، ولا من رسله كلامه، بل ألهمهم إياه"[3].

وحاصل الاحتجاج للنفي الرجوع إلى القياس على أصوات المخلوقين؛ لأنها الذي عهدنا، وهي ذات مخارج، ولا يخفى ما فيه، إذ الصوت قد يكون من غير مخارج، كما أن الرؤية قد تكون من غير اتصال أشعة، سلمنا ، لكن يمنع القياس المذكور، وصفة الخالق لا تقاس على صفة المخلوق، وإذا ثبت ذكر الصوت بهذه الأحاديث الصحيحة، وجب الإيمان به .

وقال في الفتح أيضًا: قوله صلى الله عليه وسلم: "ثم يناديهم بصوت يسمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قرب" حمله بعض الأئمة على مجاز الحذف، أي "يأمر من ينادي"، فاستبعده من أثبت الصوت، بأن في قوله: "يسمعه من بعد" إشارة إلى أنه ليس من المخلوقات؛ لأنه لم يعهد مثل هذا فيهم ، وبأن الملائكة إذا سمعوه صعقوا، وإذا سمع بعضهم بعضًا لم يصعقوا ، قال: فعلى هذا، فصوته سبحانه وتعالى صفة من صفات ذاته، لا يشبه صوت غيره، إذ ليس يوجد شيء من صفاته في صفات المخلوقين، قال: وهكذا قرره المصنف –يعني البخاري– في كتابه خلق الأفعال[4] . انتهى.

---

(١) فتح الباري (١٣ / ٤٥٧ _ ٤٥٨).
(٢) المصدر نفسه (١٣ / ٣٥٤).
(٣) المصدر نفسه .
(٤) المصدر نفسه (١٣ / ٤٥٧).

حد الصوت

وحد الصوت ما تحقق سماعه، فكل متحقق سماعه صوت، وكل ما لا يتأتى سماعه ليس بصوت، وصحة الحد كونه مطردًا منعكسًا ، وقول من قال: إن الصوت هو الخارج من هواء بين جرمين، فغير صحيح، لما يوجد سماع الصوت من غير ذلك، كتسبيح الأحجار، وتسبيح الطعام، وتسبيح الجبال ، وشهادة الأيدي، والأرجل وقال تعالى: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ}[1]. وقال تعالى: {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيْدٍ} [2] وما لشيء من ذلك من الخراق بين جرمين.

وقد أقر الأشعري أن السموات والأرض قالتا: {أتينا طائعين} [3] حقيقة لا مجازًا .

إن من يتدبر هذه الأدلة والبراهين والحجج الساطعة وما سبقها لا يدع أدنى شك في أن القرآن كلام الله تعالى حرف وصوت ، وليس بخارج من بين جرمين .

فصل ثانٍ: في المسألة المشهورة المسماة بمسألة اللفظ:

قال الشيخ شهاب الدين ابن حجر في فتح الباري في كتاب التوحيد في باب قوله تعالى: {فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا}[4] .

---

(١) الإسراء : الآية (٤٤).
(٢) ق : الآية (٣٠).
(٣) فصلت : الآية (١١).
(٤) البقرة : الآية (٢٢).

شدة إنكار الإمام أحمد على القائل بأن لفظه بالقرآن مخلوق

ما ملخصه: "واشتد إنكار الإمام أحمد، ومن تبعه على من قال: لفظي بالقرآن مخلوق، ويقال: أول من قاله الحسين بن علي الكرابيسي ، أحد أصحاب الشافعي، فلما بلغه ذلك بدعه وهجره، ثم قال بذلك داود بن علي الأصبهاني ، رأس الظاهرية، وهو يومئذ بنيسابور، فأنكر عليه إسحاق ، وبلغ ذلك أحمد، فلما قدم بغداد لم يأذن له في الدخول عليه، وجمع ابن أبي حاتم أسماء من أطلق على اللفظ ، أنهم جهمية، فبلغوا عددًا كثيرًا، وأفرد لذلك بابًا في كتابه: الرد على الجهمية.

والذي يتحصل من كلام المحققين، أنهم أرادوا حسم المادة صونًا للقرآن أن يوصف بكونه مخلوقًا، وإذا حُقِّقَ الأمر عليهم؛ لم يفصح أحد منهم بأن حركة لسانه قديمة.

إنكار الإمام أحمد على من نقل عنه: لفظي بالقرآن غير مخلوق

وأنكر أحمد على من نقل عنه أنه قال: "لفظي بالقرآن غير مخلوق".

كما أنكر على من قال: "لفظي بالقرآن مخلوق" ، وقال: "القرآن كيف تصرف غير مخلوق".

ولما ابتلي بمن يقول: القرآن مخلوق، كان أكثر كلامه في الرد.

عليهم، حتى بالغ ، فأنكر على من يتوقف، في يقول: مخلوق، ولا يقول: غير مخلوق، وعلى من قال: لفظي بالقرآن مخلوق؛ لئلا يتذرع بذلك من يقول: القرآن بلفظي مخلوق.

ابتلاء البخاري بمن يقول: أصوات العباد غير مخلوقة، ومبالغته في الرد عليهم

وأما البخاري: فابتلي بمن يقول: أصوات العباد غير مخلوقة ، حتى بالغ بعضهم ، فقال: والمداد والورق بعد الكتابة، فكان أكثر كلامه في عليهم ، وبالغ في الاستدلال بأن أفعال العباد كلها مخلوقة بالآيات والأحاديث في ذلك ، مع أن قول من قال: "إن الذي يُسمع من القارئ هو الصوت القديم" ،لا يعرف عن السلف ، ولا قاله أحمد ، ولا أصحابه وإنما سبب نسبة ذلك لأحمد قوله: "من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي".

فظنوا أنه سوى بين اللفظ والصوت بل صرح في مواضع بأن الصوت المسموع من القارئ، هو صوت القارئ والفرق بينهما أن اللفظ يضاف إلى المتكلم به ابتداء، فيقال

عمن روى الحديث بلفظه: هذا لفظه، ولمن رواه بغير لفظه: هذا معناه ولا يقال في شيء من ذلك: هذا صوته فإن القرآن كلام الله، ومعناه: ليس هو كلام غيره أما قوله تعالى: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} فاختلف فيه هل المراد جبريل أو الرسول عليهما الصلاة والسلام؟ .

والمراد به التبليغ؛ لأن جبريل مبلغ عن الله تعالى إلى رسوله، والرسول صلى الله عليه وسلم إلى الناس، ولم يُنقَل عن أحمد أنه قال: فعل العبد قديم، ولا صوته إنما ينكر إطلاق اللفظ.

وصرح البخاري بأن أصوات العباد مخلوقة وأن أحمد لا يخالفه في ذلك ، ولكن أهل العلم كرهوا التنقيب عن الأشياء الغامضة وتجنبوا الخوض فيها والتنازع ، إلا بما بينه الرسول عليه الصلاة والسلام.

ومن شدة اللبس في هذه المسألة، كثر نهي السلف عن الخوض فيها، واستغنوا بالاعتقاد أن القرآن كلام الله غير مخلوق، ولم يزيدوا على ذلك شيئًا، وهو أسلم الأقوال ، وبالله المستعان.

توضيح ما تقدم من مسألة اللفظ بالقرآن مخلوق

هذه المسألة من المسائل الخلافية الجوهرية بين الحنابلة والأشاعرة .

فالأشاعرة يقولون : بأن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق ، وألفاظنا به مخلوقة .

وأما الحنابلة فمذهبهم مذهب إمامهم : فالقرآن كلام الله تعالى غير مخلوق ولا يقال لفظي بالقرآن مخلوق ، ومن قال بهذا القول فهو خلاف السنة .

أول من أظهر مقولة[١] (القرآن غير مخلوق وألفاظنا به مخلوقة)[٢] ، بعد اظهار المعتزلة لبدعتهم بأن القرآن مخلوق .

أمور لابد من بيانها :

أولًا . أن الإمام أحمد ﷺ لم يتكلم في بداية فتنة خلق القرآن ، ولما أرسل إليه إسحاق ابن إبراهيم في أول أمر الفتنة سأله عن قوله في القرآن فقال لا اعلم بماذا تتحدثون ، ولما أرسل إليه في المرة الثانية ، فأنكر مقولة القرآن مخلوق وقال الإمام أحمد ﷺ مقولته الشهيرة : « كنا نسكت حتى دفعنا على الكلام فتكلمنا »[٣] .

ثانيًا . أقوال الإمام أحمد ﷺ في أن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق ، جاءت في سياق أجوبة عما ابتدعته المعتزلة ، لم تكن أقواله ابتداء .

ثالثًا . تشديد الإمام في مسألة (لفظنا في القرآن مخلوق) مقاربة هذه المقولة ببدعة المعتزلة .

---

(١) قال الذهبي : « هذه التفرقة والتفصيل ما قالها أحد قبله فيما علمت، وما زال المسلمون على أن القرآن العظيم كلام الله، ووحيه وتنزيله حتى أظهر المأمون القول: بأنه مخلوق وظهرت مقالة المعتزلة فثبت الإمام أحمد ابن حنبل وأئمة السنة على القول: بأنه غير مخلوق إلى أن ظهرت مقالة حسين بن علي الكرابيسي، وهي: أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن ألفاظنا به مخلوقة فأنكر الإمام أحمد ذلك، وعده بدعة وقال: من قال: لفظي القرآن مخلوق يريد به القرآن فهو جهمي وقال أيضا: من قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق فهو مبتدع فزجر عن الخوض في ذلك من الطرفين ». سير اعلام النبلاء (١٠ / ٢٧١).

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الآداب الشرعية والمنح المرعية (١ / ٢٠٤).

ذكر من قال بأن اللفظ بالقرآن مخلوق لم يعرف على عهد الصحابة والتابعين

ساق أبو القاسم بسنده قال أبو حاتم الرزاي: « من كلام جهم بن صفوان، وحسين الكرابيسي، وداود بن علي: أن لفظهم القرآن مخلوق، وأن القرآن المنزل على نبينا صلى الله عليه وسلم مما جاء به جبريل الأمين حكاية القرآن، فجهمهم أبو عبدالله أحمد بن محمد ابن حنبل، وتابعه على تجهيمهم علماء الأمصار طرا أجمعون، لا خلاف بين أهل الأثر في ذلك»(١) .

قال حنبل بن إسحاق بن حنبل أنه سمع أحمد يقول فيمن قال: لفظي بالقرآن مخلوق: « وأي شيء بقي؟! هذا لا يكلم، ولا يصلى خلف من قال: القرآن مخلوق، ولا خلف من يقف، ولا خلف من قال: لفظي بالقرآن مخلوق، وإن صلى خلف رجل منهم وهو لا يعلم ثم علم أعاد الصلاة، ثم قال أبو عبدالله: وأي شيء بقي إذا وقف وشك أن كلام الله غير مخلوق؟، أو قال: لفظه بالقرآن مخلوق فكيف تتم به الصلاة؟ لا تتم الصلاة بمخلوق والقوم قد جهلوه أو هم لا يعلمون »(٢).

قال ابن جرير الطبري:

« أما القول في ألفاظ العباد بالقرآن فلا أثر فيه نعلمه عن صحابي مضى، ولا عن تابعي قضى، إلا عمن في قوله الغناء والشفاء رحمة الله عليه ورضوانه، وفي اتباعه الرشد والهدى، ومن يقوم قوله لدينا مقام قول الأئمة الأولى: أبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل رضي الله عنه، فإن أبا إسماعيل الترمذي حدثني، قال: سمعت أبا عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل يقول: اللفظية جهمية، لقول الله تعالى: {حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} [التوبة: ٦] ممن يسمع؟ ثم سمعت جماعة من أصحابنا لا أحفظ أسماءهم يحكون عنه أنه كان يقول: من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوق فهو مبتدع. ولا قول عندنا في ذلك يجوز أن نقوله غير قوله؛ إذ لم يكن لنا إمام نأتم به سواه، وفيه الكفاية والمقنع، وهو الإمام المتبع، رحمة الله عليه ورضوانه»(٣) .

---

(١) الحجة في بيان المحجة (٢ / ٢٠٢).
(٢) السنة للخلال (٧ / ٧٨).
(٣) صريح السنة لأبي جعفر الطبري (٢٥).

وأقوال الأئمة في مسألة أكثر من أن تحصر ، وأولهم إمامنا ﷺ وقد منع من الخوض في ذلك لأسباب منها :

١. أن هذا القول لم يقل به أحد من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين ، كما تقدم في نقل قول الطبري رحمه الله .

٢.أن هذا القول قول بشر المريسي وقد ورد في رواية محمد بن مسلم: قال أحمد: « القرآن حيث تصرف كلام الله، واللفظية جهمية ، قلنا: هل علمت أن أحداً من الجهمية كان يقوله؟ قال: "بلغني أن المريسي كان يقوله »[1].

٣. كراهة الإمام وأهل العلم البحث والتنقيب عن الأشياء الغامضة وتنجبوا الخوض فيها ولولا خوض الكرابيسي وغيره وانتشار ذلك في الناس ، ما كان للإمام أحمد ﷺ أن يتكلم بهذا الكلام وهو الإمام المتبع والمقتفي لآثار التابعين ومن قبلهم الصحابة رضي الله عنهم أجمعين .

ولو اكتفينا بهذا السبب لكان كافيًا ، لما فيه من اتباع من أوصل لنا هذا الدين العظيم ، فنقف حيث وقفوا ونسلم حيث سلموا ونقر حيث أقروا .

٤.جعل الإمام أحمد ﷺ هذا القول قول الجهمية لأنه امتداد لقولهم بأن القرآن مخلوق .

---

(١) السنة للخلال (٧ / ٨١).

التتمة الاولى

نقل السعد في كلامه على عقائد النسفي ، من نسبة الحنابلة إلى أنهم قالوا: إن كلامه سبحانه وتعالى عرض من جنس الأصوات والحروف ومع ذلك قديم .

وفي محل آخر : أن المؤلف من الأصوات والحروف قديم، ونسبهم إلى الجهل والعناد، أيضًا ما ينسبه بعض الناس للحنابلة، من أنهم يقولون بقدم الورق والجلد والمداد.

فالجواب عن ذلك: أن ما نسب إليهم من هذه المقالات لا أصل له في كلام أحد منهم، ولو كان له أصل لعثر عليه، وكيف يتأتى من أحد منهم القول به، مع أنهم في أعلى طبقات الورع في تتبع مذهب إمامهم، واعتقادهم مذهب السلف، واتباع السنة، وكيف يظن بأحد منهم أنه حرف شيئًا ونسبه إلى إمامه، مع أن هذا الظن لا يجوز بأحد من المسلمين، فضلًا عن هؤلاء السادة.

فإن قيل: لعل ما نقل من كتبهم مدسوس عليهم.

فالجواب: أن فتح هذا الباب بدعة شنيعة؛ لأن المطلوب ناقل صحيح النقل، يكون كتابه مقابل على أصل صحيح .

وأيضًا، يتطرق هذا الظن في بقية كتب المسلمين، على أن معظم ما اعتمدنا فيما نقلناه من أصولنا وفروعنا متصل في جميع الأعصار، من زمن الإمام أحمد إلى زمننا، متواتر نقله جمع عن جمع.

ما ذكره المخالفون للحنابلة سواء الصادر من السعد أو من غيره ، ونسبة أقوال لم ينصوا عليها ، ولم يتبنوها .

إن ما ينسب للحنابلة من مقالات أو أي مذهب كان ، دون تحقيق وإحالة إلى مصدر يبقى في دائرة الإفتراء عليهم ، ومن صورها تقويل مذهب بأكمله ما لم يقله علماؤه ، ولم تذكر في مصنفاته العقدية والفقهية والأصولية .

التتمة الثاني

قال الحافظ ابن حجر: "والذي استقر عليه قول الأشعرية ، أن القرآن كلام الله غير مخلوق، مكتوب في المصاحف، محفوظ في الصدور، مقروء بالألسنة، قال تعالى {فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ} ، وفي الحديث: "لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو كراهة أن يناله العدو"[١] .

وليس المراد ما في الصدور، بل ما في المصحف، وأجمع السلف على أن الذي بين الدفتين كلام الله تعالى.

قال صاحب المواقف في أثناء خطبته: "وقرآنًا قديمًا ذا غايات ومواقف، محفوظًا في القلوب، مقروءًا بالألسن، مكتوبًا في المصاحف"[٢] .

وقال السيد الشريف في شرحه : وَصَفَ القرآن بالقدم، ثم صرح بما يدل على أنه هذه العبارات المنظومة، كما هو مذهب السلف، حيث قالوا : "إن الحفظ والقراءة والكتابة حادثة، لكن متعلقًا، أعني: المحفوظ والمقروء قديم".

وما يتوهم من أن ترتيب الكلمات والحروف، وعروض الانتهاء، والوقف، مما يدل على الحدوث، فباطل؛ لأن ذلك لقصور في آلات القارئ، وأما ما اشتهر عن الشيخ أبي الحسن الأشعري، رحمه الله تعالى: من أن القديم معنى قائم بذاته تعالى، قد عبر منها بهذه العبارات الحادثة.

فقد قيل: إنه غلط من الناقل، منشؤه اشتراك لفظ المعنى بين ما يقابل اللفظ، وبين ما يقوم بغيره، ويزداد وضوحًا فيما بعد، إن شاء الله تعالى.

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١٣ / ٤٩٣).
(٢) المواقف للإيجي (١ / ١٦).

قال: واعلم أن للمصنف مقالة مفردة في تحقيق كلام الله تعالى، على وفق ما أشار إليه في خطبة الكتاب، ومحصولها: أن لفظ المعنى تارة يطلق على مدلول اللفظ، وأخرى على الأمر القائم بالغير، فالشيخ الأشعري لما قال: الكلام هو المعنى النفسي، فهم الأصحاب منه أن مراده مدلولات اللفظ وحده ، وهو القديم عنده، وأما العبارات، فإنما تسمى كلامًا مجازًا؛ لدلالتها على ما هو كلام حقيقي، حتى صرحوا بأن الألفاظ حادثة على مذهبه أيضًا، لكنها ليست كلامه حقيقة .

وهذا الذي فهموه من كلام الشيخ، له لوازم كثيرة فاسدة، كعدم إكفار من أنكر كلامية ما بين دفتي المصحف، مع أنه عُلِمَ من الدين ضرورة كونه كلام الله حقيقة، "وعدم كون" المعارضة والتحدي بكلام الله تعالى الحقيقي، كعدم كون القروء المحفوظ كلامه حقيقة، إلى غير ذلك مما لا يخفى على المتفطن في الأحكام الدينية، فوجب حمل كلام الشيخ على أنه أراد به المعنى الثاني، فيكون الكلام النفسي عنده أمرًا شاملًا للفظ والمعنى جميعًا، قائمًا بذاته تعالى، وهو مكتوب في المصاحف، مقروء بالألسن، محفوظ في الصدور، وهو غير الكتابة ، والقراءة ، والحفظ ، الحادثة ، وما يقال من أن الحروف والألفاظ مرتبة متعاقبة، فجوابه: إن ذلك الترتيب إنما هو في التلفظ؛ بسبب عدم مساعدة الآلة، فالتلفظ حادث، والأدلة الدالة على الحدوث يجب حملها على حدوثه دون حدوث الملفوظ، جمعًا بين الأدلة، وهذا الذي ذكرناه ، وإن كان مخالفًا لما عليه متأخرو أصحابنا، إلا أنه بعد التأمل تعرف حقيقته ، تم كلامه .

وهذا الحمل لكلام الشيخ، هو مما اختاره محمد الشهرستاني ، في كتابه المسمى "بنهاية الإقدام" ، ولا شبهة في أنه أقرب إلى الأحكام الظاهرة المنسوبة إلى قواعد الملة ، انتهى.

فالذي ظهر من عبارة ابن حجر العسقلاني ،وشرح المواقف ، موافقة الشيخ الأشعري للإمام أحمد في مسالة الكلام ، وما روي عنه مخالف لذلك، فهو غلط من الناقل منشؤه ما سبق ، وقد أتى التاج ابن السبكي في الطبقات بأصرح من ذلك ، فقال في ترجمة الأشعري: وما قيل: إن مذهبه أن القرآن لم يكن بين الدفتين ، ليس القرآن في المصحف، ونَقْلُ ذلك عنه ، فهو شنيع فظيع ، وتلبس على العوام ، فإن الأشعري وكل مسلم غير مبتدع يقول: إن القرآن كلام الله ، وهو على الحقيقة مكتوب في المصاحف

لا على المجاز ، ومن قال: إن القرآن ليس في المصاحف، على هذا الإطلاق، فهو مخطئ بل القرآن مكتوب في المصحف، وهو قديم غير مخلوق ، لم يزل سبحانه متكلمًا، ولا يزال به قائمًا ، ولا يجوز انفصال القرآن عن ذات الله تعالى ، ولا الحلول في المحال ، وكون الكلام مكتوب على الحقيقة في الكتاب ، لا يقتضي حلوله فيه، لا انفصاله عن ذوات المتكلم، قال الله تعالى: {النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ}(١) .

فالنبي صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل مكتوب على الحقيقة، وكذلك القرآن على الحقيقة مكتوب في المصاحف، محفوظ في قلوب المؤمنين ، مقروء متلوٌّ على الحقيقة بألسنة القارئين من المسلمين ، كما أن الله تعالى على الحقيقة لا على المجاز؛ معبود في مساجدنا، ومعلوم في قلوبنا ، مذكور في ألسنتنا ، وهذا واضح بحمد الله ، ومن زاغ عن هذه الطريقة ، فهو قدري معتزلي ، يقول بخلق القرآن ، وأنه حالٌّ في المصاحف نظير ما قالوا: إنه لما سمع موسى ، عليه الصلاة والسلام كلامه ، خلق كلامه في الشجرة ، وهذه من فظائع المعتزلة ، التي لايخفي فسادها على محصل. إنتهى ابن السبكي.

وما قيل: إن منكر كلامية ما بين الدفتين، إنما يكفر إذا قال: من المخترعات البشرية، وأما إذا اعتقد أنه من مبتدعات الله، ودالٌّ على ما هو كلامه حقيقة، أو قائم بذاته، ولكنه ليس صفة قائمة بذاته تعالى، فلا يكفر أصلًا، فخلاف الظاهر من حيث إن الشارع٢ يحكم بكفر منكره حالًا ، من غير استفسار له عن مراده، فإنَّ نفي هذا الإطلاق خلاف ما علم بالاضطرار من دين الإسلام، وخلاف ما دل عليه الشرع، والعقل، كما نقله الشيخ تقي الدين الفتوحي .

(١) فتح الباري (١٣ / ٤٩٣).

التتمة الثالث

قد نقل عن الملا عبد الرحمن الجامي ، في كتابه "الدرة الفاخرة" المسماة بحط رحلك، ما يشير إلى الخلاف بين من يقول: إن الكلام هو الحروف والأصوات، ومن يقول: إن الكلام النفسي القائم بذاته تعالى لفظي، فقال: واعلم أن ها هنا قياسين متعارضين.

أحدهما: أن كلام الله تعالى صفة له، وكل ما هو صفة له، فهو قديم، فكلامه قديم .

وثانيهما: أن كلام الله مؤلف من أجزاء مترتبة متعاقبة في الوجود ، وكل ما هو كذلك، فهو حادث، فكلام الله سبحانه حادث.

فافترق المسلمون أربع فرق:

فرقتان منهم ذهبوا إلى صحة القياس الأول، وقدحت واحدة منهما في صغرى القياس الثاني، وقدحت الأخرى في كبراه.

وفرقتان أخريان ذهبوا إلى صحة القياس الثاني، وقدحوا في إحدى مقدمتي الأول.

ثم ذكر كيفية قدحهم باعتبار مذاهبهم، فمن أراد ذلك، فليراجعه.

ثم قال: وفي الفتوحات المكية: إن المفهوم من كون القرن حروفًا أمران:

الأمر الواحد: المسمى: قولًا وكلامًا ولفظًا.

والأمر الآخر: يسمى: كتابًا ورقمًا وخطًا.

والقرآن يخط له حروف الرقم، وينطق به، فله حروف اللفظ، فلم يرجع إلى كونه حروفًا منطوقًا بها ؟. وهى كلام الله الذي هو صفة له، أو للمترجم عنه.

فاعلم: أنه قد أخبرنا نبيه صلى الله عليه وسلم: "أنه سبحانه يتجلى في القيامة بصور مختلفة، فيُعرَف ويُنْكَر"[1] ، فمن كانت حقيقته تقبل هذا التجلي، لا يبعد أن يكون الكلام بالحروف المتلفظة المسماة كلام الله لبعض تلك الصور، كما يليق بجلاله.

وقال أيضًا بعد كلام طويل : فإذا تحققت ما قررنا، ثبت أن كلام الله هو هذا المتلوُّ المسموع المتلفظ به المسمى قرآنًا، وتوراة، وزبورًا ، وإنجيلًا ، انتهى كلام الشيخ "الأكبر".

---

(١) فتح الباري (١٣ / ٤٩٣).

فالذي ظهر منه، أن الكلام الذي هو صفته سبحانه ليس سوى إفادته وإفاضته مكنونات علم على من يريد إكرامه، وأن الكتب المنزلة المنطوقة من حروف وكلمات كالقرآن وأمثاله، أيضًا كلامه ؛ لأنها من بعض صور تلك الإفادة والإفاضة، ظهرت بتوسط العلم والإرادة والقدرة في البرزخ الجامع بين الغيب والشهادة، بمعنى عالم المثال، من بعض مجاليه الصور المثالية، كما يليق به سبحانه، فالقياسان المذكوران في صدر البحث ليسا بمتعارضين في الحقيقة، فالمراد بالكلام في القياس الأول: الصفة القائمة بذاته ، وفي الثاني: ما ظهر في البرزخ من بعض المجالي الإلهية ، والاختلاف الواقع بين فرق المسلمين يشعر بعدم الفرق بين الكلامين ، والله أعلم .

التتمة الرابعة

فإن قلت: قد قدمت فيما نقلته عن الشيخ الموفق من كلام السلف في ذم الاشتغال بعلم الكلام، ونراك قد ألفت فيه، فالجواب أن المذموم منه ما كان غير مأخوذ من كتاب ولا سنة، بل كان بمحض الأقيسة، فقد قال الإمام أحمد، رحمه الله تعالى: "أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، واتباع القرآن، وليس في السنة قياس ، ولا تضرب بها الأمثال، ولا تدرك بالعقول –أو قال: بالمعقول– ولا بالأهواء، إنما هو الاتباع وترك الهوى" . انتهى.

فعلى هذا ، إن كل من اشتغل ببيان ما جاء عن السلف، ولم يؤول ، ولم يعطل، ولم يشبه، ولم يستعمل الأقيسة، وآراء الرجال المزخرفة بالأقوال، لا يقال: إنه اشتغل بالمذموم من علم الكلام ، فقد قال عمر بن عبد العزيز كلامًا معناه: "قف حيث وقف قوم، فإنهم عن علم وقفوا، وببصر ناقد كفوا، ولهم على كشف الأمور كانوا أقوى ، وبالفضل – لو كان فيها– أحرى، فلئن حدث بعدهم رأي ، فما أحدثه إلا من خالف هديهم، ورغب عن سنتهم، وقد صفوا ، فجنوا منه ما يشفي، وتكلموا منه بما يكفي، لقد قصر عنهم قوم وضعوا ، وتجاوزهم آخرون فغلوا ، وإنهم فيها بين ذلك لعلي هدًى " ولهذا قال مالك لما سئل عن الاستواء : الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

في هذه التتمة بين المصنف رحمه الله أن استعمال علم الكلام من غير الكتاب والسنة وساق رواية الإمام أحمد ﷺ في المنع منه ما لم يكن تبعًا للقرآن والسنة .

ومما ينبه له أن القرآن العظيم متضمن للأدلة العقلية وهي كثيرة ومنها .

أولها . قصة نبي الله إبراهيم عليه السلام مع قومه واستدل بدليل عقلي على هدم معتقدهم بقوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ (١).

(١) سورة الأنبياء : الآية (٦٢ _ ٦٥).

ثانيها . والتي تضرب الأمثال قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ (١).

والقرآن العظيم مليء بالأدلة العقلية التي يحتج بها .

ومع ذلك فإن الحاجة إلى علم الكلام والحجج والبراهين العقلية ، ملحة لاسيما في وجود العقلانيين والتنوريين .

(١) سورة الحج : الآية (٧٣).

التتمة الخامسة

قد ذكر بعض الحنابلة في عقيدته أن الشيخ الأشعري رحمه الله تعالى، معتقد ومؤتم وموافق لأحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، في اعتقاده الموافق لاعتقاد السلف، من حيث إجرؤاه المتشابه على ما قاله الله من غير تصرف، فقال رحمه الله تعالى ما نصه: "وأما أحمد بن حنبل وأصحابه منهم أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المتكلم، صاحب الطريقة المنسوبة إليه: فصل ، في إبانة قول الحق والسنة"، فإن قال قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة، والقدرية، والجهمية، والروافض، المرجئة، فعرفونا قولكم الذي تقولون، وديانتكم التي٤ تدينون.

قيل له: قولنا الذي نقول به، وديننا الذي ندين الله به، التمسك بكتاب ربنا، وسنة نبينا، وما روي عن الصحابة، والتابعين، وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما يقول أبو عبد الله أحمد بن حنبل –نصر الله وجهه ، ورفع درجته ، وأجزل مثوبته– قائلون، ولمن خالف قوله مخالفون؛ لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل، الذي أبان الله به الحق عند ظهور الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيغ الزائغين، وشك الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مقدم، وجليل معظم، وكبير مفخم .

وجملة قولنا بأنَّا نقر بالله ، وملائكته، وكتبه، ورسله، وبما جاءوا به من عنده، وبما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا نرد من ذلك شيئًا، وأن الله استوى على عرشه كما قال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}[١] ، ونقول فيما اختلفنا فيه بالرد إلى كتاب ربنا، وسنة نبينا، وإجماع المسلمين.

---

(١) طه : الآية (٥).

فإن قال قائل: ما تقولون في الاستواء؟ قيل له: إن الله مستوٍ على عرشه، كما قال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}[١] ،ونبطل تأويل من تأول بمعنى استولى.

إن هذا تفسير لم يقل به أحد من السلف، من سائر المسلمين، من الصحابة والتابعين، بل أول من قال ذلك الجهمية والمعتزلة، كما قاله أبو الحسن الأشعري في كتاب المقالات، وكتاب الإبانة ، فإنه كان معلومًا للسلف علمًا ظاهرًا، فيكون التفسير المحدث باطلًا، ولهذا قال مالك: الاستواء معلوم ، وأما قوله: والكيف مجهول، فالجهل بالكيف لا ينفي علم ، ما قد علم أصله، كما نقر بالله، ونؤمن به، ولا نعلم كيف هو، أشار إلى ذلك الشيخ ابن تيمية، رحمه الله تعالى، في بعض رسائله ، والله أعلم.

ختم المصنف رحمه الله تعالى كتابه بنفي تفسير الأشاعرة وأنهم لم يسبقهم إلى هذا التفسير أو التأويل ، وهو الاستيلاء .

واثبت أن الإمام أبا الحسن الأشعري قال بقول السلف في مسألة الاستواء .

وهو الحق الذي لا مرية فيه ، ونسأل الله تعالى الثبات على الإسلام والسنة .

وهذا آخر ما يسر الله لي من شرح هذا الكتاب ، أسأل الله تعالى أن يتقبله خالصًا لوجهه الكريم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

---

(١) الآية (٥).

الفهــــــــــــــرس

الفهـــــــــــــرس

الفهـــــــــــــرس

الفهـــــــــــرس

الفهـــــــــــــرس

الفهـــــــــــــرس